تغريدات النُبَلاء

مختصر سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

جمعه واعتنى به

حسام بن إبراهيم بن مقحم المقحم

تقديم فضيلة الشيخ

أبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

ⓒحسام ابراهيم مقحم المقحم ، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المقحم ، حسام ابراهيم مقحم
تغريدات النبلاء مختصر لسير أعلام النبلاء للإمام الذهبي. /
حسام ابراهيم مقحم المقحم .- الرياض ، ١٤٤٢هـ
٢١٨ ص ؛ ..سم

ردمك: ٧-٦١٧١-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- التراجم ٢- الاسلام - تراجم أ.العنوان
ديوي ٩٢٠ ١٤٤٢/٥٠٧٠

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٥٠٧٠
ردمك: ٧-٦١٧١-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

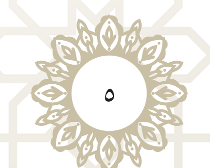



بسم الله الرحمن الرحيم



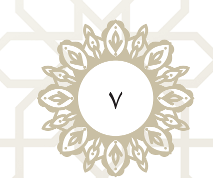


المحتويات



















تقديم بقلم أبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله رب العالمين: مدحًا لكماله الْـمُطلق في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ، وثناءً وشكراً له جَلَّجَلَالُهُ علىٰ ما أسبغه من نعمائه وآلائه.. وإنْ تعدوا نعمة الله لا تحصوها؛ فلك الحمد يا ربَّنا والشكر والثناء.. لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك.. وأُصلي وأُسلم علىٰ عبدِك ورسولِك محمد، وعلىٰ آله وأصحابه، وعلىٰ مَن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.. أمَّا بعد: لقد اطلعت علىٰ كتاب الأخ الفاضل حسام بن إبراهيم المقحم، الموسوم بعنوان (تغريدات النبلاء)، وأسعدني ذلك، علىٰ الرُّغْمِ من ضيق الوقت، وقلة النشاط، وكثرة الأعباء؛ فآثرتُ أنْ أسطرِّ هذه الكليمات؛ وهو انتقاء فوائد من كتاب الإمام الذهبي، وقد أحسن الأخ حسام في اختيار بعض الدرر مما ورد في الكتاب، واقتباس الفوائد مما أورده الإمام الذهبي في تراجمه للأعلام؛ وهو عمل جليل، وقد اعتمد علىٰ الاقتباسات من كتاب خدمه العلماء تحقيقًا واختصاراً، وعم صيته الأرجاء، وليس مثلي من يضيف ويعقب علىٰ صنعة الإمام الذهبي، وتبحره في كثير من العلوم والفنون.

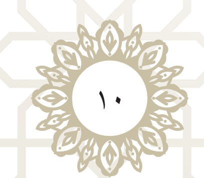




وقد تنوعت الفوائد المنتقاة في مواضيعها، ما بين شعر جزيل، وقول جميل، وحكمة سائرة، لعل فيها ما يفيد القراء الكرام؛ إذ أنَّ كتب السير والتراجم والأعلام احتوت علىٰ فوائد جمة؛ ولاشك أنَّ من أفضل كتب التراجم كتاب (سير أعلام النبلاء) للإمام الذهبي، الذي قال عنه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالىٰ: «من أجلِّ كتبه وأعظمها، وهو كتاب كبير عظيم».. وينبغي لطالب العلم والمثقف أنْ يقرأ في كتب التراجم وسير الصالحين التي تحث علىٰ العطاء والإخلاص كما يوجد هذا في (سير أعلام النبلاء)، والأعلام الذين ترجم لهم مليئة بالعبارات اللطيفة، والمعاني الجميلة، وفيها كثر من الدرر والعبر.

وفي هذا الكتاب حاول أخي (حسام) جزاه الله خيراً بذل الجهد فيما استطاع جمعه، وقد انتقىٰ بعضها، ونسب كل فائدة إلىٰ قائلها، وحرص أنْ تكون مختصرة، أسأل الله تعالىٰ أنْ ينفع بها كاتبَها وقارئها وناشرها.

قال أبو عبدالرحمن: كتب التراجم مَعين فوائد لا يجف، تتنوع فوائدها بتنوع شخصيات المترجَم لهم، وبتنوع معارفهم وعلومهم، وبثقافة المصنِّف وإحاطته واطلاعه؛ ففيها الأخبار الرائقة، والأشعار الفائقة، والتواريخ والأيام





المشهورة، وما تلك الصفحات التي حوت تلك التغريدات المقتبسة في هذا الكتيِّب باختصارٍ ليس فيه أدْنىٰ خَلَل؛ وذلك ما جَعَله يلجُ إلىٰ ذاكرةِ القارئِ بلا استئذان .. داعيـًا الله جَلَّجَلَالُهُ أنْ يجعلَ هذا الكتيِّب عامَّ النفعِ، وأنْ يثيبَ جامعه خيرَ الأجرِ ، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين .

كتبه لكم :

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

(محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل)

ـ عفا الله عَنِّي ، و عنهم ، وعن جميع إخواني المسلمين ـ

[الرياض في ٢٧ من جمادىٰ الأولىٰ عام ١٤٤٢هجريـًا / الموافق ١١ يناير عام ٢٠٢١ميلاديـًا]





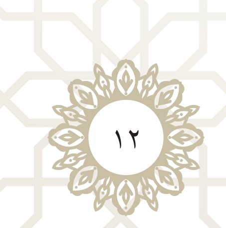
المقدمة:

إِنَّ قراءة الكتب المطولة أمرٌ تقصر دونه الهمم. وإن كان هذا الحكم في المطلق صحيحـًا، فهو في زمن ثورة مواقع التواصل الاجتماعي أصح.

يلاحظ القارئ الكريم، أن مواقع التواصل الاجتماعي جعلت من صفحة الكتاب تغريدة، ومن المحاضرة الطويلة مقطعـًا قصيراً على اليوتيوب وغيره.

وأنا هنا لا أدعي بأنني ممن ملك الهمة لقراءة كتاب أعلام الأمة (سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي – المتوفى سنة ٧٤٨ هـ - ١٣٧٤ م) وإنما هي محاولة لقراءة جادة لم تخل من قراءةٍ سريعة حينما تتعلق الموضوعات بشيوخ المُتَرجَمِ له ومن حدَّث عنه.

ووجدت بعد أن أمضيت في قراءة الكتاب بأجزائه الثلاثة والعشرين، سنة ونيِّفا، أنه من المناسب المشاركة ببعضٍ ما استوقفني في تلك القراءة من خلال هذا الكتاب الذي عنونت له بتغريدات النبلاء راجيـًا أن يكون في هذا الاسم دلالةً على أن ما بين يدي القارئ الكريم مختصر المختصرات.





ثم هي ليست بالضرورة كالتغريدات بمفهوم العصر التي هي في الغالب كلاماً للشخص أو نقلاً عنه، وإنما هي قد تتجاوز ذلك بنقل المواقف أو الحدث الغريب والجدير بالتدوين عن الشخصية.

وكان منهجي في هذا المختصر: الاعتماد علىٰ الذائقة الشخصية، فمن وافقت اختياراتي جزءًا من عقله فهذا أملي بلا شك، ومن لم توافق؛ فهو عملٌ إنساني ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢].

ولقد عمدت في تقديم محتوىٰ المختصر علىٰ أن يكون مُصَنَّفًا في موضوعات متنوعة، وهي طريقة مختلفة عن طريقة الإمام الذهبي في كتابه التي اعتمد فيها -رحمه الله- علىٰ نظام الطبقات بتقسيمٍ زمني، راجياً أن يكون ذلك أدعىٰ للفائدة ، وأحثُّ للمتعة ، وأن يكون مصدراً يعاد إليه لمن أراد الاطلاع علىٰ ما ورد في موضوعٍ بعينه.

والله ولي التوفيق ،،،

حسام بن إبراهيم المقحم

١٠/٥/١٤٤٢ هـ

الموافق ٢٥/١٢/٢٠٢٠ م

الرياض





الرأي في الرجال

قال عمر بن الخطاب لجلسائه: تمنَّوا، فتَمَنَّوْا، فقال عمر: لكني أَتمنّىٰ بيتاً ممتلئاً رجالاً مثلَ أَبي عُبَيْدَةَ بْنِ الجرَّاحِ.

خطب عمر بن الخطاب بالجابية، فقال: من أَرادَ أَن يسأل عن القرآن، فليأتِ أُبيَّ بنَ كعب، ومن أَراد أَن يسأل عن الفرائض، فليأتِ زيداً، ومن أراد أَن يسأل عن الفِقه، فليأتِ معاذاً، ومن أَراد أَن يسأل عن المال، فليأتني، فإن الله جعلني خازناً وقاسماً.

توفيت أُمُّ كُلْثُوم بنت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شعبان سنة تسع. فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو كن عشراً لزوجتهنَّ عُثمان».

كان ابنُ عمر يقول: حدِّثونا عن العاقِلَيْن. فيقال: مَن العاقلان؟ فيقول: معاذ، وأبو الدرداء.

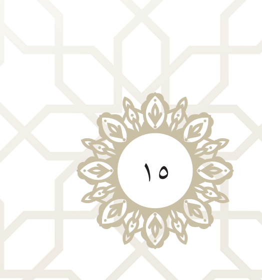


قال عُمر: جرير بن عبدالله يوسف هذه الأمة لجمال صورته.

قال عبدالله بن صالح العجلي، قال رجلٌ لعوانة بن الحكَم: أجملُ النَّاسِ جريرُ بنُ عبدالله البَجَلي ؟ فقال: بل أجملُ الناسِ مَنْ نزلَ جبريلُ علىٰ صورته - يعني دحية الكلبي.

خطبَ معاويةُ علىٰ منبر حمص، وهو أميرٌ علىٰ الشَّامِ كُلِّه، فقال: والله ما علمتُ يا أهل حمص إنَّ اللهَ ليسعدُكُم بالأمراء الصالحين: أولُ من ولي عليكم عياضُ بنُ غنم، وكان خيراً مني؛ ثم ولي عليكم سعيدُ بن عامر، وكان خيراً مني، ثم وليَ عليكم عُميرُ بن سعد، ولنعم العُمَير كان؛ ثم هاأناذا قد وليتكم، فستعلمون.

كان عُمير بنُ سعد يُعجب عُمر؛ فكان من عجبه به يُسمِّيه: نَسيج وحده.





عن قبيصة بن جابر: قد صحبت عَمْرو بنُ العاص، فما رأيت رجلا أبين أو أنصع رأيـًا، ولا أكرم جليسـًا منه، ولا أشبه سريرةً بعلانيةٍ منه.

وعن عائشةَ: ما رأيتُ أحداً ألزمَ للأمر الأول من عبدالله بن عُمر.

أبُو حَنيفَة عُني بطلب الآثار، وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه، فإليه المنتهىٰ والناس عليه عيال في ذلك.

قال عبدالله بن المبارك: لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان، كنت كسائر الناس.

قال الشافعيُّ: قيل لمالك: هل رأيت أبا حنيفة ؟ قال: نعم. رأيتُ رجلاً لو كلَّمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبـًا لقام بحجته.



وقال الشافعي: الناسُ في الفقه عيال علىٰ أبي حنيفة.

قال ابن فُضَيل: ما أحْسِب أن الله يَدفَعُ البلاءَ عن أهلِ الكوفَةِ إلا بحمزَة بنُ حَبيْب الزيات.

رأىٰ أبوإسحاق السَّبيعي سُفيان الثَّوري مُقْبلاً: فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[مريم:١٢].

كانت أمُّ شريك مِن خراسانَ، فرآها أعرابيٌّ وهي علىٰ حمار، وشريكُ صبي بينَ يديها، فقال: إنَّك لتحملين جَندلةً مِن الجنادل.

قال سفيانُ: إني لأشتهي من عمري كلِّه أن أكون سنة مثلَ عَبدالله بن المبارك، فما أقْدِر أن أكون ولا ثلاثة أيام.



كان خلق من طلبة الحديث يتكلَّفون الحج، وما المحرِّك لهم سوىٰ لُقي سُفيانَ بن عُيَيْنة ، لإمامته وعلوِّ إسناده.

قال أبوعُبيد: ما رأيتُ أحداً أعقلَ من الإمامُ الشّافِعي، وكذا قال يونس بن عبدالأعلىٰ، حتىٰ إنه قال: لو جُمعت أُمةٌ لوسعهم عقلُه.

ورُوي عن هارون بنِ سعيدٍ الأيْلِيّ قال: لو أَنَّ الشافعيَّ ناظَر علىٰ أَنَّ هذا العمودَ الحجرَ خَشَبٌ لَغَلَب، لاقتدارِهِ علىٰ المُنَاظرة.

قال فيه يَزيدُ بن هارون: عَمْرو بنُ عَوْن مِمَّن يَزدادُ كلَّ يوم خيراً.

قال المرُّوذيُّ: أدخلتُ نصرانيـًا علىٰ أبي عبدالله أحمَد بنُ حَنْبل، فقال له: إني لأشتهي أن أراك منذ سنين. ما بقاؤك صلاحٌ للإسلام وحدَهم، بل للخلق جميعـًا، وليس من أصحابنا أحد إلا وقد رضي بك. فقلتُ لأبي عبدالله: إني لأرجو أن يكون يُدعىٰ لك في جميع الأمصار. فقال: يا أبابكر إذا عرف الرجلُ نفسَه، فما ينفعُه كلامُ الناس.





قال محمد بن المُظَفَّر الحافظ: سمعتُ مشايخَنا بمصر يصِفُونَ اجتهادَ النَّسائي في العِبادة باللَّيل والنَّهار، وأنَّه خرجَ إلىٰ الفِداء مع أمير مصر، فَوُصِفَ من شَهامَتِه وإقامَتِه السُّنَن المأثورة في فِداء المسلمين، واحترازِهِ عن مجالس السُّلطان الذي خَرَج معه، والانبساطِ في المَأْكل، وأنَّهُ لم يزل ذلك دأبَهُ إلىٰ أن استُشْهد بدمشق من جِهَةِ الخَوارج.



قال أبوالحسن البيهقي في «وشاح دُمية القصر»: الراشد بالله منصور بن الفضل، أعطاه الله مع الخلافة صورةً يُوسفيَّة، وسيرةً عُمَريَّة.

قال الغزّالي فيما حكاه ابنُ عساكر أنه قال: خَلَّفْتُ بالشام شابّـًا (يعني جمال الإسلام أبوالحسن عليُّ بن المُسَلَّم) إنْ عاشَ كان له شأنٌ. فكان كما تفرَّس فيه.



أَبو العَلاء الهَمَذانيُّ الحسن بن أحمد، كانت السُّنَّةُ شعارَه ودثارَهُ اعتقاداً وفعْلاً، بحيثُ إنَّهُ كانَ [إذا دَخَلَ] مجلسه رجلٌ، فقدَّمَ رِجْلَهُ اليُسْرىٰ كلَّفَهُ أنْ يرجعَ، فيقدِّمَ اليُمنىٰ، ولا يمسُّ الأجزاءَ إلاَّ علىٰ وضوءٍ، ولا يَدْعُ شيئًا قطُّ إلاَّ مستقبلَ القبلةِ تعظيمـًا لها.

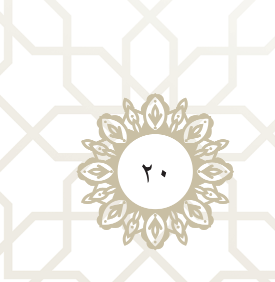




قال العِمَادُ الكاتب: ابن مَواهب عَلاَّمَةُ الزَّمانِ في الأدبِ والنحوِ، مُتبَحِّرٌ في عِلْمِ الشِّعر، قادرٌ علىٰ النَّظمِ، له خاطرٌ كالماء الجاري، وديوانُهُ في خمسة عشرَ مُجَلَّدًا، وكان واسعَ العبارةِ، غزيرَ العلمِ، ذكيًّا.

قال الموفَّقُ عبداللطيف بنُ يوسفَ: كان أبو طالب الكَرْخِيّ ربَّ علمٍ وعَمَلٍ وعفافٍ ونُسُكٍ، وكانَ ناعمَ العيشِ، يقومُ علىٰ نفسِه وبدنِه قيامًا حكيمًا، رأيتُه يُلقي الدرسَ، فسَمِعتُ منه فصاحةً رائعةً، ونغمةً رائقة، فقلتُ: ما أفصَحَ هذا الرجلَ ! فقالَ شيخُنا ابنُ عُبَيدَةَ النحويُّ: كانَ أبوهُ عوَّاداً، وكانَ هُوَ معي في المكتَبِ، فَضَرَبَ بالعودِ، وأجادَ، وحذقَ حتىٰ شَهِدوا له أنَّه في طبقةِ مَعبَدٍ، ثم أنِفَ، واشتَغَلَ بالخطِّ إلىٰ أن شَهِدَ له أنه أكتَبُ من ابن البَّوابِ، ولا سيَّما في الطُّومارِ والثُّلثُ، ثم أَنِفَ منهُ، واشتغلَ بالفقهِ، فصار كما ترىٰ.

وكان الشاطبيُّ إذا قُرِئَ عليهِ «المُوَطَّأ» و «الصحيحان»، يُصحِّحُ النسخَ من حفظِه، حتىٰ كانَ يقالُ: إنه يحفَظُ وَقْرَ بعيرٍ من العلومِ.





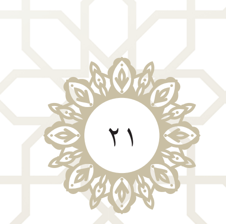
قال عزُّ الدِّينِ ابنُ البُزُورِيِّ: كانَ صاحبُ غَزنَة محمد بن سام ملكـًا عادلاً، وللمالِ باذلاً، فكانَ مُحسِنـًا إلىٰ الرعيَّةِ، رؤوفـًا بهم، كانت بهِ ثغورُ الأيَّامِ باسمةً، وكلُّها بوجودهِ مواسم. قرَّب العلماءَ، وأحبَّ الفُضَلاءَ، وبَنَىٰ المساجدَ، والرُّبُطَ والمدارسَ، وأَدَرَّ الصَّدَقاتِ، وبَنَىٰ الخانات.

قال ابن الحاجب: كان ابنُ البُنّ الحسن بن علي الخشاب دائم السكوت وإذا نَفَر من شيءٍ لا يعود إليه.

قال ابن مَسْديّ: كانَ ابن حَريق علي بن محمد المخزومي إنْ نَظَمَ أعجَزَ وَأبْدَعَ، وإنْ نَثَرَ أوجَزَ وَأَبْلَغ.

قال ابن أبي أُصيبعة: كان أبي وَعَمِّي يشتغلان عليه –يعني الموفَّق عبداللطيف بن يوسف، وقلمه أجود من لفظه، وكان ينتقص بالفُضلاء الذين في زمانه، ويحط علىٰ ابن سينا.







عن اليقين وحسن الظن بالله

بلغ عمرَ بن الخطاب أَنَّ أَبا عبيدة حُصِر بالشام، ونال منه العدوُّ، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه ما نزل بعبد مؤمن شدة، إلا جعل الله بعدَها فرجًا، وإنه لا يَغلبُ عُسرٌ يُسريْن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾، الآية [آل عمران: ٢٠٠].

لما احتُضِرَ أَبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب قال: لا تبكوا عليّ، فإني لم أتنطَّف بخطيئة منذ أَسلمتُ.

قال عبدُالله بنُ مسعود: حبَّذا المكروهانِ الموتُ والفقرُ. وايمُ الله ما هو إلاَّ الغِنىٰ والفقر ما أُبالي بأَيِّهما ابتدئت: إن كان الفقر إنَّ فيه للصبرَ، وإن كان الغنىٰ إنَّ فيه للعطف، لأن حقَّ الله في كل واحد منهما واجب.



قال المُبرِّد: قيل للحسن بنُ عليّ بن أبي طالب بن علي: إنَّ أبا ذر يقول: الفقرُ أحبُّ إليَّ مِن الغنىٰ، والسقمُ أحبُّ إليَّ من الصحة. فقال: رحم اللهُ أبا ذر. أما أنا فأقول: من اتَّكَلَ علىٰ حُسنِ اختيار الله له، لم يَتَمَنَّ شيئًا. وهذا حدُّ الوقوف علىٰ الرضىٰ بما تصرف به القضاء.



قال القاسم بن مخيمرة: لم يجتمع علىٰ مائدتي لونَانِ من طعام قطُّ، وما أغلقتُ بابي قطُّ ولي خلفه همٌّ.



تَبِعَ محمد بن المُنْكَدِرِ جنازةَ سفيهٍ، فعُوتِبَ، فقال: واللهِ إني لأستحي من الله أن أرىٰ رَحمته عَجزت عن أحد.



كان حيوة بنُ شُرَيح يأخذ عطاءه في السنة ستينَ ديناراً فلم يطلع إلىٰ منزله حتىٰ يتصدق بها، ثم يجيء إلىٰ منزله، فيجدها تحت فراشه، وبلغ ذلك ابن عم له، فأخذ عطاءَه، فتصدَّقَ به كُله، وجاء إلىٰ تحت فراشه فلم يجد شيئًا، فشكا إلىٰ حيوة فقال: أنا أعطيت ربي بيقين، وأنت أعطيته تَجرِبةً.





عن سُفيان الثوري، قال: ليس بفقيهٍ من لم يَعُدَّ البلاء نعمة، والرَّخاء مُصِيْبة.

وقال الخَلِيْل بن أحمد الفراهيدي: إني لأُغلق عليَّ بابي، فما يُجاوزه هَمي.

قال الفُضَيل بن عِياض: الخوفُ أفضل من الرَّجاء ما دام الرجلُ صحيحاً، فإذا نزل به الموت، فالرجاءُ أفضل.

قال الفُضَيل بن عِياض: إذا أحبَّ اللهُ عبداً، أكثر غمَّه، وإذا أبغض عبداً، وسَّع عليه دنياه.

قال الفُضَيل بن عِياض: وعزَّتِه، لو أدخلني النار ما أَيِستُ.



قال الفُضَيل بن عِياض: لا يبلُغُ العبدُ حقيقة الإيمان حتىٰ يَعُدَّ البلاءَ نعمةً، والرخاءَ مصيبة، وحتىٰ لا يُحِبَّ أن يُحمد علىٰ عبادة الله.

وعن سُفيان بن عُيَيْنة قال: فِكْرُكَ في رِزْقِ غَدٍ يكتبُ عَلَيْكَ خَطِيئَة.

قال محمدُ بنُ يَحيىٰ الذُّهلي: سألتُ الخُرَيْبيَّ عن التوكُّل، فقال: أرىٰ التوكُّل حُسْنَ الظنّ بالله.

قيل لحاتم الأَصَمّ: علىٰ ما بنيتَ أمرك في التوكل ؟ قال: علىٰ خصال أربعة: علمتُ أن رزقي لا يأكلهُ غيري، فاطمأَنَّتْ به نفسي، وعلمتُ أن عملي لا يعملُه غيري، فأنا مشغولٌ به، وعلمتُ أن الموتَ يأتي بغتةً، فأنا أبادِرُه، وعلمتُ أني لا أخلو من عينِ الله، فأنا مستحيٍ منه.



قال أبوتُراب: سمعتُ حاتماً الأَصَمّ يقول: لي أربعةُ نسوة، وتسعةُ أولاد، ما طمع شيطانٌ أن يُوسوسَ إليّ في أرزاقهم.

وعن الذُّهلِيُّ محمد بن يحيىٰ قال: خرجت مع وهب بن جرير إلىٰ مكة، فلما بلغناها، أصابتنا شِدَّةٌ، فسمعتُ وهباً يقول:

إنَّ الذي نَجَّاكَ مِنْ بَطْنِ ذَمَهْ

ومن سُيولٍ في بُطونٍ مُفْعَمَه

لَقَادِرٌ أَنْ يَسْتَتِمَّ نِعَمَهُ

ومن كلام حَمدُون القَصَّار، قال: لا يَجْزَعُ من المُصِيْبَة، إلَّا من اتَّهمَ رَبَّه.

قال أبو عليِّ الرُّوذبَاري: أنفعُ اليقينِ ما عظَّمَ الحقَّ في عينك، وصغَّرَ ما دونَهُ عندَك، وثبَّت الرَّجَاءَ والخوف في قلبِكَ.







في الزهد والتخفف من الدنيا

حين قدم عمر بن الخطاب الشام، قال لأبي عبيدة: اذهب بنا إلىٰ منزلك، قال: وما تصنع عندي ؟ ما تريد إلّا أن تُعصِّرَ عينيك عليَّ. قال: فدخل، فلم يرَ شيئًا، قال: أَين متاعُك ؟ لا أَرىٰ إِلا لِبْداً أو صحفة وشَنًّا، وأَنت أَمير، أَعندك طعام ؟ فقام أَبوعبيدة إلىٰ جَوْنَةٍ، فأخذ منها كُسَيرَات، فبكىٰ عمر، فقال له أَبوعبيدة: قد قلت لك: إِنك ستعصِر عينيك عليَّ يا أَمير المؤمنين، يكفيك ما يُبلِّغك المقيل. قال عمر: غيرتْنا الدنيا كلَّنا غيرك يا أَبا عبيدة.

عن المِقداد بن الأسود قال: استعملني رسولُ الله، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، علىٰ عمل، فلما رجعتُ، قال: «كيف وجدتَ الإِمارَة» ؟ قلتُ: يا رسولَ الله! ما ظننتُ إِلا أَنَّ الناسَ كُلَّهم خَوَلٌ لي. والله لا أَلي علىٰ عمل ما دمتُ حيًا.

قال مالك بن دينار: وددت أن رزقي في حصاةٍ أمتصُّها لا ألتمس غيرها، حتىٰ أموت.





وعن سفيان الثوري قال: ما رأيتُ الزُّهْدَ في شيء أقلَّ منه في الرِّئاسة، ترىٰ الرَّجل يزهدُ في المطعم والمشرب والمال والثِّياب، فإن نوزِع الرئاسة، حامىٰ عليها، وعادىٰ.

سُئِل سَعيد بن عبدالعزيز عن الكفاف من الرِّزق ما هو ؟ قال: شِبعُ يومٍ وجوعُ يومٍ.

ومن كلام سُفيان بن عُيَيْنة قال: الزُّهدُ: الصبرُ، وارتقابُ الموت.

وقال أحمد بن أبي الحَوَاري: قلتُ لسفيان بن عيينة: ما الزُّهدُ في الدنيا ؟ قال: إذا أنعم عليه فشكر، وإذا ابتُلي ببليّة فصبَر، فذلك الزُّهدُ.

قال المُسيِّبُ: سألت يوسف بن أَسْبَاط عن الزُّهد، فقال: أَنْ تَزْهَدَ في الحلال، فأمَّا الحرامُ، فإنِ ارتكبتَهُ، عَذَّبك.

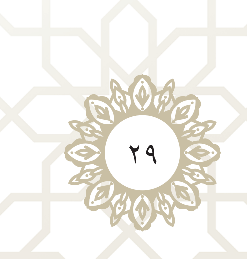


قال أبو تُراب: سمعتُ شَقِيقًا يقول: الكسلُ عونٌ علىٰ الزهد.

وعن ابنِ حَفْصُون، قال: قلت لأبي وَهْب زاهد الأندلس: تعلم أني كبيرُ الدَّار، فاسكنْ معي، وأخدِمُك وأشارِكُك في الحُلْو والمُرِّ، قال: لا أفعل، إني طَلَّقْتُ الدُّنيا بالأمس، أفأُراجعها اليوم ؟ فالمطلِّق إنما يطلِّق المرأة بَعْدَ سوء خُلُقِها، وَقِلَّة خيرها، وليس في العقل الرجوعُ إلىٰ مكروه، وفي الحديث «لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين».

ومن كلام ابنُ نُجَيْد إسماعيل بن نجيد: من قدرَ علىٰ إسقاطِ جاهِهِ عند الخَلْق، سهلَ عليه الإعراضُ عن الدُّنيا وأهلِها.

قال أبوبكر البَرْقاني: قلت لابن سَمعُون محمد بن أحمد يومـًا: تدعو الناسَ إلىٰ الزُّهد، وتلبس أحسنَ الثياب، وتأكل أطيب الطَّعام، كيف هذا ؟ فقال: كلُّ ما يُصلحك لله فافعله إذا صلح حالُكَ مع الله تعالىٰ.





قال الخَلّال: خرج أبو الفضل ابن بُندار الإمامُ أبو الفضل عبدالرحمن بن أحمد العجلي نحو كَرْمان، فشيَّعه الناسُ، فصرفهم، وقصد الطريقَ وحده، وهو يقولُ:

إِذَا نَحْـــنُ أَدْلَجْنَا وَأَنْـــتَ إِمَامُنَا   كَـــفَى لِمَطايَانَا بِذِكْـــرَاكَ حَادِيا

كان ابنُ تُومَرت محمد بن عبدالله يتمثل كثيراً:

تَجَـــرَّدْ مِـــن الدُّنيا فإنَّـــك إنَّما   خَرَجْـــتَ إلى الدُّنْيَا وَأَنْـــتَ مُجَرَّدُ

وكان الرِّفاعِيُّ أحمد بن أبي الحسين لا يجمعُ بين لبسِ قميصين، ولا يأكلُ إلا بعدَ يومين أو ثلاثةٍ أكلةً، وإذا غسلَ ثوبَه، ينزلُ في الشَّطِّ كما هو قائمٌ يفركُهُ، ثم يَقِفُ في الشمسِ حتىٰ ينشَفَ، وإذا ورد ضَيفٌ، يدورُ علىٰ بيوتِ أصحابه يجمعُ الطعامَ في مئزرٍ.







في الوعظ

كان أبو عبيدة يسيرُ في العسكر فيقول: أَلا رُبَّ مُبيِّضٍ لثيابه، مُدَنِّسٍ لدينه ! أَلا رُبَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مُهين ! بادروا السيئاتِ القديماتِ بالحسناتِ الحديثاتِ.



يحيىٰ القطان: عن عَوف، حدثني أَبو رجاء قال: رأيت طلحة بن عُبيد الله علىٰ دابته وهو يقول: أَيها الناس أَنصتوا، فجعلوا يركبونه ولا يُنصتون، فقال: أُفّ ! فَرَاشُ النار، وذُباب طمع.



خطب عُتبة بن غزوان فقال: أَلا إنَّ الدّنيا قد آذنت بصَرْم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبابة كصُبابةِ الإِناءِ، وإِنكم في دارٍ تنتقِلُون عنها، فانتقِلوا بخيرِ ما بحضرتِكم.



قال عبدُالله بنُ مسعود: من أَراد الآخرة أَضرَّ بالدُّنيا، ومن أَراد الدنيا، أَضرَّ بالآخرة، يا قوم فأَضِرُّوا بالفاني للباقي.





قال عبدُالله بنُ مسعود: إِنكم في ممرِّ الليل والنهار في آجال منقوصة، وأَعمال محفوظة، والموتُ يأتي بغتة، من زرع خيراً يُوشِكُ أَن يَحْصُدَ رغبة، ومن زرع شرًّا يُوشِكُ أَن يحصد ندامةً، وَلِكل زارع مِثلُ ما زرع، لا يُسبقُ بطيءٌ بحظه، ولا يُدرِكُ حريصٌ ما لم يُقَدَّرْ له، فمن أُعطِيَ خيراً، فالله أَعطاه، ومن وُقي شرًّا، فالله وقاه، المتقون سادة، والفقهاءُ قادة، ومجالستهم زيادة.

كتب أبوالدَّرداء إلىٰ مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد: سلامٌ عليك. أمَّا بعد، فإِنَّ العبدَ إذا عمل بمعصية الله، أبغضَه الله؛ فإذا أبغضه اللهُ، بغَّضه إلىٰ عباده.

عن أبي الدرداء: إني لآمركم بالأمر وما أفعله، ولكن لعلَّ الله يأجُرُني فيه.

خطب شدَّاد بنَ أوس، فقال: أيها الناسُ، إنَّ الدنيا أجلٌ حاضر، يأكل منها البَرُّ والفاجر، وإن الآخرة أجلٌ مستأخر، يحكم فيها ملكٌ قادر. ألا وإنَّ الخير كُلَّه بحذافيره في الجنة؛ وإن الشرَّ كُلَّه بحذافيره في النار.





قال أبوسعيد الخُدري: عليك بتقوىٰ الله فإِنَّه رأسُ كل شيء. وعليك بالجهاد، فإِنَّه رهبانية الإِسلام، وعليكَ بذكرِ الله وتلاوةِ القرآن، فإنه روحك في أهل السماء، وذكرُك في أهل الأرض. وعليكَ بالصَّمْتِ إلا في حقّ، فإنّك تَغلبُ الشيطان.



قال جُندُب بن عبدالله بن سفيان: أُوصيكم بتقوىٰ الله، وأوصيكم بالقرآن ، فإنه نورٌ بالليلِ المظلم، وهُدىٰ بالنهار، فاعملوا به علىٰ ما كان من جهد وفا قة، فإن عَرَضَ بلاءٌ، فقدِّم مالَكَ دون دينك، فإِن تجاوز البلاء، فقدِّم مالك ون فسك دون دينك، فإِن المخروبَ من خرب دينُه، والمسلوبَ من سلب دينُه. واعلم أنه لا فاقةَ بعد الجنة، ولا غنىٰ بعد النار.



قال مُطرِّفُ بن عبدالله بن الشِّخِّير: إنَّ هذا الموت قد أفسد علىٰ أهل النعيم نعيمهم. فاطلبوا نعيماً لا موت فيه.

قال طَلق بنُ حَبيب العَنَزيّ: إنَّ حقوق الله أعظمُ مِنْ أن يقومَ بها العباد، وإنَّ نعم الله أكثر من أن تحصىٰ، ولكن أصبِحُوا تائبين، وأمسوا تائبين.





قال أبوحازم: لا يُحسن عبد فيما بينه وبين الله، إلا أحسن الله ما بينه وبين العباد. ولا يُعوِّر ما بينه وبين الله إلا عوَّر فيما بينه وبين العباد. لَمُصانعةُ وجه واحد أيْسَرُ من مُصانعة الوجوه كلها. إنك إذا صانعته مالت الوجوه كلها إليك، وإذا استفسدت ما بينه، شَنِئَتك الوجوه كلها.

قال سَعيدُ بن عبدالعزيز: من أحسنَ فَلْيَرْجُ الثوابَ، ومن أساءَ فلا يستنكرِ الجزاءَ، ومن أخذ عِزاً بغير حق أورثَهُ الله ذُلاًّ بحقٍ، ومن جَمع مالاً بظلمٍ أورثهُ الله فقراً بغير ظلم.

وعن ابن السَّمَّاك قال: هب الدنيا في يديك، ومثلُها ضُمَّ إليك، وهبِ المشرق والمغرب يجيء إليك، فإذا جاءك الموتُ، فماذا في يديك ؟! ألا مَن امتطىٰ الصبر، قوي علىٰ العبادة، ومن أجمع الناس، استغنىٰ عن الناس، ومن أهمَّته نفسهُ لم يولِ مَرَمَّتها غيره، ومن أحبَّ الخير، وُفِّق له، ومن كَره الشر، جُنِّبَهُ، ألا متأهبٌ فيما يُوصف أمامه، ألأ مستعدٌ ليومِ فقره، ألا مبادرٌ فناءَ أجَلِه. ما ينتظر من ابيضَّت شَعرته بعد سوادها، وتكرَّش وجهه بعد انبساطِه، وتقوَّس ظهرهُ بعد انتصابِهِ، وكلَّ بصره، وضعف ركنُه، وقلَّ نومه، ويَلي منه شيء بعد شيء في حياته، فرحم الله امرأً عَقَل الأمر، وأحسنَ النَّظر، واغتنم أيامَه.



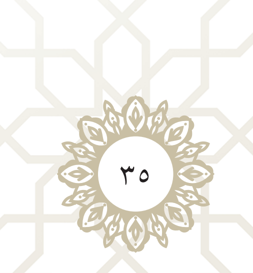


قال عبدالله بن المُبارك: إن البصراء لا يأمنون من أربع: ذنب قد مضىٰ لا يُدْرَىٰ ما يصنع فيه الربُّ عزَّ وجل، وعمرٍ قد بقي لا يُدْرَىٰ ما فيه من الهَلَكَةِ، وفضل قد أُعطي العبدُ لعله مكرٌ واستدراجٌ، وضلالة قد زُيِّنت، يراها هدىً، وزيغِ قلب ساعة فقد يُسلب المرءُ دينَه ولا يشعر.

وعن الفُضَيل بن عِياض قال: مَنْ خاف اللهَ لم يضرَّه أحدٌ، ومن خاف غيرَ الله، لم ينفعه أحد.

قال الفُضَيل بن عِياض: بقدر ما يصغر الذَّنبُ عندك يعظمُ عند الله، وبقدر ما يَعْظُمُ عندك يصغرُ عند الله.

وعن سُفيان بن عُيَيْنة قال: من كانت معصيتهُ في الشَّهوة فارجُ له، ومن كانت معصيتهُ في الكِبْرِ، فاخشَ عليه، فإنَّ آدم عصىٰ مشتهيًا، فَغُفِرَ له، وإبليس عصىٰ متكبراً فَلُعِنَ.





قال محمود بن وَالان: سمعتُ عبدالرحمن بن بِشر، سمعتُ سُفيان بن عُيَيْنة يقول: غَضَبُ الله الدَّاءُ الذي لا دواءَ له، ومن استغنىٰ بالله، أحوجَ اللهُ إليه الناسَ.

وعن شَقِيق قال: عَلامَةُ التَّوبة البُكاءُ علىٰ ما سلف، والخوفُ من الوقوع في الذَّنْب، وهِجْرانُ إخوانِ السُّوءِ، وملازمةُ الأخيار.

عن معروفٍ الكَرخيّ قال: من كابر الله، صَرَعه، ومن نازعه، قَمَعَه، ومن ماكَرَهُ، خَدَعه، ومن تَوَكَّلَ عليه، مَنَعه، ومَنْ تواضعَ له، رفعه، كلامُ العبد فيما لا يعنيه خِذْلانٌ من الله.

هِشامُ بنُ عَمَّار يقول في خطبته: قولوا الحقَّ، ينزلكم الحقُّ منازِلَ أَهل الحق يوم لا يُقضىٰ إلا بالحق.

وعن حَاتِم الأَصَمُّ قال: تعاهدْ نفسَك في ثلاث: إذا عملتَ، فاذكرْ نَظَرَ الله إليك، وإذا تكلمتَ، فاذكرْ سمْع الله مِنْك، وإذا سكتَّ، فاذكرْ علمَ الله فيك.





وعن حاتم الأَصَمُّ قال: لو أنَّ صاحب خَيرٍ جلس إليك، لكنت تتحرز منه، وكلامكُ يُعرض علىٰ الله فلا تحترز.

وعن أبو حَفصٍ عمرو النَّيْسابوريُّ قال: الكرمُ طَرحُ الدنيا لمن يحتاجُ إليها، والإِقبالُ علىٰ الله بحاجتك إليه. أحسنُ ما يتوسَّلُ به العبدُ إلىٰ مولاه الافتقارُ إليه، وملازمةُ السنة، وطلبُ القوت من حِلِّه.

ومن كلام سَهل بنُ عَبدِالله التستري: لا مُعِينَ إلاَّ الله، ولا دَلِيلَ إلا رسُول الله، ولا زَادَ إلا التَّقوىٰ، ولا عَمَل إلا الصَّبرُ عليه.

قال ابنُ الحَدَّاد سعيد بن محمد بن صبيح: مَن طالَتْ صُحْبتُهُ للدّنيا وللنَّاس فقد ثَقُل ظهرهُ. خابَ السَّالون عن الله، المتنعِّمُون بالدُّنيا. مَنْ تحبَّبَ إلىٰ العِبَاد بالمعاصي بَغَّضَهُ اللهُ إليْهم.

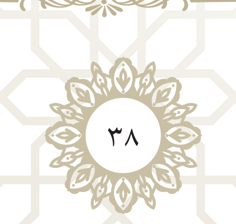




يقول أبو وَهب زاهد الأندلس: لا عانَق الأبكار في جنات النعيم والنَّاس غداً في الحِسَاب إلاَّ مَنْ عانق الذُّلَّ، وضاجع الصَّبْر، وَخَرَجَ منها كما دَخَلَ فيها. ما رُزِقَ امرؤٌ مثل عافية، ولا تصدَّق بمثل مَوْعظة، ولا سأل مثل مَغْفرة.

وعن ابنُ نُجَيْد إسماعيل بن نجيد قال: لا يَصْفُو لأحدٍ قدمٌ في العبودية حتىٰ تكونَ أفعالُه عندَه كلها رياء، وأحوالُه كلّها عنده دعاوىٰ.

قال ابنُ عفيف: من أخبار مُنذِرُ بنُ سَعيد البَلُّوطي المحفوظة: أنَّ أميرَ المؤمنين عملَ في بعض سطوح الزَّهراء قبةً بالذَّهب والفضَّة، وجلسَ فيها، ودخل الأَعيان، فجاء منذرُ بنُ سعيد، فقال له الخليفة كما قال لمن قبلَه: هل رأيتَ أو سمعتَ أنَّ أحداً من الخلفاء قَبْلي فعلَ مثلَ هذا ؟ فأَقبلتْ دموعُ القاضي تتحدَّر، ثمَّ قال: واللّهِ ما ظننتُ يا أميرَ المؤمنينَ أَنَّ الشيطانَ يبلغُ منكَ هذا المبلَغ، أن أَنزلَكَ منازل الكفّار، قال: لِمَ ؟ فقال: قال اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥ ﴾[الزخرف:٣٣-٣٥] فنكَس الناصرُ رأسَهُ طويلاً، ثم قال: جَزَاك اللّهُ عنَّا خيراً وعن المسلمين، الذي قُلتَ هو الحقّ، وأَمرَ بنقضِ سَقفِ القبّة.





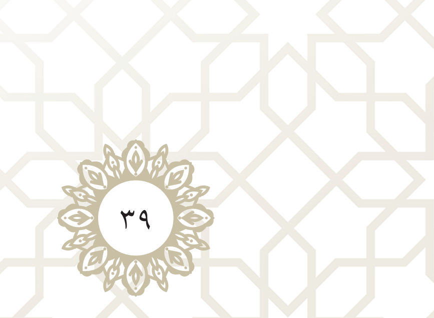
وقال أبوبكر الرّازي: سمعتُ ابنَ سَالِم محمد بن أحمد، يقول: سمعتُ سَهْلَ بن عبدالله، يقول: لا يستقيمُ قلبُ عبدٍ حتىٰ يقطعَ كلَّ حيلةٍ وكلَّ سَبب غير الله، وقال: قال سهل: ما اطَّلَعَ اللهُ علىٰ قلبٍ فرأىٰ فيه همَّ الدُّنيا إلاَّ مَقَتَهُ، والمقتُ أن يتركَهُ ونفسَه.

أَبو عُثمانَ المَغربيّ سعيد بن سلام، يقول: ليكن تدبُّرك في الخلق تدبر عِبرة، وتدبُّرك في نفسك تدبرَ موعظة، وتدبُّرك في القرآن تدبر حقيقة. قال الله تعالىٰ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[النساء:٨٢] جرّأك علىٰ تلاوته، ولولا ذلك لكلَّت الأَلسُن عن تلاوتِه.

من شعر الرَّبَعي علي بن الحسين:

إن كُنتَ نِلـــتَ من الحياة وَطِيبها　　مَع حُســـنِ وجهكَ عِفةً وَشَبَابَا

فاحذَر لِنَفِســـكَ أن ترى متمنياً　　يومَ القِيامـــةِ أَن تكـــونَ تُرابا





يقول الغَزَّالي: الدين شطران: أحدُهُما تركُ المناهي، والآخرُ فعل الطاعات، وتركُ المناهي هو الأشدُّ، والطاعات يَقْدِرُ عليها كُلُّ أحد، وتركُ الشهوات لا يقدِرُ عليها إلا الصِّديقون، ولذلك قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه).

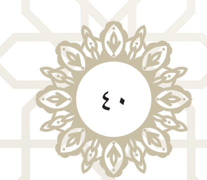
وعن الرِّفاعِيُّ أحمد بن أبي الحسين قالَ: أقربُ الطَّريقِ الانكسارُ والذُّلُّ والافتقارُ؛ تُعظِّمُ أَمْرَ اللهِ، وتُشْفِقُ علىٰ خلقِ اللهِ، وتقتدي بسنَّةِ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال ابنُ الزُّبَيرِ في ترجمةِ عبدِالحقِّ بن عبدالرحمان: كان يُزاحم فحولَ الشعراءِ، ولم يطلقُ عنانَه في نطقِهِ. ما أحلىٰ قولَهُ وأوعظَه إذ قال:

إنَّ في الموتِ والمعادِ لشُغْلاً ... وادِّكاراً لذي النُّهى وبَلاَغَا

فاغتنم خطتَينِ قبل المنايا ... صحةَ الجسم يا أخي والفراغا

وعظَ فخرَ الدين الرازيَّ مرةً عند السلطانْ شهابُ الدين، فقال: يا سلطانَ العالمِ، لا سلطانُك يبقىٰ، ولا تلبيسُ الرازيِّ يبقىٰ، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[غافر:٤٣]. قال: فانتحبَ السلطانُ بالبكاءِ.





قال أبو الفرج ابن الجَوْزِيَ يا أميرُ: اذكر عندَ القدرةِ عَدْلَ اللهِ فيكَ، وعندَ العقوبةِ قدرةَ اللهِ عليك، ولا تشفِ غيظَك بسقمِ دينك. وقال يوماً: يا أمير المؤمنين، إنْ تكلَّمتُ، خفتُ منْك، وإنْ سَكَتُّ، خِفْتُ عليك، وأنا أُقدِّمُ خوفي عليكَ علىٰ خوفي منك، فقول الناصح: اتقِ الله خيرٌ من قولِ القائل: أنتم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم.





الهوامل والشوامل

قال أَبو عبيدة بن الجراح: وَدِدْتُ أَني كنت كَبْشًا فيذبحني أَهلي، فيأكلون لحمي، ويَحْسون مَرَقي.

لقُدامةَ بن مظعون هجرةٌ إلىٰ الحبشة. وقد شرب مرةً الخمر متأوِّلاً، مستدلاً بقوله تعالىٰ ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾، الآية [المائدة:٩٣] فحدَّه عمر، وعزله من البحرين.

كان عكرمة بن أَبي جهل إِذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي نجاني يوم بدر.

أَخذ المشركون عمَّار بن ياسر فلم يتركوه حتىٰ نال مِن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. وذكر آلهتهم بخير، فلما أتىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قال: ما وراءك؟ قال: شرٌّ يا رسول الله. والله ما تُرِكْتُ حتىٰ نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير، قال: «فكيفَ تَجِدُ قلبك»؟ قال: مطمئنٌ بالإِيمان. قال: «فإِن عادُوا فَعُدْ».



سليمان بن بلال: عن موسىٰ بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، عن عبدالله بن رافع، عن أم سلمة أن أبا عبيدة لما أصيب، استخلف معاذ بن جبل، يعني في طاعون عمواس، اشتد الوجع، فصرخ الناس إلىٰ معاذ: ادُع الله أن يرفع عنا هذا الرِّجز، قال: إِنه ليس برجز ولكن دعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وشهادة يخص الله [بها] من يشاء منكم، أيها الناس! أَربع خلال من استطاع أن لا تدركه، قالوا: ما هي ؟ قال: يأتي زمان يظهر فيه الباطل ويأتي زمان يقول الرجل: والله ما أَدري ما أَنا، لا يعيش علىٰ بصيرة، ولا يموت علىٰ بصيرة.

عن عبدالله بن مسعود قال: جاهدوا المنافقين بأيديكم، فإن لم تستطيعوا، فبألسنتكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهِرُّوا في وجوههم، فافعلوا.

كان عُبادة بنُ الصَّامِت مع معاوية، فأَذَّنَ يومـًا، فقام خطيبٌ يمدح معاوية، ويُثني عليه، فقام عُبَادةُ بتراب في يده، فحشاه في فم الخطيب، فغضب معاويةُ، فقال له عُبادة: إنك لم تكن معنا حين بايعنْا رسولَ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعقبة، علىٰ السَّمعِ والطَّاعة في منشطنا ومكرهنا ومكسلنا، وأثرة علينا، وألا ننازعَ الأمر أهله، وأَن نقوم بالحق حيث كنا، لا نخافُ في الله لومةَ لائم. وقال رسولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في أفواههم التراب».





الأعمش، عن غَيلان، عن يَعْلىٰ بن الوليد، قال: لقيتُ أبا الدرداء، فقلتُ: ما تُحِبُّ لمن تُحب ؟ قال: الموت. قلتُ: فإن لم يمت ؟ قال: يَقِلُّ مالُه وولدُه.

قال أبو الدَّرْدَاء: ثلاثةٌ أُحبهنَّ، ويكرهُهُنَّ النَّاس: الفقر، والمرض، والموت. أُحِبُّ الفقرَ تَواضعًا لربي، والموتَ اشتياقًا لربي، والمرضَ تكفيراً لخطيئتي.

كان أبو الدرداء يُقرئ رجلاً أعجمياً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾[الدخان:٤٣] فقال: «طعام اليتيم» فردَّ عليه؛ فلم يقدر أن يقولها. فقال: قل: طعام الفاجر. فأقرأه «طعام الفاجر».

كان حُذَيفَة بنُ اليَمَان يقول: ما أدركَ هذا الأَمْرَ أحدٌ من الصحابة إِلاَّ قد اشترىٰ بعض دينه ببعض. قالوا: وأنت ؟ قال: وأنا والله، ربما دعاني أحدهم إلىٰ الغداء، فأقول: إني صائم، ولستُ بصائم.





رأىٰ عُمَرُ تميماً الدَّاري يصلي بعد العصر، فضربه بدِرَّتِه علىٰ رأسه. فقال له تميم: يا عُمر، تضربُني علىٰ صلاة صلَّيتُها مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! قال: يا تميم، ليس كلُّ الناسِ يعلمُ ما تَعْلَمُ.

قال قتادة: بلغني أن عِمران بن حُصَين قال: وددتُ أني رمادٌ تذروني الرياح.

كان نقش خاتم عمران بن حُصَين تمثالُ رجل.

عن أبي رجاء، قال: خرج علينا عِمران بن حُصَين في مطرف خَزٍّ لم نَره قط، فقال: قالَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله إذا أنعم علىٰ عبد نعمة يجب أن ترىٰ عليه».



لما خلَّف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ نساءه يوم أحد، خلفهن في فارع، وفيهن صفية بنت عبدالمطلب، وخلَّف فيهن حسان بن ثابت؛ فأقبلَ رجلٌ من المشركين ليدخُلَ عليهن. فقالت صفية لحسان: عليك الرجلَ. فجَبُن، وأبىٰ عليها. فتناولت السيفَ، فضربت به المشرك حتىٰ قتلته. فأُخبر بذلك؛ فضُرِبَ لها بسهم. -وزاد الفروي فيه: أنه قال: لو كان ذاك فيَّ، لكنتُ مع رسول الله-.

عن جَرير بن عبدالله، قال: كنتُ عند عُمر، فتنفَّسَ رجلٌ -يعني: أحدث- فقالَ عُمر: عزمتُ علىٰ صاحب هذه، لَمَا قامَ، فَتَوَضَّأَ. فقال جَرير: اعزِمْ علينا جميعـًا. فقال: عزمتُ عليَّ وعليكم، لما قُمنا. فتوضَّأنا، ثم صَلَّينا.

عن أبي هريرة، قال: دِرْهَمٌ يكونُ من هذا -وكأنه يَمسحُ العرق عن جَبينه- أتصدَّقُ به، أَحبُّ إلي من مئة ألف، ومئة ألف، من مال فلان.





بكىٰ أبو هريرة في مرضه: فقيل: ما يُبكيكَ ؟ قال: ما أبكي علىٰ دنياكُم هذه، ولكن علىٰ بُعد سفري، وقلَّة زادي، وأني أَمسيتُ في صُعود، ومهبطُه علىٰ جنة أو نار، فلا أدري أَيَّهُما يؤخذ بي.

كان حَكِيمُ بنُ حِزَام إذا اجتهد في يمينه، قال: لا والذي نجَّاني يومَ بدرٍ من القتل.

كان الحسنُ بنُ عليّ بن أبي طالب لا يدعو أَحداً إلىٰ الطعام، يقولُ: هو أهونُ من أَن يُدعىٰ إليه أحد.

أول من كسا الكعبةَ الدِّيباجَ عبدالله بنُ الزُّبَير، وكان يُطَيِّبُها حتىٰ يُوجد ريحُها مِن طرف الحَرَم، وكانت كسوتها قبله الأنطاع.

يقول يزيد بن معاوية بن أبي سفيان علىٰ المنبر: إنَّ الله لا يؤاخِذ عامّةً بخاصةٍ إلاَّ أنْ يظهر منكرٌ فلا يُغيَّر، فيُؤاخِذ الكُلَّ.



قال سَعيد بن المُسيِّب: ما أيسَ الشيطان مِن شيء إلا أتاه مِن قِبَل النِّساء.

قال الشَّعبي عامر بن شراحيل: والله لو أصبتُ تسعًا وتسعين مرّةً وأخطأتُ مرَّةً، لأعدوا عليَّ تلك الواحدة.

قال عليُّ بن الحُسَيْن بن علي بي أبي طالب: يا أيُّها الناس، أحِبُّونا حُبَّ الإِسلام، فما بَرِح بنا حُبُّكم حتىٰ صار علينا عاراً.

قال عُروَة بن الزبير بن العوَّام: يا بَنيَّ، سلُوني، فلقد تُرِكتُ حتىٰ كِدتُ أنسىٰ، وإنِّي لأُسأَلُ عن الحديث، فيُفتَح لي حديثُ يومين.

قال مسلم بن يَسار البصري في الكلام في القَدَر: هما واديان عميقان، يسلكُ فيهما النَّاس، لَن يُدركَ غورهما، فاعمل عملَ رجل تعلمُ أنَّهُ لن يُنجيكَ إلا عملُك، وتوكَّل توكُّلَ رجلٍ تعلم أنَّهُ لا يصيبك إلا ما كتب الله لك.



عن ابن طاووس بن كيسان اليماني، عن أبيه قال: لقي عيسىٰ عليه السلام إبليس، فقال: أما علمتَ أنه لا يُصيبك إلاَّ ما قُدِّرَ لك، قال: نعم، قال: فَارِقَ ذروةَ هذا الجبلِ، فتردَّ منه، فانظر أتعيشُ أم لا، قال عيسىٰ: إنَّ الله يقول: لا يُجرِّبني عبدي، فإِني أفعلُ ما شئتُ.



قال عَبدُاللهِ بنُ بُرَيدة: ينبغي للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثةَ أشياء لا يدعُها: المشي، فإِن احتاجه، وجده، وأن لا يدع الأكل فإن أمعاءه تضيق، وأن لا يدع الجماع، فإنَّ البئر إذا لم تُنزَع ذهب ماؤُها.



قال الجراحُ الحكمي: تركتُ الذنوبَ حياءً أربعين سنة، ثم أدركني الورعُ.

قال قتادة: قالت بنو إسرائيل: يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض، فكيف لنا أن نعرفَ رضاك وغضبك ؟ قال: إذا رضيتُ عليكم، استعملتُ عليكم خيارَكم، وإِذا غضبتُ، استعملتُ عليكم شِرارَكم.





قال الزهري: إعادةُ الحديث أشَدُّ من نقل الصخر.

نقل أبويوسف، عن أبي حنيفة قال: قدمتُ المدينة، فأتيتُ أبا الزناد عبدالله بن ذكوان، ورأيتُ ربيعة فإذا الناسُ علىٰ ربيعة، وأبو الزناد أفقهُ الرجلين، فقلتُ له: أنتَ أفقهُ أهلِ بلدك، والعمل علىٰ ربيعة ؟ فقال: ويحك كفٌّ مِن حظ خير من جِراب من علم.

روىٰ ابن عُيينة عن أبي حازم قال: اشتدت مُؤنةُ الدين والدنيا، قيل: وكيف ؟ قال: أما الدين، فلا تجد عليه أعوانـًا، وأما الدنيا، فلا تمد يدك إلىٰ شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه.

قال ابن عُيَينة، قال محمد بن واسع: لو كان للذنوب ريحٌ ما جلس إليَّ أحد.



اجتمع المقفع بالخليل، فلما تفرقا قيل للخليل: كيف رأيتَه ؟ قال: علمه أكثر من عقله. وسئل هو: كيف رأيت الخليل ؟ قال: عقله أكثر من علمه.

جاء رجل إلىٰ يَونُس بن عُبَيْد فشكا إليه ضِيقـًا من حاله ومعاشه واغتمامـًا بذلك. فقال: أيسرُّك ببصرك مئة ألف ؟ قال: لا. قال: فبسمعك ؟ قال: لا. قال: فبلسانك ؟ قال: لا. قال: فبعقلك ؟ قال: لا. في خلال. وذَكَّره نعمَ الله عليه، ثم قال يونس: أرىٰ لك مئين ألوفـًا وأنت تشكو الحاجة ؟!

وعن يَونُس بن عُبَيْد قال: عمدنا إلىٰ ما يُصْلِحُ الناس فكتبناه، وعمدنا إلىٰ ما يصلحنا فتركناه.

قال يَونُسُ بن عُبَيْد: ما هَمَّ رجلاً كَسْبُه إلا هَمَّه أين يضعُه.



تكلم عمرو بن عبيد في الوعيد سنة، فقال أبو عمرو بن العلاء: إنك لألكنُ الفهم، إذ صَيَّرت الوعيد الذي في أعظم شيء مثلَهُ في أصغر شيء. فاعلم أن النهي عن الصغير والكبير ليسا سواء، وإنما نهىٰ الله عنهما لِتتم حجته علىٰ خلقه، ولئلا يعدل عن أمره. ووراء وعيده عَفوُه وكرمه ثم أنشد:

وَلاَ يَرهَبُ ابنُ العَمِّ مَا عِشتُ صَولَتِي   وَلا أَختتي مِن صولَـةِ المُتَهَدِّدِ

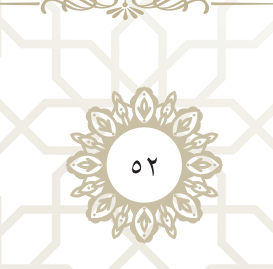
وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُـهُ وَوَعَدْتُـهُ   لَمخْلِفُ إِيعَـادِي وَمُنْجِزُ مَوعِدي

فقال عمرو بن عُبيد: صدقت. إن العرب تتمدح بالوفاء بالوعد والوعيد، وقد يمتدح بهما المرء. تسمع إلىٰ قولهم ؟!

لاَ يُخلِفُ الوَعدَ والوَعِيدَ وَلاَ   يَبِيتُ مِن ثَأرِهِ عَلَى فَوْتِ

فقد وافق هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾[الأعراف:٤٤] قال أبو عمرو: قد وافق الأولُ أخبارَ رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحديثُ يفسر القرآن.

كان ابن أبي ذِئب، وابن الماجِشُون، وابن أبي حازم، ومحمد بن إسحاق يتكلمون في مالك، وكان أشدَّهم فيه كلامـًا محمد بن إسحاق، كان يقول: ائتوني ببعض كتبه حتىٰ أُبيِّنَ عيوبَه، أنا بَيْطَارُ كُتُبه.





ونظر إلىٰ سُفيان الثوري رجل، وفي يَدِه دنانير، فقال: يا أبا عبدالله! تُمْسِكُ هذه الدَّنانير!؟ قال: اسكُتْ، فلولاها لتمندَلَ بنا الملوكُ.

وعن سُفيان الثوري قال: المال داءُ هذه الأمة، والعالِم طبيبُ هذه الأمة، فإذا جَرَّ العالمُ الدَّاءَ إلىٰ نفسه، فمتىٰ يُبرئ النَّاسَ ؟

الخُرَيْبي: عن سفيان الثوري ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾[الأعراف:١٨٢] و [القلم:٤٤]، قال: نُسبغ عليهم النِّعم، ونمنعُهم الشُّكر.

كان سفيان الثَّوري يقول للغلام إذا رآه في الصَّف الأول: احتلمتَ ؟ فإنْ قال: لا. قال: تأخر.

قال عطاء بن مُسْلم: قال لي سفيان الثَّوري: إذا كنت بالشَّام، فاذكر مناقب علي، وإذا كنتَ بالكُوفة، فاذكر مناقب أبي بكر وعُمر.



قال سُفيان الثوري: إذا أثنىٰ علىٰ الرَّجل جيرانه أجمعون، فهو رجل سوء، لأنه ربما رآهم يعصون، فلا ينكر، ويلقاهم ببشر.

قال غسان بن المفضل الغَلابي: سمعت من يذكر أن الرَّبيع بن صَبيح كان بالأَهْواز، ومعه صاحب له، فتعرَّضت لهما امرأة، فبكىٰ الشَّيخ، قال له صاحبهُ: ما يُبكيك ؟ قال: إنها لم تطمع في شيخين إلا وقد رأت شيوخاً قبلَنا يُتابعونها، فلذا أبكي.

سَلَّام بن أبي مُطِيْع هو القائل: لأن ألقىٰ الله بصحيفة الحَجَّاج، أحبُّ إليَّ من أن ألقىٰ الله بصحيفة عَمرو بن عُبيد (وكان عمرو شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها، وأحد الزهاد المشهورين).

قال الإمام مالك: والله ما دخلتُ علىٰ مَلكٍ من هؤلاء الملوكِ حتىٰ أصِلَ إليه، إلا نَزَعَ اللهُ هيبتَه من صدري.



قال عفَّان: حدثنا يوسف الماجِشون، قال لي ابنُ شهاب، ولأخي، ولابن عمٍّ لي -ونحن فتيان أحداث نسألُه-: لا تَحْقِرُوا أنفُسَكُم لِحَداثَةِ أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به أمرٌ، دعا الشباب، فاستشارهم، يبتغي حِدَّة عقولهم.



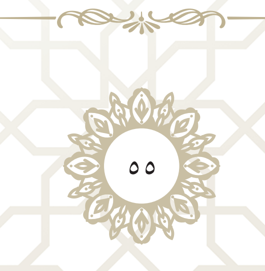
قال سُويد بن سعيد: رأيت عَبدالله بن المبارك بمكة أتىٰ زمزَم، فاسْتقىٰ شربةً، ثم استقبلَ القبلة، فقال: اللهمَّ إنْ ابنَ أبي المَوال، حدثنا عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ماء زمزم لما شُرِبَ له» وهذا أشربه لِعَطَش القيامة، ثم شربه.



عن عبدالله بن المُبارك، قال: إذا غَلَبَتْ محاسِنُ الرجل علىٰ مساوئه لم تُذكر المساوئ، وإذا غلبت المساوئُ عن المحاسن لم تُذكر المحاسن.



سأل عبدالله بن مالك، الفُضَيل بن عِياض: يا أبا علي ما الخلاصُ مما نحن فيه ؟ قال: أخبرْني، من أطاع الله هل تضرُّه معصيةُ أحد ؟ قال: لا. قال: فمن يعصي الله تنفعُه طاعةُ أحد ؟ قال: لا. قال: هو الخلاصُ إن أردت الخلاص.





قال فُضيل بنِ عياض: بكىٰ عليٌّ ابني. فقلتُ: يا بنيَّ ما يُبكيك ؟ قال: أخافُ ألا تجمعنا القيامةُ.

وعن يوسف بن أَسبَاط قال: للصَّادِق ثلاثُ خِصال: الحلاوةُ، والمَلاَحةُ، والمَهَابة.

قال النِّبَاجيَّ: يَنبغي أَنْ نكونَ بدعاءِ إخوانِنا أوثَقَ مِنَّا بأعمالِنا، نخافُ في أعمالنا التَّقصير، ونرجو أَنْ نكونَ في دعائهم لنا مُخلِصين.

كان أبو مَعمَر الهُذَلي من شدة إدْلالِه بالسنة يقول: لو تكلمتْ بَغْلتي لقالت: إنها سُنِّيَّة.

وقيل: إن أحمد بن حنبل خرج إلىٰ حاتم الأَصَمِّ، ورحَّب به، وقال له: كيفَ التخلُّص من الناس ؟ قال: أن تُعطَيهم مالَكَ، ولا تَأْخُذ من مالهم، وتَقْضِيَ حقوقهم، ولا تستقضي أحداً حقَّك، وتَحْتَمِل مَكروْهَهُم، ولا تُكرِهَهُم علىٰ شيء، وليتك تَسْلَم.



قال السُّلَميُّ: في «محن الصوفية»: ذو النُّون المِصريُّ أولُ من تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال، ومقامات الأولياء، فأنكر عليه عبدُالله بنُ عبدالحكم، وهجره علماءُ مصر. وشاع أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف، وهجروه حتىٰ رَموه بالزَّندقة. فقال أخوه: إنهم يقولون: إنك زنديق. فقال:

وَمَالي سِوَى الإِطْرَاقِ والصَّمْتِ حِيْلَةٌ ... وَوضْعِيَ كَفي تَحْتَ خَدِّي وتَذْكَارِي

سُئل النَّخْشَبِيُّ عن صفة العارف، قال: الذي لا يُكدِّره شيءٌ، ويصفُو به كلُّ شيء.

قال نصر بن علي: دخلتُ علىٰ المتوكل، فإذا هو يمدَحُ الرفق، فأَكْثَرَ، فقلت يا أمير المؤمنين، أَنشَدَنِي الأصمعيُّ:

لَمْ أرَ مِثْلَ الرِّفْقِ في لِينِهِ ... أَخْرَجَ لِلْعَذْرَاءِ مِنْ خِدْرِها
مَنْ يَسْتَعِنْ بالرِّفْقِ في أمْرِهِ ... يَسْتَخْرِجِ الحَيَّةَ مِنْ جُحْرِها

كان البُوشَنْجي محمد بن إبراهيم يقول للمُسْتملي: الزَم لَفظي، وخلَاك ذم.





من كلام عَمرُو بنُ عُثمان بن كرب بن غصص: العِلمُ قائد والخوفُ سائِق، والنَّفسُ بَيْنَهما حَرونٌ خَدَّاعة.

كان ابنُ الحَدَّاد سعيد بن محمد بن صبيح يذُمُّ التقليد ويقول: هو من نقص العُقول، أو دناءَة الهِمَم.

كان ابنُ الحَدَّاد سعيد بن محمد بن صبيح يقول: القُرْبُ من السُّلطان في غيرِ هذا الوقت حتفٌ من الحُتوف، فكيفَ اليوم ؟

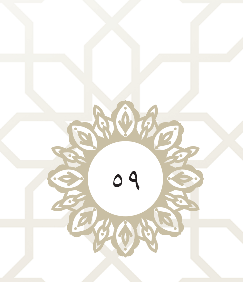
أبو زُرعَةَ القَاضِي هو الذي أدخل مذهبَ الشَّافعيِّ دمشق.

سُئِلَ ابنُ خُزَيْمَة محمد بن إسحاق: مِنْ أينَ أُوتيتَ العِلم ؟ فقال: قال رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ماء زمزم لما شرب له). وإنِّي لمَّا شربتُ سألتُ الله عِلماً نافعاً.



قال أبو العبّاس السَّرّاج: وأسفي علىٰ بغداد ! فقيل له: ما حملكَ علىٰ فراقِها ؟ قال: أقام بها أخي إسماعيلُ خمسين سنة، فلمّا توفيَ ورُفعتْ جنازتُهُ سمعتُ رجلاً علىٰ باب الدَّرب يقول لآخر: مَن هذا الميت ؟ قال: غريبٌ كان ها هنا. فقلت: إنا لله، بعد طول مقام أخي بها واشتهاره بالعلم والتجارة يقال له: غريب كان هنا. فحملتْني هذه الكلمةُ علىٰ الانصراف إلىٰ الوطن.

قال أبو عبدالله الحاكم: كان الأَرغِيَاني محمد بن المسيب من الجوَّالينَ في طلب الحديث علىٰ الصِّدق والوَرَع، وكان من العُبّاد المُجتَهِدين. سمعتُ أبا الحسين بنَ يعقوبَ الحافظ يقول: كان محمد بن المسيَّب يقرأ علينا، فإذا قال: قال رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بكىٰ حتىٰ نَرحَمه. قال: وسمعتُ محمد بن عليِّ الكِلابي يقول: بكىٰ محمدُ بنُ المسيَّب الأرْغِياني حتىٰ عَمِي، وسمعت أبا إسحاق المزكِّي، سمعتُ محمدَ بنَ المسيِّب، سمعتُ الحسن بن عَرَفَة يقول: رأيتُ يزيدَ بنَ هارون بواسط وهو من أحسن الناس عَيْنَيْن، ثمَّ رأيتُهُ بِعَيْنٍ واحدة، ثمَّ رأيتُهُ وقد عَمِي، فقلتُ له: يا أبا خالد ! ما فعلتِ العينانِ الجميلتان ؟ قال ذهبَ بِهِما بكاءُ الأسْحار.





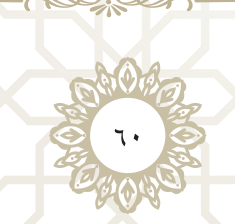
وقال أبوبكر الرَّازِيُّ: سمِعْتُ أبو عليّ الثَّقَفِيُّ محمد بن عبدالوهاب يقول: تَرْكُ الرِّياء للرِّياء أقبحُ من الرِّياء.

ابنُ العَميد محمد بن الحسين كان مع سعة فنونِهِ لا يَدري ما الشَّرع، وكان متفلسفًا، متَّهمًا بمذهب الأوائل. وكان إذا تكلَّم بحضرتِهِ فقيهٌ شقَّ عليه ويَسكُت، ثم يأخذ في شيء آخر.

كان المستنصر بالله، شغوفًا بأبي عليٍّ القالي، يؤهِّلُهُ لكلِّ مهم، فلما وَرَدَ رسولُ الرُّومِ أَمَرَهُ أن يقومَ خطيبًا علىٰ العادة الجارية، فلما شاهد أبو عليٍّ الجمعَ العظيم جَبُن فلم تَحْمِلْهُ رجلاه، ولا ساعَدَهُ لسانُه، وفطِن له منذر بنُ سعيد البَلُّوطي، فوثَبَ في الحال، وقام مقامَه، وارتَجَلَ خطبةً بديعة، فأَبهَتَ الخَلْق، وأنشدَ في آخرها لنفسه:

هذا المقالُ الذي ما عابهُ فَنَدُ ... لكنَّ صاحبهُ أزرى به البلدُ
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفاً ... لكنني منهمُ فاغتالني النكدُ
لولا الخلافة أبقى الله بهجتها ... ما كُنتُ أبقى بأرضٍ ما بها أحدُ

فاستَحسَنُوا ذلك، وصلَّب الرّسول، وقال: هذا كبشُ رجال الدَّولة.



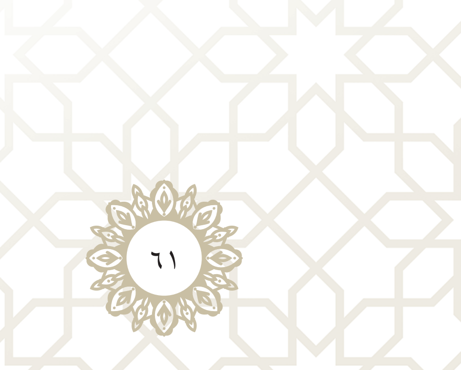


قال الحافظ أبو ذر الهَرَوي: سمعتُ أنَّ الدارقطنيَّ علي بن عمر قرأ كتاب «النسب» علىٰ مسلم العلَوي، فقال له المُعيطي الأديبُ بعد القراءة: يا أبا الحسن، أنتَ أجرأُ من خاصي الأسد، تقرأُ مثل هذا الكتاب مع ما فيه من الشِّعر والأدب، فلا يؤخذ فيه عليك لَحْنَةٌ! وتعجَّب منه.

قال أبو حيّان التوحيدي: أُناسٌ مَضَوا تحت التَّوَهُّم، وظنُّوا أنَّ الحقَّ معهم، وكان الحقُّ وراءَهم.

جَهْور بنُ محمد بنِ جهْور كان يقول: أنا ممسِكٌ أمرَ النّاسِ إلىٰ أن يتهيّأَ لهم من يَصلُح للخلافة.

حكىٰ القاضي حسينٌ عن القَفّال أستاذِه أنَّه كان في كثيرٍ من الأوقات يقعُ عليه البكاءُ حالةَ الدرسِ، ثم يرفعُ رأسَهُ ويقولُ: ما أغفلَنا عما يُرادُ بِنا.





قيل: إن ابن أبي الطَّيِّب علي بن أبي الطيب عبدالله بن أحمد النيسابوري، حُمل إلىٰ السلطان محمودِ بنِ سُبُكْتِكِين ليسمعَ وَعْظَه، فلما دخل جلسَ بلا إذن، وأخذ في رواية حديثٍ بلا أمر، فَتَنَمَّرَ له السلطانُ، وأمر غلامًا، فلكمَهُ لَكْمةً أَطْرَشَتْهُ، فعرَّفَه بعضُ الحاضرين منزلَتَه في الدين والعلم، فاعتذر إليه، وأمر له بمال، فامتنع، فقال: يا شيخُ: إن لِلْمُلْكِ صَولةً، وهو مُحتاجٌ إلىٰ السياسةِ، ورأيتُ أنك تَعدَّيت الواجبَ، فاجعلْني في حِلٍّ. قال: اللهُ بيننا بالمِرصاد، وإنما أَحْضرتَني للوعظ، وسماعِ أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللخشوع لا لإِقامة قوانين الرئاسة. فَخَجِلَ المَلِكُ واعتَنقه.

قال الحافظ ابنُ عساكر: سمعتُ الحسينَ بن محمد يحكي، عن ابن خيرون أو غيره، أن الخطيبَ أبو بكر أحمد بن علي، ذكر أنه لما حج شَرِبَ من ماء زمزم ثلاث شَرْبات، وسأل الله ثلاث حاجات، أن يُحَدِّث بـ «تاريخ بغداد» بها، وأن يُمْلِيَ الحديثَ بجامع المنصور، وأن يُدْفَنَ عند بشر الحافي. فقُضيت له الثلاث.



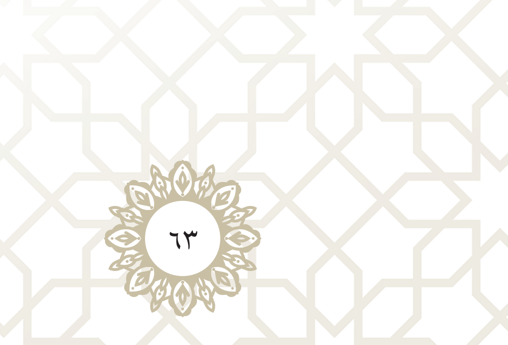
أخبرنا القاسمُ بن محمد الحافظ، أخبرنا أحمد بن إبراهيم المقرئ، أخبرنا عبداللطيف الطبري، أخبرنا محمد بن البطي، أخبرنا ابن الخاضبة محمد بن أحمد، أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت، حدثنا ابن أبي الفوارس، حدثنا الحسين بن أحمد الهروي الصفار، قال: كنتُ عند الشِّبلي، فسأله بعضُ المُتصوِّفة: الرجلُ يسمعُ قولاً لا يفهمُهُ، فيتواجد عليه، فأنشأ يقول:

وَلَقَــدْ أَشْــكُو فَمَــا أُفْهِمُهَــا   وَلَقَــدْ تَشْــكُو فَمَــا تُفْهِمُنِي

غَــيْرَ أَنِّي بالجَــوَى أَعْرِفُهَــا   وَهِيَ أيْضَــاً بِالجَــوَى تَعْرِفُــنِي

قال السَّمعاني: رؤي الخيَّاط محمد بن أحمد بعدَ موته، فقال: غَفَرَ اللهُ لي بتعليمي الصِّبيان الفاتحةَ.

قال السِّلَفي: بلغنا أن الرُّويَانيُّ عبدالواحد بن إسماعيل أملىٰ بآمُل، وقُتِلَ بعدَ فراغِه من مجلسِ الإملاء في المحرَّم سنةَ إحدىٰ وخمس مئة بِسبب التعصُّبِ في الدِّين.





يقول قاضي المَرِسْتان، أبوبكر محمد بنُ عبدالباقي: الذُّبابُ إذا وقع علىٰ البياض سوَّدَهُ، وعلىٰ السواد بَيَّضَهُ، وعلىٰ التُّرابِ برغثه، وعلىٰ الجُرْحِ قَيَّحه.

قال ابنُ عساكر: وعاش ابن السمرقندي أبو القاسم إسماعيل بن أحمد إلىٰ أن خلت بغدادُ، وصار مُحدِّثَها كثرةً وإسناداً، حتىٰ صار يَطلُبُ علىٰ التسميع بَعدَ حِرصِه علىٰ التحديث، أملىٰ بجامع المنصور أزيدَ من ثلاث مئةِ مجلس، وكان له بَختٌ في بيعِ الكُتُب، باع مرةً «صحيحَي» البخاري ومسلم في مُجلَّدة لطيفة بخط الصُّوري بعشرين ديناراً، وقال: وقعت عليَّ بقيراط، لأني اشتريتُها وكتاباً آخر بدينارٍ وقيراط، فبعتُ الكتابَ بدينارٍ.

قال السَّمعانيُّ: كان عليُّ بنُ طِرادٍ بن محمد الزينبي صدراً مَهيباً وقوراً، دقيقَ النَّظَر، حادَّ الفِراسة، عارفًا بالأُمورِ السَّنِيَّة العِظام، شُجاعًا جَريئًا، خلع الراشدَ، وجمع الناسَ علىٰ خلعِهِ ومُبايعةِ المُقتفي في يوم، ثم إنَّ المقتفي تغيَّر رأيُهُ فيه، وهمَّ بالقبضِ عليه، فالتجأ إلىٰ دار السُّلطان، فلما قَدِمَ السُّلطانُ أمر بحملِهِ إلىٰ دارِه مُكرمًا، فاشتغلَ بالعبادةِ، وكان كثيرَ التلاوة والصلاةِ، دائمَ البِشْر، له إدرارٌ علىٰ القُرّاء والزُّهّاد، قرأتُ عليه الكثيرَ، وكان يُكرمني غايةَ



الإكرام، وأولُ ما دخلتُ عليه في وزارتهِ قال: مرحبًا بصنعةٍ لا تَنفُقُ إلا عندَ الموت.

قال أبوسعدٍ السمعانيُّ: كان البيِّع أبو بكر محمد بن عبدالعزيز من أولادِ المَيَاسير، وكان شيخًا مُتَوَدِّداً كَيِّسًا مطبوعًا، غير أنه يلعبُ بالحَمَامِ.

البَلْخي أبو الحسن علي بن الحسن أبطل من حلب الأذانَ بحيَّ علىٰ خيرِ العمل.

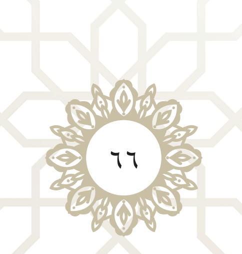
قال ابنُ أرسلان في «تاريخ خُوارزم»: حضرت وعظ الشَّهْرَسْتَاني محمد بن عبدالكريم مراتٍ، فلم يكن في ذلك قال اللهُ ولا قال رسولُه، سأله يومًا سائلٌ، فقال: سائرُ العلماء يذكرون في مجالسهم المسائلَ الشرعية، ويُجيبون عنها بقولِ أبي حنيفةَ والشافعيِّ، وأنت لا تفعل ذلك ؟! فقال: مَثَلِي وَمَثَلُكُم كَمَثَلِ بني إسرائيل يأتيهم المنُّ والسلوىٰ، فسألوا الثُّومَ والبصل.



كان نور الدين الشهيد أبو القاسم محمود بن زنكي يكثر اللعب بالكرة، فأنكَر عليه فقيرٌ، فكتب إليه: والله ما أقصِدُ اللعبَ، وإنما نحنُ في ثَغْرٍ، فريما وقعَ الصوتُ، فتكونُ الخيل قد أَدْمَنت علىٰ الانعطافِ والكرِّ والفرِّ.

قال ابنُ شَدّاد: كنتُ أرىٰ من يأتي الشيخَ القُرطبي أبو بكر يحيىٰ بن سعدون، فيُعطيه شيئًا ملفُوفًا ويذهَبُ، ثم تَقَصَّينا ذلك، فعلمنا أنها دجاجةٌ مسموطةٌ (أي أزيل عنها ما عليها من ريش) كانت برسمهِ كُلَّ يوم، يشتريها ذلك الرجُل، ويسمِطُهَا، فإذا قام الشيخُ تولىٰ طبخها.

قيل: إنَّ الرِّفاعِيَّ أحمد بن أبي الحسين أقسَمَ علىٰ أصحابهِ إن كانَ فيهِ عيبٌ يُنبِّهونَه عليهِ، فقالَ الشيخُ عمرُ الفاروثيُّ: يا سيِّدي أنا أعْلَمُ فيك عيباً. قال: ما هو ؟ قال: يا سيِّدي، عيبُكَ أنَّنا من أصحابِكَ. فبكَىٰ الشيخُ والفقراءُ، وقال -أيْ عُمَرُ-: إنْ سَلِمَ المركبُ، حَمَلَ منْ فيه.





وعن الرِّفاعِيُّ أحمد بن أبي الحسين أنَّه قال: لو أنَّ عن يميني جماعةً يُروِّحوني بمراوح النَّدِّ والطيبِ، وهم أقربُ الناسِ إليَّ، وعن يساري مثلهم يقرضون لحمي بمقاريضَ وهم أبغضُ الناس إليَّ، ما زاد هؤلاءِ عندي، ولا نقص هؤلاء عندي بما فعلوه، ثم تلا: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[الحديد:٢٣].

كان ابن فَضْلانَ يحيىٰ بن علي بارعـًا في الخلافِ والنظرِ، بصيراً بالقواعدِ، ذكيّـًا، يقظـًا، لبيبـًا، عذبَ العبارةِ، وجيهـًا، مُعَظَّمـًا، كثيرَ التلامذةِ، ارتحلَ إلىٰ ابن يحيىٰ صاحب الغَزَّالي مرتين، وَوَقَعَ في السَّفَرِ، فانكسرَ ذراعُهُ، وصارتْ كَفَخِذِهِ، ثم أَدَّتْهُ الضرورةُ إلىٰ قطعِها من المِرْفَقِ، وعَمِلَ محضراً بأنها لم تُقطع في ريبةٍ. فلما ناظَرَ المُجيْرَ مرةً، وكان كثيراً ما ينقطع في يد المجير، فقال: يُسافرُ أَحَدُهُم في قطع الطريق، ويدَّعي أنه كان يشتغلُ، فأخرج ابنُ فَضْلانَ المحضَرَ، وأخذ يُشَنِّع علىٰ المُجِيْرِ بالفلسفةِ.

كان الظَّاهر غازي بن يوسف يصادقُ ملوكَ الأطرافِ ويباطنُهُمْ، ويُوهمهم أنَّه لولاهُ، لَقَصَدَهُمْ عمُّه العادلُ، ويوهِمُ عمَّهُ أَنَّهُ لولاهُ، لتعامَلَ عليهِ الملوكُ، ولشقُّوا العصا.





قال السَّيفُ: سمعتُ ابنَ نُقْطَةَ يقولُ: قيل لابن الأخضر: ألا تُجيبُ عن بعض أوهام أبو الفرج ابن الجَوْزِيَ ؟ قال: إنما يُتَتَبَّعُ علىٰ مَن قَلَّ غَلَطُهُ، فأمَّا هذا، فأوهامُهُ كثيرةٌ.

قال الإمامُ أبوشامةَ: وبلغني أنَّ الشهابُ الطُّوسِيّ سئل: أيما أفضَلُ دمُ الحُسَينِ، أو دمُ الحلَّاجِ ؟ فاستعظمَ ذلك، قالوا: فَدَمُ الحلَّاج كتبَ علىٰ الأرض: الله، الله، ولا كذلك دمُ الحُسَين ؟! قال: المتَّهم يحتاجُ إلىٰ تزكيةٍ !

خطبة كتاب الفارسيّ محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي «برق النقاء»: الحمدُ لله الذي أودع الخُدودَ والقدودَ الحُسْنَ واللَّمَحات الحُوريَّة السالبة إليها أرواحَ الأحرار.





عن الموت وما قيل عند النزع وتلقي نبأ الوفاة

رأىٰ علي بن أبي طالب طلحةَ بن عُبيد الله في وادٍ مُلقىٰ، فنزل، فمسح التراب عن وجهه، وقال: عزيزٌ عليَّ أَبا محمد بأن أَراك مُجَدَّلاً في الأودية تحت النجوم، إلىٰ الله أَشكو عُجَري وبُجَري، قال الأصمعي: معنىٰ عُجَري وبُجَري: سرائري وأَحزاني التي تموج في جوفي.

ولطلحة بن عُبيد الله أَولادٌ نجباءُ، أَفضلهم محمد السَّجَّاد. كان شابـاً، خيّراً، عابداً، قانتـاً لله. ولد في حياة النبي، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قتل يوم الجمل، فحزن عليه عليّ بن أبي طالب وقال: صَرَعَهُ بِرُّهُ بأَبيهِ.

قال إبراهيم بن سعد: عن أبيه، عن جده: سمع عليًّا يقول يوم مات عبدالرحمن بن عوف: اذهَبْ يا ابْنَ عَوْفٍ ! فَقَدْ أَدْرَكْتَ صَفْوَها وسَبقْت رَنْقَها (الرنق: الكدر).



قالت عائشة: حضر رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبوبكر وعمر، سعدَ بن معاذ، وهو يموت في القُبة التي ضربها عليه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد. قالت: والذي نفس محمد بيده إِني لأعرفُ بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وإِني لفي حُجرتي، فكانا كما قال الله ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾. قال علقمة فقلت: أي أمه ! كيف كان رسولُ الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يصنع ؟ قالت: كان لا تدمعُ عينه علىٰ أحد، ولكنه كان إِذا وجد، فإنما هو آخِذٌ بلحيته.

جاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسعد بن معاذ يُغسل، وأمه تبكيه وتقول:

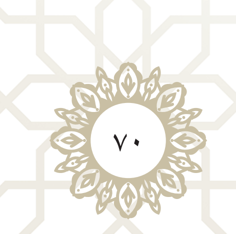
ويل ام سعدٍ سعدا

حزامةً وجِدّا

فقْال: «كُلُّ باكيةٍ تكذبُ إِلا أمَّ سعد».

وروىٰ إِسحاق بن يحيىٰ بن طلحة، عن عمَّه موسىٰ قال: خرجتُ مع أَبي طلحة إِلىٰ مكة مع عمر بن الخطاب، فبينا نحطُّ عن رواحلنا إِذ أَتىٰ الخبرُ بوفاة خالد، فصاح عمر: يا أبا محمد، يا طلحة هلك أبو سليمان، هلك خالد بن الوليد. فقال طلحة:

لا أعْرفنَّكَ بَعْدَ المَـوْتِ تَنْدُبُني   وفي حَيـاتيَ مـا زَوَّدْتَـني زَادَا





الواقدي: حدثنا فُلَيح، عن هلال بن أسامة، عن أنس: رأيت النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا علىٰ قبر ابنته أُمِّ كُلْثُوم وعيناه تَدمعان. فقال: «فيكم أحدٌ لم يُقارِف الليلة»؟ فقال أبو طلحة: أنا، قال: «انزل». (قوله: لم يقارف أي: لم يجامع أهله تلك الليلة).



وعن أبي الدرداء، قال: الحمد لله الذي جعل الأغنياء يتمنَّون أنهم مثلُنا عند الموت، ولا نتمنَّىٰ أننا مثلُهم حينئذ. ما أنصفنا إخوانُنا الأغنياء: يُحِبُّوننا علىٰ الدين، ويُعادوننا علىٰ الدنيا.

حماد بن سلمة، عن عمار بن أبي عمار، قال: لما مات زيدٌ بن ثابت، جلسنا إلىٰ ابن عباس في ظل، فقال: هكذا ذهابُ العلماء، دُفن اليوم علمٌ كثير.



قال الحكَم بنُ عمرو الغِفاري: يا طاعون، خذني إليك. فقيل له: لِمَ تقولُ هذا؟ وقد قال النَبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يتمنين أحدكم الموت» قال: أبادِرُ ستًا: بيعَ الحُكم، وكثرة الشُّرَط، وإمارة الصِّبيان، وسفكَ الدِّماء، وقطيعةَ الرَّحِم، ونَشَأ يكونون في آخر الزمان يَتَّخذُون القرآنَ مَزَامير.



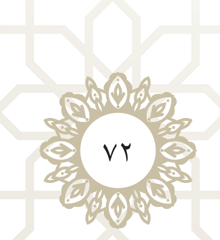


بينا أبوثعلبة الخُشَني يُصلِّي في جوف الليل، قُبِضَ، وهو ساجد. فرأتْ بنتُه أَنَّ أباها قد ماتَ، فاستيقظت فَزِعةً، فنادتْ أُمَّها: أين أبي ؟ قالت: في مصلاه. فنادتْه، فلم يُجبها، فأنبهتْه، فوجدَتْه ميتـاً.

كان أبوهريرة إذا مرَّتْ به جنازة، قال: اغدوا فإِنَّا رائحون؛ ورُوحوا فإِنَّا غادون.

قال ابن أبي مُلَيْكة: شهدتُ عبدالعزيز بنُ مروان بن الحكم عند الموت يقول: يا ليتني لم أَكنْ شيئـًا، يا ليتني كهذا الماء الجاري. وقيل: قال: هاتوا كَفني، أُفٍّ لكِ ما أقصرَ طويلَكِ وأقلَّ كثيرَكِ.

محمد بن يَعلىٰ الثقفي، عن المنكدِر بن محمد قال: كُنَّا مع صفوان بن سليم في جنازة وفيها أبي وأبوحازم، وذكر نفراً من العباد، فلما صُلِّيَ عليها، قال صفوان: أمَّا هذا، فقد انقطعت عنه أعمالهُ، واحتاج إلىٰ دعاء من خلف بعده، قال: فأبكىٰ والله القوم جميعـًا.





كان صفوان بن سليم يقول: في الموت راحةُ للمؤمِن من شدائد الدنيا، وإن كان ذا غُصص وكَرب، ثم ذرفت عيناه.

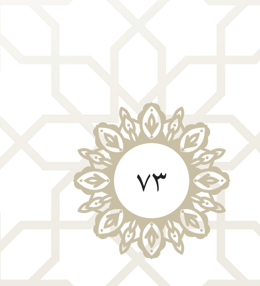
وقيل: لما قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني، ودخل عليه جعفر بن حنظلة، قال أبوجعفر: ما تقول في أمر أبي مسلم ؟ قال ابن حنظلة: إن كنت أخذت من شعره فاقتله، فقال: وفقك الله. ها هو في البساط قتيلاً، فقال: يا أمير المؤمنين: عُدَّ هذا اليوم أولَ خلافتك، وأنشد المنصور:

فَأَلقَت عَصَاهَا واستَقَرَّت بِهَا النَّوى　　كَمَا قَرَّ عَيناً بالإِياب المُسَافِرُ

وقوله: فألقت عصاها واستقر بها النوىٰ؛ يُضرب هذا مثلاً لكل مَنْ وافقه شيء فأقام عليه.



لما احتُضِرَ عبدالله بن المُبارك، جعل رجل يُلقِّنُه، قل: لا إله إلا الله، فأكثر عليه، فقال له: لست تُحْسِنُ، وأخافُ أن تُؤذي مسلماً بعدي. إذا لقَّنتني، فقلتُ: لا إله إلا الله، ثم لم أحدِث كلاماً بعدها، فدعني، فإذا أحدثتُ كلاماً، فلقِّني حتىٰ تكونَ آخر كلامي.





قال إسحاقُ بن أحمد بن خلف: كنا عند محمدِ بن إسماعيل البخاري، فورد عليه كتابٌ فيه نَعِيُّ عبدالله بن عبدالرحمن الدَّارِمِيُّ، فنكَّس رأسَه، ثم رفع واسترجع، وجعل تسيلُ دموعُه علىٰ خَدَّيْهِ، ثم أنشأ يقولُ:

إنْ تَبْــقَ تُفْجَعْ بالأَحِبَّــةِ كُلِّهِمْ   وَفَناءُ نَفْسِــكَ لا أَبا لَــكَ أَفْجَعُ

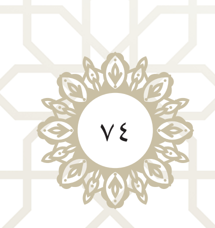
قال أبوبكر العَطَويّ: كنتُ عندَ الجُنَيْد بن محمد بن الجنيد النهاوندي لما احتُضِر، فختَم القرآنَ ثم ابتدأ سورة البَقرة، فتلا سَبعين آيةً ومات.

وقيل: إنَّ الحَلاَّج لمَّا أُخرج للقتل أنشَدَ:

طَلَبْتُ المُسْــتَقَرَّ بِــكُلِّ أرضٍ   فَلَــم أَرَ لي بــأرضٍ مُسْــتَقَرّا

أَطَعْــتُ مَطَامِعِي فَاسْــتَعْبَدَتْني   ولــو أنِّي قَنَعْــتُ لكُنْــتُ حُرّاً

قال أحمد السرخسي: لمَّا قَرُبَ حضورُ أجل أبي الحسن الأشْعَرِيِّ في داري ببغداد، دعاني فأتيتهُ، فقال: اشهدْ عليَّ أني لا أكفِّر أحداً من أهل القِبْلة، لأنَّ الكلَّ يُشيرون إلىٰ معبودٍ واحد، وإنما هذا كلُّه اختلاف العِبارات.





وقال أبو الشيخ: حكىٰ أبو جعفر الخَيَّاط لنا، قال: حَضَرْتُ موتَ عبدِالله بنِ جَعْفر بن فارس، وكُنَّا جُلوساً عنده، فقال: هذا مَلَكُ الموت قد جاء، وقال بالفارسية: اقْبِضْ روحي كما تَقْبِضُ رُوحَ رَجُلٍ يقول تسعين سنة: أَشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه.

نُقل أنَّه لما احتضر عَضُدُ الدَّوْلَة حسين بن بويه ما انطلق لسانُه إلا بقوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩] ومات بعلَّة الصَّرَع.

قال الحاكم: ولد لأبي عَمرو بن حمدان محمد بن أحمد بنتٌ، وعمرهُ تسعونَ سنة، وتُوفي وزوجتُه حبلىٰ، فبلغني أنها قالت له عند وفاته: قد قربتْ ولادتي، فقال: سلّمتُه إلىٰ الله، فقد جاؤوا ببراءتي من السماء، وتشهَّد، ومات في الوقت.





مَرِضَ ابنُ كِلِّس يعقوب بن يوسف، فنزَل إليه العزيزُ يعودُه، وقال: يا يعقوب وددتُ أنَّكَ تُبَاع فأشتريكَ من الموت بمُلكي، فهل من حاجَة ؟ فبَكَىٰ وقبَّل يَده، وقال: أما لنفسي فَلَا، ولكنْ فيما يتعلَّق بك، سالِم الرُّوم ما سَالَمُوك، واقنَعْ من بَنِي حَمْدانَ بالدَّعوةِ والسّكَّة، ولا تُبقِ علىٰ المفرج بن دَغفل مَتىٰ قَدَرْت. ثمَّ ماتَ، فدَفَنَهُ العزيزُ في القَصْر في قبَّةٍ أنشأَها العزيزُ لنَفْسِه، وأَلحدَهُ بيده، وجَزِعَ لفَقْدِه. وقال العزيزُ وهو يَبْكي: واطولَ أسَفي عَلَيْكَ يا وزير -يعني ابنُ كِلِّس-.



وقال أبو القاسم بن بشران: دخلتُ علىٰ شيخنا أبي طالب صاحبُ القوت، فقال: إذا علمت أنه قد ختم لي بخير، فانثُر علىٰ جنازتي سكراً ولوزاً، وقل: هذا الحاذق، وقال: إذا احتُضرتُ، فخذ بيدي، فإذا قبضتُ علىٰ يدك، فاعلم أنَّه قد خُتم لي بخير، فقعدتُ، فلمّا كان عند موته، فبضَ علىٰ يدي قبضاً شديداً، فنثرتُ علىٰ جنازته سكراً ولوزاً.





قال الحُميدي: حدثنا عليُّ بنُ أحمد الحافظ، أخبرني أبو الوليد بنُ الفَرَضي قال: تعلَّقْتُ بأستار الكعبة، وسألتُ اللّه تعالىٰ الشهادةَ، ثم فكّرتُ في هول القتلِ، فندمتُ، وهممتُ أن أرجِع، فأستقيل اللّه ذلك، فاستحييتُ. قال الحافظُ علي: فأخبرني من رآهُ بين القتلىٰ، ودنا منه، فسمعه يقولُ بصوت ضعيف: «لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك». كأنه يُعيدُ علىٰ نفسِه الحديثَ، ثم قضىٰ علىٰ إثْرِ ذلك رحمه اللّه.

كان يحيىٰ بن عمّار فصيحاً مُفَوَّهاً، حسنَ الموعِظَةِ، رَأساً في التفسير، أكمل التفسيرَ علىٰ المِنْبرِ في سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة، ثم افتتح خَتْمةً أخرىٰ فمات وهو يُفَسِّرُ في سورة القِيامة.

قيل: إن الماوَرْدي أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي، لم يُظْهِرْ شيئاً من تصانيفه في حياتهِ، وجَمعها في موضع، فلما دَنَت وَفَاتُه، قال لمن يَثِقُ به: الكتبُ التي في المكان الفلاني كُلُّها تصنيفي، وإنما لم أُظْهِرها لأني لم أجد نِيَّةً خَالِصَةً، فإذا عَايَنْتُ الموتَ، وَوَقَعْتُ في النزع، فاجعل يَدَكَ في يدي، فإن قبضتُ عليها وَعَصَرْتُهَا، فاعلم أنه لم يُقبل مني شيءٌ منها، فاعْمِدْ إلىٰ الكُتُب، وأَلْقِهَا في دَجْلَة، وإن بَسَطْتُ يدي، فاعلم أنها قُبِلَتْ. قال الرجل: فلما احتُضِرَ، وَضَعْتُ يدي في يده، فَبَسَطها، فَأظهرتُ كُتُبه.





قيل: إن الكُنْدُرِي أبو نصر محمد بن منصور عند قَتلِه:

إنْ كَانَ بالناس ضِيقٌ عن مُنَافَسَتِي   فَالْمَوْتُ قَدْ وَسَّعَ الدُّنيا عَلَى النَّاسِ
مَضَيْتُ والشَّامِتُ الْمَغْبُونُ يَتْبَعُنِي   كُلٌّ بِكأسِ المنايا شَـــارِبٌ حَاسِي

قُتِل صبراً، وطِيف برأسه، وما بَلَغَنَا عنه كبيرُ إساءة، لكنْ ما علىٰ غَضَب الملك عِيار.

حكىٰ البهجةُ بنُ أبي عَقيل عن ابن أبي العلاء علي بن محمد أنه كان بيده دفترُ حسابٍ يُحَاسِبُ رجلاً، ثم نظر إلىٰ فوق، وقال: ما هذا الوجهُ؟ هذه صورة شخص قد تمثَّل لي، ثم رمىٰ الدفترَ، وأُغْمِيَ عليه، ومات.

كان ابن الحَطَّاب أحمد بن إبراهيم في سَكْرَةِ الموت يقول لابنه: ما لي حَسْرة إلا أَنِّي أَمُوتُ؛ ولم يُؤْخَذْ عنِّي ما سمعتُه علىٰ الوجه الذي أردتُه.

وقيل: إن المُستَظْهِر بالله أحمد بن عبدالله أنشد قبلَ موته بقليل، وبكىٰ:

يا كَوكَبــاً ما كان أقــصَرَ عُمرُهُ   وكذا تكونُ كَواكبُ الأســحَارِ





كان السُّمَيري علي بن أحمد يقول: قد استحييت من كثرة الظُّلم والتعدي، ولما عزم علىٰ السَّفر، أخذ الطالع (كان المنجمون الخراصون يأخذون له الطالع ليخرج، فقالوا: هذا وقت جيد، وإن تأخرت يفت طالع السعد، فأسرج وركب، وأراد أن يأكل طعامًا، فمنعوه لأجل الطالع)، وركب في موكب عظيم، وبين يديه عدة بالسيوف والحراب والدبابيس، قال ابن النجار: فمرَّ بمضيقٍ، وتقدمه الكل، وبقي منفرداً، فوثب عليه باطني من دكة، فضربه بسكين، فوقعت في البغلة، وهرب، فتبعه كل الأعوان، فوثب عليه آخر، فضربه في خاصرته، وجذبه رماه عن البغلة إلىٰ الأرض وجرحه في أماكن، فرد الأعوان، فوثب اثنان فحملاهما والقاتل عليهم، فانهزم الجمع، وبقي الوزير، فكرَّ قاتله، وجرَّه، والوزير يستعطفه ويتضرع له، فما أقلع حتىٰ ذبحه.

قال ابنُ النجار: سمعتُ ابنَ سُكينة يقولُ: كنتُ حاضراً لما احتُضر شيخ الشيُوخ أبو البركات إسماعيل بن أحمد بن محمد النيسابوري، فقالت له أُمي: يا سيِّدي، ما تجدُ ؟ فما قدرَ علىٰ النُّطق، فكَتَب علىٰ يدها: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾[الواقعة:٨٩] ثم مات.





صاحب خوارزم الملك أتسز بن محمد بن نوشتكين، تملّك مدةً طويلة، وكان مُطيعـًا للسُّلطان سَنْجَر، تعلَّلَ مدةً بالفالج، فأُعطي حراراتٍ بلا أَمْر الطِّبِّ، فاشتدَّ الألمُ، وضعُفت القوةُ، وتُوفي في جُمادىٰ الآخرة سنةَ إحدىٰ وخمسين مئة، فكان يتأسَّفُ، ويقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة:٢٨-٢٩].

توفِّي القاضي الفاضلُ عبدالرحيم بن علي مسكوتـًا (يعني فجأة وهو ما يعرف في عصرنا بالسكتة القلبية)، أحوجَ ما كانَ إلىٰ الموتِ عند تولِّي الإقبالِ وإقبالِ الإدبارِ، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ للّهِ به عنايةً.

قال أبوموسىٰ ابن الحافظ عند موته: لا تضيِّعوا هذا العِلْمَ الذي قد تعبنا عليه.

لما احتضر المسعود أقسيس بن محمد قال: والله ما أرضىٰ من مالي كفنـًا، ثم بعث إلىٰ فقير فقال: تصدّق عليّ بكفن.





انتقل ابن الأبّار محمد بن عبدالله القضاعي من الأندلسِ عند استيلاءِ النَّصارىٰ، فنزل تُونسَ مدة، فشغبَ عليه بعض أعدائه عند مَلك تونسَ، بأنّه عمل تاريخًا وتكلّم في جماعة، وقالوا: هو فضوليٌّ يتكلم في الكبار، فأُخذ، فلما أحسّ بالتَّلَف قال لغُلامه: خذ البَغْلَة لك، وامض حيث شئت، فلما أُدخِلَ، أَمَرَ الملكُ بقتلِه.







رثاء وحسن عزاء

يقول حسان بن ثابت في رثاء زيد بن ثابت:

فمن للقوافي بعد حَسَّـــانَ وابنِهِ ... ومن للمثاني بعد زيـــدِ بن ثابتِ

قال الزُّبَيْرُ بن بكَّار: حدَّثني غَيْرُ واحد أنَّ عيسىٰ بن طلحة جاءَ إلىٰ عُروَة بن الزبير بن العوَّام حينَ قَدِمَ، فقال عُروةُ لبعضِ بنيه: اكشفْ لِعَمِّكَ رجْلي، ففعل فقال عيسىٰ: إنّا والله يا أبا عبدالله ما أعدَدْناكَ للصراع، ولا للسباق، ولقد أبقىٰ اللهُ مِنْكَ لنا ما كُنَّا نحتاجُ إليه، رأيَكَ وعِلْمَك. فقال: ما عَزَّاني أحدٌ مثلك.

لما مات ذر بن عمر قعد عمر علىٰ شفير قبره، وهو يقول: يا بني، شغلني الحزنُ لك، عن الحُزن عليك، فليت شعري، ما قُلتَ، ومَا قِيلَ لك ؟ اللهم إنك أمرته بطاعتك وبِبرِّي. فقد وهبتُ له ما قصر فيه مِن حقِّي، فهب له ما قصَّر فيه من حقك. وقيل: إنه قال: انطلقنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك، فنستودِعُك أرحمَ الراحمين.





حارب يزيد بنُ مَزيد، الوليدُ بنُ طَرِيف، وظَفِرَ به فقتله. ورثَته أختُه بأبيات مشهورة، واسمها الفارِعة. ومن أبياتها

فَيا شَــجَرَ الخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقَاً   كَأَنَّكَ لَمْ تَحْــزَنْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ
فَتىً لا يُحِبُّ الــزَّادَ إلاَّ منَ التّقى   وَلَا المَــالَ إلاَّ مِن قَناً وَسُــيُوفِ
ولاَ الذُّخرَ إلا كُل جَــردَاءَ صِلدِمٍ   مُعَــاوِدَة لِلكَــرِّ بَــينَ صُفُوفِ
حَلِيف النَّدى مَا عَاشَ يَرضَى بِهِ النَّدَى   فَإن ماتَ لم يَرضَ النَّدى بِحَليْفِ

كانَ الخُوْشِيّ محمد بن أسد أحدَ أَركانِ الحَديث، ولمّا بَلغ إسحاقَ ابنَ راهَويه موتُه، دَخل علىٰ ابنِ طاهرٍ الأَميرِ، فقال: آجَرك اللهُ في نِصف خُراسان.

كان الوزير أبو الحسن علي بن عيسىٰ بن داود الجراح علىٰ الحقيقة غنيًا شَاكراً، ينطوي علىٰ دينٍ وعِلْم وَفَضل. وكان صَبُوراً علىٰ المِحَنِ. ولله به عناية، وهو القائل يُعزي وَلَدَيْ القاضي عمرَ بن أبي عمر القاضي في أبيهما: مُصيبة قد وَجَبَ أجْرُها خَيْرٌ مِنْ نِعْمَةٍ لا يُؤدَّىٰ شُكْرُها.





ابنُ بَقيّة محمد بن محمد الوزير الكبير، رثاه شاعر بأبيات واختفىٰ، فقال:

عُلـــوٌّ في الحَيَـــاة وَفِي المَمَـــاتِ   لحقٌ أَنْـــتَ إِحـــدَى المُعْجِزَاتِ

قال ابنُ العديم: كَتَبَ سنانُ بن سليمان إلىٰ صاحبِ شَيْزَر يُعزِّيه بأخيه:

إنَّ المنايـــا لا تَطَـــا بمنســـمٍ   إلاّ على أكتـــافِ أهلِ السُّـــؤدُدِ

فَلَئِن صَبَرتَ فأنتَ ســـيدُ مَعشَرٍ   صَـــبَرُوا وإن تجزَع فغـــيرُ مُفَنَّدِ

هـــذا التَّناصُرُ باللســـانِ ولو أتى   غـــيرُ الحِمام أتاكَ نـــصري باليدِ

وهي لأبي تمّام.

كتب صلاح الدين تعزيةٌ إلىٰ صاحب حلب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١]. ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج:١] كتبتُ إلىٰ مولانا الملكِ الظاهر أحسَنَ اللهُ عزاءَهُ، وَجبَر مُصَابَهُ، وَجَعَلَ فيه الخلفَ من السَّلفِ في السَّاعةِ المذكورةِ، وقد زُلزِلَ المسلمونَ زلزالاً شديداً، وقد حَضَرتِ الدموعُ المَحَاجِرَ، وَبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ، وقد ودَّعتُ أباكَ ومخدومي وداعاً لا تَلاقيَ بعدَهُ، وَقبَّلتُ وجهَهُ عنِّي وعنكَ، وأسلَمتُهُ إلىٰ الله وحدَهُ مغلوبَ الحيلةِ، ضعيفَ القُوَّةِ، راضياً عن اللهِ، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا



باللهِ، وبالبابِ من الجنودِ المجنَّدَةِ، والأسلحةِ المعمدة ما لم يَدفَعِ البلاءَ، ولا ما يردُّ القضاءَ، تَدمَعُ العَينُ، وَيخشَعُ القلبُ، ولا نقولُ إلا ما يُرضي الربَّ، وإنَّا بكَ يا يوسفُ لمحزنون. وأمَّا الوَصايا، فما تحتاجُ إليها، والآراءُ، فقد شغلني المصابُ عنها، وأمَّا لائح الأمرِ، فإنَّه إن وَقَعَ اتِّفاقٌ، فما عدِمتُم إلاَّ شخصَهُ الكريمَ، وإن كانَ غيرَ ذلك، فالمصائبُ المستقبلةُ أهونُها موتُه.

الظَّاهر غازي بن يوسف رَثَاهُ شاعِرُهُ راجِحُ الحلِّي، فمما قاله:

وَهل مُخْبري عَنْ ذلك الطَّوْدِ هَلْ وَهتْ ... قواعِــدُهُ أَمْ لاَنَ للخطبِ جانِبُهْ

وقال صفي الدين ابن جميل يرثي المُستنصر باللّه منصور بن محمد البغدادي:

عــزّ العــزاءُ وأعــوز الإلمــامُ ... واســترجعت ما أعطــت الأيامُ
فدع العيون تســح يــوم فراقهم ... عوض الدموع دمــاً فليس تلامُ
بانــوا فــلا قلــبي يقر قــرارهُ ... أســفاً ولا جفني القريــح ينامُ
فعلى الذين فقدتهــم وعدمتهم ... مــني تحيــةُ موجــعٍ وســلامُ





عن الحرب والشجاعة

قال علي بن أبي طالب: حاربني خمسة: أَطوعُ الناس في الناس: عائشة، وأَشجعُ الناس: الزبير بن العوَّام، وأَمكرُ الناس: طلحة لم يدركه مكرٌ قط، وأَعطىٰ الناس: يعلىٰ بن مُنْيَة، وأعبدُ الناس: محمد بن طلحة، كان محموداً حتىٰ استزلَّهُ أَبوه، وكان يعلىٰ يعطي الرجل الواحد ثلاثين ديناراً والسلاح والفرس علىٰ أَن يحاربني.

وعن أَبي الزِّناد: أَن خالدَ بن الوليد لما احتُضِرَ بكىٰ وقال: لقيتُ كذا وكذا زحفـًا، وما في جسدي شِبر إِلا وفيه ضربةٌ بسيف، أَو رميةٌ بسهم، وها أَنا أَموت علىٰ فراشي حتفَ أَنفي كما يموت العير فلا نامت أَعينُ الجبناء.

أبو طلحة الأنصاري هو الذي قال فيه رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صوت أبي طلحة في الجيش خيرٌ من فِئة».



شهد أبوسفيان قتالَ الطائف، فقُلعت عينُه حينئذ، ثم قُلعت الأُخرىٰ يوم اليرموك. وكان يومئذ قد حَسنَ إن شاء اللهُ إيمانُه، فإنه كان يومئذ يُحرِّض علىٰ الجهاد. وكان تحتَ راية ولده يزيد، فكان يصيحُ: يا نصر الله اقتربْ. وكان يقفُ علىٰ الكراديس يُذكِّرُ، ويقول: الله الله، إنكم أنصارُ الإسلام ودارةُ العرب، وهؤلاء أنصارُ الشِّرك ودارةُ الروم؛ اللهم هذا يومٌ من أيامك، اللهم أنزلْ نَصرك.



قال عُروة: دخلتُ أنا وأخي عبدالله بن الزبير، قبل أن يُقتل، علىٰ أُمِّنا -يعني أسماء بنتُ أبي بكر- بعشر ليال، وهي وَجِعَةٌ، فقال عبدُالله: كيف تَجدِينَك ؟ قالت: وجعة. قال: إنَّ في الموت لعافية. قالت: لعلك تَشتهي موتي؛ فلا تفعل، وضَحكت، وقالت: والله، ما أَشتهي أن أَموت، حتىٰ تأتيَ علىٰ أحدِ طرفَيْك: إما أن تُقتَل فَأَحتَسِبك؛ وإما أن تَظفَر فتقر عيني. إياك أن تُعرض علىٰ خُطة فلا توافق، فتقبلُها كراهيةَ الموت.



قالت أسماءُ بنتُ أبي بكر لابنها: يا بنيَّ عِشْ كريمـًا، ومُتْ كريمـًا، لا يأخذك القوم أسيراً.





قال أبو قَتَادة الأنصاري السلمي: إني لأغسلُ رأسي، قد غسلتُ أحد شِقَّيه، إِذْ سمعتُ فرسي جِرْوك تَصهُل، وتبحث بحافرها. فقلتُ: هذه حربٌ قد حَضَرَتْ. فقمتُ، ولم أغسلْ شِقَّ رأسي الآخر، فركبتُ، وعليَّ بُردةٌ، فإذا رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصيح: الفَزَعَ ! الفَزَعَ !

سكن بُرَيْدَةُ بنُ الحُصَيب البصرةَ مدةً. ثم غزا خراسان زمن عُثمان، فحكىٰ عنه من سمعه يقول وراء نهر جيحون:

لا عيشَ إلا طراد الخيل بالخيل

بعثَ زياد بن أبيه الحكَم بنَ عمرو الغِفاري علىٰ خُراسان، فَغَنِموا، فكتبَ إليه: [أما بعدُ: فإن أميرَ المؤمنين كتب إليَّ أن أصطفي له الصفراء والبيضاء] لا تَقْسِم [بين الناس] ذهباً ولا فضةً. فكتب إليه الحكَم: أُقسم بالله، لو كانت السماوات والأرض رَتْقاً علىٰ عبد، فاتَّقىٰ اللهَ، يجْعلُ لهُ من بينهما مخرجاً. والسلام. [ثم قال للناس: اغدوا علىٰ فيئكم، فاقسموه].





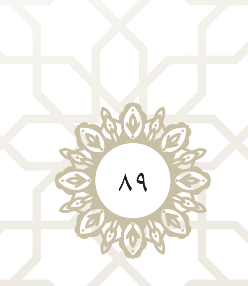
كتبَ يزيد إلىٰ عبدالله بن الزُّبير: إني قد بعثتُ إليك بسلسلةٍ فضةً، وقيداً من ذهب، وجامعةً من فضَّة، وحلفتُ لَتَأتِينِّي في ذلك، فألقىٰ الكتابَ، وأنشد:

ولا أَلين لِغَيرِ الحَقِّ أُسأَلُهُ   حتَّى يَلِينَ لِضرسِ الماضِغِ الحَجَرُ

وذكر إسماعيل السُّدي عن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قال: الرافضة حزبنا مرقوا علينا، وقيل: لما انتهره هشام وكذبه، قال: من أحبَّ الحياة، ذلَّ، وقال:

مَنْ عَاذَ بِالسَّيْف لاقَى فَرجَةً عَجباً   مَوْتاً عَلى عَجَلٍ أوْ عَاشَ فَانْتَصفا

وعن أحمد بن إسحاق، قال: يَنْبَغِي لقائد الغُزَاة أن يكونَ فيه عشرُ خصال: أنْ يكونَ في قلبِ الأسَد: لا يَجْبُنُ، وفي كِبْر النَّمِر: لا يَتَوَاضَعُ، وفي شَجاعة الدُّبِّ: يقتل بجوارحِهِ كُلِّها، وفي حَمْلة الخِنْزِير: لا يُوَلِّي دُبُرَه، وفي غَارة الذِّئْب: إذا أَيِسَ من وجْهٍ أغارَ من وجه، وفي حَمْل السِّلاح كالنَّمْلَة: تَحملُ أكثَرَ من وَزْنِها، وفي الثَّبَات كالصَّخْرِ، وفي الصَّبْر كالحِمار، وفي الوَقَاحَة كالكلب: لو دَخَلَ صيدُه النَّارَ لَدَخَلَ خَلْفَه، وفي التِمَاس الفُرْصَة كالدِّيك.



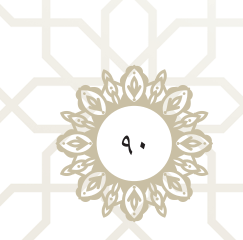


طغان خان قصدته جيوش الصينِ والخَطَا في جَمْعٍ ما سُمع بمثلِهِ حتىٰ قيل: كانوا ثلاثَ مئة ألف. وكان مَريضاً فقال: اللهم عافِني لأغزُوَهم، ثم توفَّني إن شِئْتَ. فعُوفِيَ، وَجَمَعَ عساكِرَهُ، وساقَ، فَبَيَّتَهُم، وقتَلَ منهم نحو مئتي ألف، وأسر مئة ألف، وكانت ملحمةً مشهودةً في سنة ثمان وأربع مئة، ورجعَ بغنائِمَ لا تُحصىٰ إلىٰ بَلَاساغُون، فتوفّاه اللهُ عقيب وصوله.

الصُّلَيحي أبو الحسن علي بن القاضي محمد بن علي الصليحي، هو القائل:

أَنْكَحْتُ بِيضَ الهِنْدِ سُمْرَ رِماحِهِمْ   فَرُؤوسُهُمْ عِوَضَ النِّثارِ نثارُ
وَكذا العُلى لا يُسْتَباحُ نِكاحُها   إِلَّا بِحَيْثُ تُطَلَّقُ الأَعْمارُ

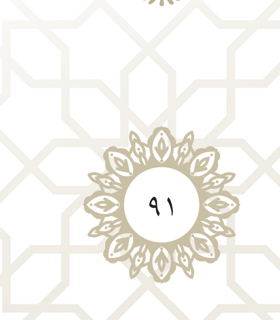
المُظَفَّر بن الأفطس سلطان الثغر الشمالي من الأندلسي، له ألفاظٌ كالزلزال، وأغراضٌ أبعدُ من الهلال، رائقُ النظم، ذكي النور، رصيفُ المعاني، شاهقُ الغَور، يقول: مَنْ يَصِدْ صَيْداً فَلْيَصِدْ كَما صَيْدِي، صَيْدِي الغَزَالَةُ مِن مَرَابض الأسد. أيها الملك إن الروم إذا لم تُغْزَ غَزَتْ.





ومن غريب أمر أبو عبدالله مَرْدَنيش الجذامي المغربي، أنه نزل ملكُ الروم ابنُ رُذمير، فأفسدوا الزروع، فبعث يقولُ له: مثلُكَ لا يرضىٰ بالفساد، ولا بُدَّ لك من الانصراف، فأُفسِدُ في بلدك في يوم واحد ما لا تُفْسِده في جمعة. فأمر اللعينُ أصحابَهُ بالكفِّ، وبعثَ إليه يرغَب في رُؤيته لسُمعته عندهم. قال ابنُ مورين: فجئنا مع الرئيسِ، فقدَّمناه، فأكرمَه، وأجلسه إلىٰ جنبه، وجعل يَطَّلَّعُ إليه ويقولُ بلسانه: اسمُكَ عظيم، وطلعتُكَ دونَ اسمِك، وما شخصُك بشخصِ فارس. وكان قَصيراً، وأراد مُمازحَتَه، وكذا وجَّه إليه أميرُ المسلمين عليُّ بنُ يوسف، فمضىٰ واجتمع به، واستناب موضعَه ولدَه سعداً إلىٰ أن رجع.

من عجيب ما صح من مغازي أبو عبدالله مَرْدَنيش الجذامي المغربي -يقولُ ذلك اليَسَعُ بنُ حزم- أنه أغار يومـًا، فغنم غنيمةً كثيرة، واجتمع عليه من الروم أكثرُ من ألف فارس، فقال لأصحابه وكانوا ثلاث مئة فارس: ما تَرَون ؟ فقالوا: نَشْغَلُهُم بتركِ الغنيمة. فقال: ألم يقل القائلُ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾[الأنفال:٦٥] فقال له ابنُ مُورين: يا رئيس، اللهُ قال هذا. فقال: اللهُ يقولُ هذا وتقعُدُون عن لقائِهِم ؟! قال: فَثَبَتُوا، فهزَموا الروم.



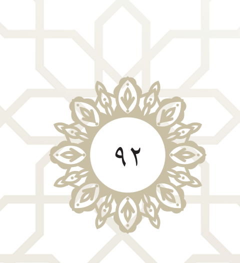


قال القطبُ النيسابوريُّ، لنور الدين الشهيد أبو القاسم محمود بن زنكي: باللهِ لا تُخاطِر بنفسِكَ، فإن أُصبتَ في معركةٍ لا يبقىٰ للمُسلمين أحدٌ إلا أخذهُ السيفُ، فقال: ومَن نور الدين حتىٰ يُقال هذا ؟! حفظ اللهُ البلادَ قَبلي لا إله إلا هو.

كان أبو محمد ابنُ عياض المجاهد إذا ركب الخيلَ لا يقومُ له أحدٌ، كان النصارىٰ يَعُدُّونه بمئةِ فارس.

كان ابنُ غَانِيَةَ يحيىٰ بن علي، ممن يُضْرَبُ بشجاعَتِهِ المَثَلُ، حتىٰ قيلَ: كانَ يُعَدُّ بخمس مئةِ فارسٍ، فأصْلَحَ اللهُ علىٰ يَدَيْهِ أشياءَ وَدَفَعَ به مكارِه.

قال عبدالواحد: لما تجهَّزَ ابنْ عبدِالمُؤْمنِ يوسف ابن السلطان لغزِو الرومِ، أمرَ العلماءَ أن يجمعوا أحاديثَ في الجهادِ تُمْلىٰ علىٰ الجُنْدِ، وكانَ هو يُمْلي بنفسِهِ.





قيل: إنَّ الأدفنش كتبَ إلىٰ صاحب المغرب يعقوب بن يوسف يُهدِّدُه، ويُعنِّفهُ، ويطلبُ منه بعضَ البلادِ، ويقولُ: وأنتَ تُماطلُ نفسك، وتُقدِّمُ رِجْلاً، وتُؤخِّر أخرىٰ، فما أدري الجبنُ بطَّأ بكَ، أو التكذيبُ بما وعدَك نبيُّك ؟ فلما قرأ الكتاب، تنمَّر، وغضب، ومزَّقَه، وكتبَ علىٰ رقعةٍ منه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ...﴾ الآية [النمل:٣٧]، الجوابُ ما ترىٰ لا ما تسمع.

ولا كُتْــب إلَّا المشرفِيَّــةُ عندنا ولا رُسْــل إلَّا للخَمِيْسِ العَرَمْرَمِ

ثم استنفر سائر الناس، وحشد، وجمع، حتىٰ احتوىٰ ديوان جيشه علىٰ مئة ألف، ومن المطوعة مثلهم، وعدىٰ إلىٰ الأندلس، فتمت الملحمة الكبرىٰ، ونزل النصر والظفر، فقيل: غنموا ستين ألف زرديَّةٍ.

كان الكامل محمد بن غازي شديدَ البأس، قويَّ النفس، لم ينقهر للتتار بحيث إنهم أخذوا أولادَه من حصنهم، وأَتَوْهُ بهم تحت سُور ميّافارقين، وكلموه أن يُسَلِّم البلد بالأمان فقال: ما لكم عندي إلا السيف.





من صور الفخر

ضرب الزبير بن العوَّام يوم الخندق عثمانَ بن عبدالله بن المغيرة بالسيف علىٰ مِغْفَره، فقطعه إلىٰ القَرَبوس (مقدم السرج ومؤخره)، فقالوا: ما أَجود سيفك ! فغضب الزبير، يريد أَن العمل ليده لا للسيف.

قال عروة: قال عبدالملك بن مروان، حين قتل ابن الزبير: يا عروةُ ! هل تعرفُ سيفَ الزبيرِ ؟ قلتُ: نعم. قال: فما فيه ؟ قلت: فَلَّة فلَّها يوم بدر، فاستله فرآها فيه، فقال:

بِهنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ

عن أبي الدرَّداء، قال: سلُوني، فوالله لئن فقدنموني لتفقدُنَّ رجلاً عظيماً من أُمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.



عن بشرِ بنِ محمد بن عبدُالله بنُ زيد، قال: قدمتُ علىٰ عُمَر بنِ عبدالعزيز، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أنا ابنُ صاحب العقبة وبدر، وابنُ الذي أُرِيَ النداء. فقال عُمر: يا أَهلَ الشَّام:

هذِي المَـــكَارِمُ لا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ   شِـــيْبَا بِمَـــاء فَعَادَا بَعْــدُ أبْوَالاَ

والقعب: القدح الضخم، وشيبا: خلطا.

كتبَ زياد بنُ أَبيه إلىٰ مُعاوية: إني قد ضبطتُ العراقَ بيميني، وشمالي فارغةٌ، وسأَله أن يُولِّيه الحجازَ.

حسان بن مالك بن بحدل بن أنيف هو الذي يفتخِرُ ويقول:

فإِنْ لا يَكُنْ مِنَّا الخَلِيفَةُ نَفسُه   فَمَا نالَهَا إلَّا ونَحْنُ شـــهُودُ

قال محمدُ بنُ جَرير: قال ابنُ سعدٍ: كان الواقديُّ يقولُ: ما مِنْ أحدٍ إلا وكُتبُه أكثرُ من حفظه، وحفظي أكثرُ من كتبي.



وعن القَناد قال: لقيتُ يوماً الحلاّج في حالةٍ رَثَّة، فقلتُ له: كيف حالُك ؟ فأنشأ يقول:

لَـئِنْ أمسـيتُ في ثَـوبي عَدِيْمٍ لَقَـد بليـا على حُـرٍّ كَرِيْـم

فلا يحزنـك أن أبـصرتَ حالاً مُغـيَّرَةً عَـنِ الحَـالِ القَدِيم

فَلِي نَفْسٌ سَـتذهبُ أو سَـترقَى لَعمـرُكَ بي إلى أمـرٍ جَسِـيْم

يقال: إنّ الطَّبَرْخَزي محمد بن العباس قصد ابن عبّاد، فقال للحاجب: إن كان يحفظ عشرين ألف بيت فليدخل، فقال أَمِنْ شعرِ الرِّجال، أَم مِنْ شعر النِّساء ؟ فأَعلمه بذلك الحاجب، فقال: هذا يكون الطَّبَرْخَزي، فأكرمه وباسطه.

قال قاضي المَرَسْتان أبو بكر محمد بن عبدالباقي: صليتُ الجُمُعة، وجلستُ أنظُرُ إلىٰ الناس، فما رأيتُ أحداً أودُّ أكونَ مثله.



الزَّمَخْشَريُّ أبو القاسم محمد بن عمر النحوي المفسر، صاحبُ «الكشّاف» وقد قال فيه يمدحه:

إن التفاســير في الدنيا بلا عددٍ　　ولَيْسَ فيها لَعمري مِثْلُ كشــافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته　　فالجهلُ كالداء والكشافُ كالشافي





حسن التخلص

عوف: عن أَبي رجاء العُطاردي، قال: شهدتُ الزبيرَ بن العوَّام يومـًا، وأَتاه رجل، فقال: ما شأنكم أَصحابَ رسولِ الله ؟ أَراكم أَخفَّ الناس صلاةً ! قال: نُبادِرُ الوَسْوَاسَ.

سُئِلَ عمار بن ياسر عن مسألة فقال: هل كان هذا بعدُ ؟ قالوا: لا. قال: فدعونا حتىٰ يكون، فإِذا كان تجشَّمناهُ لكم.

قيل للعبَّاس (عم رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أنت أكبرُ أو النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قال: هو أكبر وأنا وُلدتُ قبله.

أحمد بن يونس: حدثنا أبو المُحَيَّاة يحيىٰ بن يَعْلىٰ التيمي، عن أبيه، قال: دخلتُ مكة بعد قتل ابن الزبير بثلاث -وهو مصلوبُ- فجاءتْ أُمُّهُ عجوزٌ طويلةٌ عمياء، فقالت للحجَّاج: أما آن للراكب أن ينزل ؟ فقال: المنافق ؟ قالت: والله، ما كان مُنافقـًا، كان صَوَّامـًا قوَّامـًا بَرّاً. قال: انصرفي يا عجوز، فقد

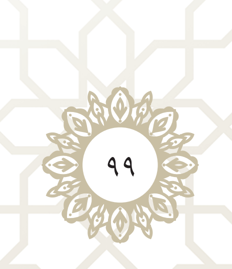




خرِفْتِ. قالت: لا -والله- ما خرفتُ منذ سمعتُ رسول الله يقول: «في ثقيف كذَّابٌ ومُبيْرٌ»، فأما الكذَّاب، فقد رأيناهُ -تعني المختار- وأما المُبِيرُ، فأنت. فقال لها: مُبِيرُ المنافقين.

وقيل: إنَّ رجلاً قال للأَحْنَفُ بنُ قَيْس: بمَ سُدتَ ؟ وأراد أن يَعيبهُ – قال الأحنف: بتَركي من ما لا يَعنيني كما عناكَ مِن أمري ما لا يعنيك.

قيل: إن الحجاج لمَّا أُتيَ بعبدالرحمن بن عائذ الحمصي قال له الحجاج: كيف أصبحت ؟ قال: لا كما يُريد الله، ولا كما يريد الشيطان، ولا كما أُريد؛ قال: ويحك، ما تقول ؟ قال: نعم، يُريدُ الله أن أكونَ عابداً زاهداً وما أنا كذلك، ويريدُ الشيطان أن أكونَ فاسقاً مارقاً وما أنا بذاك، وأُريد أن أكون مُخَلّىٰ في بيتي، آمناً في أهلي وما أنا بذاك؛ فقال الحجَّاج: أدبٌ عراقيٌّ، ومولدٌ شاميٌّ، وجيرانُنا إذ كُنَّا بالطائف. خَلُّوا عنه.





وُلِّيَ الخلافةَ سُليمان بن عبدالملك الخلافة، فطُلِبَ أبو العلاء يزيدُ بنُ أبي مسلم الثقفي في غُلّ، وكان قصيراً دميمـًا، كبيرَ البطن، مشوَّهـًا، فنظر إليه سليمان فقال: لعن الله مَنْ ولَّاك، قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنَّكَ رأيتني والأمورُ مدبرة عنِّي، فلو رأيتني في الإقبال لاستعظمتَ ما استحقرت. فقال: قاتله الله ما أَسَدَّ عَقلَهُ.



دَخَلَ مَعنُ بنُ زائِدة على المنصور، فقال: كبرتْ سِنُّك يا مَعْنُ. قال: في طاعتِك. قال: إنَّك لتَتَجَلَّدُ. قال: لأعدائِك. قال: وإِنَّ فيكَ لبقيَّةً. قال: هيَ لكَ يا أميرَ المؤمنين.



كان لإِبْراهَيْمُ بنُ طَهْمَان جِراية من بيت المال فاخرة، يأخذ في كل وقت، وكان يسخو به. فَسُئل مرةً في مجلس الخليفة، فقال: لا أدري. قالوا له: تأخذ في كل شهر كذا وكذا، ولا تحسن مسألة ؟ فقال: إنما آخذ على ما أحسن، ولو أخذتُ على ما لا أحسن، لفني بيتُ المال عليَّ، ولا يفنى مالا أُحْسِن. فأعْجَبَ أميرَ المؤمنين جوابُه، وأمر له بجائزة فاخرة وزاد في جِرايته.





سأل سَنْدَلٌ الإمام مالك عن مسألة، فأجابه، فقال: أنتَ مِنَ الناس، أحيانـًا تُخطئ، وأحيانـًا لا تُصيب، قال: صدقتَ. هكذا الناسُ. فقيل لمالك: لم تَدْرِ ما قال لك ؟ فَفَطِنَ لها، وقال: عهدتُ العلماءَ، ولا يتكلمون بمثل هذا، وإنما أُجيبه على جوابِ الناس.



قيل: إنَّ يحيىٰ البَرْمكي قال لعبدالملك بن صالح: بلغني أنك حَقُود. قال: إنْ كان الحِقْدُ بقاءَ الخيرِ والشَّرِّ، إنهما لباقيان في قلبي. فقال الرشيدُ: ما رأيتُ أحداً احتجَّ للحقدِ بأحسنَ من هذا.

الفَتحُ بنُ خاقان كان أحدَ الأذكياء، دخل المُعتصمُ علىٰ الأميرِ خاقان، فمازح ابنَه هذا، وهو صبيٌّ، فقال: يا فتح، أيُّما أحسنُ داري أو دارُكم؟ فقال الفتح: دارُنا إذا كنتَ فيها. فوهبه مئةَ ألفٍ.



لمَّا جلس أبوبكر محمَّد بن داود للفَتوىٰ بعد والده استصغَرُوه، فَدَسُّوا عليه من سأله عن حدِّ السُّكر، ومتىٰ يُعَدُّ الإنسانُ سَكران ؟ فقال: إذا عَزَبَتْ عنه الهُموم، وباحَ بِسِرِّه المكتوم. فاستُحسِن ذلك منه.

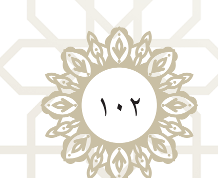




الدَّارِميُّ عثمان بن سعيد قال له رجلٌ كبيرٌ يَحْسُدُه: ماذا أنت لولا العلمُ؟ فقالَ له: أردت شينًا فَصَار زينًا.

قال الحسينُ بنُ اتحسنِ الوَاثِقِيُّ: كنت أرىٰ دائمًا جعفرَ بنَ وَرْقاء يَعْرِضُ علىٰ ابن مُقلة محمد بن علي في وِزَارَتِهِ الرِّقاعَ الكثيرةَ في حوائجِ النَّاسِ في مجالس حَفْله، وفي خَلْوَته. فربَّما عَرَضَ في اليوم أزيدَ من مئةِ رُقْعَةٍ، فَعَرَضَ عليه في مجلسٍ خالٍ شيئًا كثيراً، فَضَجِرَ، وقال: إلىٰ كم يا أبا محمد؟ فَقَال: علىٰ بابك الأرملة والضَّعيف وابنُ السبيل، والفقيرُ، ومن لا يَصلُ إليكَ. وقال: أيَّد اللهُ الوزيرَ إنْ كان فيها شيءٌ لي فَخرِّقْهُ. إنما أنتَ الدُّنيا، ونحن طُرُقٌ إليك، فإذا سألونا سألْنَاك، فإن صَعُبَ هذا أمَرْتَنَا أنْ لا نعرِضَ شيئًا، ونعرِّف النَّاسَ بضَعْفِ جَاهِنَا عِندَكَ ليعذُرونا، فقال أبوعلي: لم أذهبْ حيث ذَهَبْتَ وإنما أومأتُ إلىٰ أن تكونَ هذه الرِّقَاع الكثيرة في مجلِسَيْن. ولو كانَتْ كلُّها تَخُصُّك لقضيتُها، فقبّل جعفرٌ يَدَه.

قال أبو الحسن ابنُ المَرْزُبَان: كان أبومحمد بنُ مَاسي مِنْ دار كعْب يُنفِذُ إلىٰ أبي عُمر الزَّاهِد غلام ثعلب وقتًا بعد وقت كفايته ما يُنْفِقُ علىٰ نَفْسِهِ، فقطع ذلك عنه مُدَّةً لعُذرِ، ثم أنفذَ إليه جُملةَ ما كان في رَسْمه، وكتب إليه





يعتذرُ، فردَّه، وأمر أن يُكْتَبَ علىٰ ظهر رُقْعته: أكْرَمْتَنَا فملكْتَنَا، ثُمَّ أَعْرضْتَ عنا، فأَرَحْتَنَا.

وقد سار القاضي ابن البَاقِلانيّ رسولاً عن أمير المؤمنين إلىٰ طاغية الرومِ، وجرتْ له أمورٌ، منها أنَّ الملِكَ أدخَلَه عليه من باب خوخةٍ ليدخُل راكعـًا للمَلِكِ، فَفَطِنَ لها القاضي، ودخل بظَهْرِهِ.

أُريد ابنُ الفَخَّار محمد بن عمر بن يوسف علىٰ الرُسليَّة إلىٰ أُمراء البربر، فأبىٰ، وقال: بي جفاءٌ، وأخافُ أن أُوذىٰ. فقال الوزير: ورجلٌ صالحٌ يخافُ الموتَ ! فقال: إنْ أَخَفْهُ، فقد خافه أنبياءُ الله، هذا موسىٰ قد حكىٰ اللهُ عنه: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾[الشعراء:٢١].

وقال الخَلّال: كان ابن بُندار أبو الفضل عبدالرحمن بن أحمد العجلي في طريق، ومعه خبز وفانيذ، فأراد قُطَّاعُ الطريق أخذَه منه، فدفعهم بعصاه، فقيل له في ذلك، فقال: لأنه كان حلالاً، ورُبما كنتُ لا أجد مثلَه. ودخل كَرمان في هيئةٍ رَثَّةٍ وعليه أخلاقٌ وأسمال، فحُمِلَ إلىٰ المِلك، وقالوا: جاسوس. فقال الملكُ: ما الخبر ؟ قال: تسأَلُني عن خبرِ الأرض أو خبر السماء ؟ فإن كنتَ



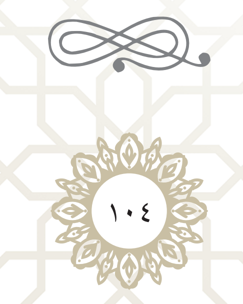
تسألُني عن خبر السماء فـ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩] وإن كنتَ تَسألُني عن خبر الأرض فـ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[الرحمن:٢٦]، فَتعجَّب المَلِكُ من كلامِه، وأكرمَهُ، وعرض عليه مالاً، فلم يَقْبله.

بعث المُعتمِد بن عبَّاد إلىٰ الحُصري علي بن عبدالغني خمس مئة دينار لِيَفِدَ عليه، فكتب:

أَمرتــني بركُوبِ البَحــرِ أَقطَعُه غيري لَك الخير فاخصُصه بذا الرائي

ما أنــتَ نُوحٌ فتُنجيني سَــفِينَتُهُ ولا المَســيحُ أنا أمشِي عَلَى المَاءِ

كان أحمد بن وقشي يدَّعي الولاية، وكان ذا مكرٍ وفصاحة وبلاغةٍ وحِيَلٍ وَشَعْبذةٍ، فالتفَّ عليه خلقٌ، ثم خرج بحصن مارْتُلة، ودعا إلىٰ نفسِه، وبايعوهُ، ثم اختلف عليه أصحابُهُ، ودسَّ عليه الدولةُ من أخرجه من الحصن بحيلةٍ، فَقَبَضَ عليه أعوانُ عبد المؤمن، وأتوهُ به، فقال له: بلغني أنه دعوتَ إلىٰ الهداية ؟! فكان جوابه أن قال: أليس الفجرُ فجرَين كاذب وصادق ؟ قال: بلىٰ. قال: فأنا كنتُ الفَجَر الكاذبَ. فضحكَ، وعفا عنه، وبقي في حضرك السلطان عبدِالمُؤمِن، ثم لم ينشب أن قتله صاحبٌ لهُ علىٰ شيءٍ رآهُ منه.





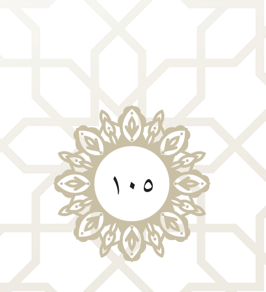
في الاحتراز وترك الشُبَهِ وتجنُّبِ الفتن

انصرف الزبير بن العوَّام يوم الجمل عن عليّ بن أبي طالب، فلقيه ابنه عبدالله، فقال: جُبْنًا، جُبْنًا ! قال الزبير بن العوَّام: قد علم الناس أَني لست بجبان، ولكن ذكَّرني عليٌّ شيئًا سمعته من رسول الله، صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فحلفت أَن لا أقاتله، ثم قال:

تَرْكُ الأُمُورِ الَّـــتي أَخْشَى عَواقِبَها   في الله أَحْسَنُ في الدُّنْيا وفي الدِّينِ

يقول سعد بن أبي وقاص: لا أقاتل حتىٰ يأتوني بسيف له عينان ولسانٌ، فيقول: هذا مؤمنٌ وهذا كافر.

قال عروة: بَلَغَنَا أَن الناس بكوا علىٰ رسول الله، صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقالوا: ليتنا متنا قبله، نخشىٰ أَن نفتتن بعده، فقال معن: لكني والله ما أحب أَنِّي مُتُّ قبله حتىٰ أُصدِّقه مَيْتًا كما صدَّقته حيًا.





روىٰ الأعمش عن أَبي سفيان، قال: حدثني أَشياخ منا أن رجلاً غاب عن امرأته سنتين، فجاء وهي حُبلىٰ، فأتىٰ عمر بن الخطاب، فَهَمَّ برجمها، فقال له معاذ: إِن يكُ لك عليها سبيل فليس لك علىٰ ما في بطنها سبيل، فتركها، فوضعت غلاماً بان أَنه يشبه أَباه قد خرجت ثَنِيَّتاه، فقال الرجل: هذا ابني! فقال عمر: عجزت النساء أَنْ يَلِدْنَ مثلَ معاذ، لولا معاذ لهلك عمر.

لما بعث عثمان إلىٰ عبدالله بن مسعود يأمره بالمجيء إلىٰ المدينة، اجتمع إليه الناسُ، فقالوا: أقم فلا تخرج، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيءٌ تكرهه. فقال: إِنَّ له علي طاعة، وإِنها ستكون أمور وفتنٌ لا أحب أَن أَكونَ أَولَ من فتحها. فردَّ الناس وخرج إِليه.

عن عبدالله بن عامر بن ربيعة، قال: لما طعنوا علىٰ عثمان، صلَّىٰ أبي في الليل، ودعا، فقال: اللهم قِني من الفتنة بما وَقَيتَ به الصالحين من عبادك، فما أخرج، ولا أصبح، إلاّ بجنازته.

قال حُذَيفة بنُ اليَمَان: كان الناسُ يسألونَ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخير، وكنتُ أسأَلُه عن الشر، مخافةَ أن يُدرِكَني.



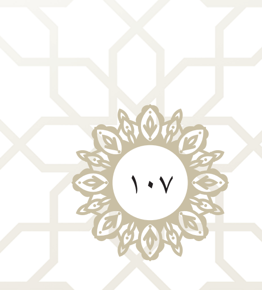


لما حُصِرَ عُثمان، أتاه زيدُ بنُ ثابت، فدخلَ عليه الدار. فقال له عثمانُ: أنت خارجَ الدار أنفعُ لي منك ها هنا؛ فذُبَّ عني. فخرج، فكان يذُبُ الناس، ويقولُ لهم فيه؛ حتىٰ رجع أُناسٌ من الأنصار. وجعلَ يقولُ: يا لَلْأَنصار، كونوا أنصاراً لله -مرتين- انصُروه -والله- إِنَّ دَمَهُ لحرام.

قال أبو هريرة لِبِنْتِه: لا تلبسي الذَّهَبَ؛ فإني أخشىٰ عليك اللهب.

كأن أبا هريرة يذهبُ إلىٰ تحريم الذَّهب علىٰ النساء أيضـًا. أو أَنَّ المرأة إذا كانت تختالُ في لُبْسِ الذهب، وتفخَر، فإنه يَحْرُم؛ كما فيمن جرَّ ثوبه خُيَلاء.

وقال فُضيل بن عياض: بلغني عن طلحة بن مصرِّف أنه ضَحِكَ يومـًا فَوَثَبَ علىٰ نفسه وقال: وَلِمَ تضحكُ، إنما يضحكُ من قطع الأهوالَ، وجازَ الصراطَ، ثم قال: آليتُ أن لا أفترَّ ضاحكـًا حتىٰ أعلمَ بم تقعُ الواقعةُ، فما رُئي ضاحكـًا حتىٰ صار إلىٰ الله.





وقد روىٰ محمد بن جعفر المدائني، عن ورقاء، قلتُ لشعبة: لم تركتَ حديث أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس ؟ قال: رأيتُه يزِنُ ويسترجِحُ في الميزان.

ابنَ وهب، عن مالك، قال: كان زياد مولىٰ ابنِ عياش يَمُرُّ، فربما أفزعني حِسه، فيضع يده بين كتفي، فيقول: عليك بالجد، فإِن كان ما يقولُ هؤلاء من الرُّخَصِ حقـًا لم يضرَّك، وإِلا كنت قد أخذتَ بالحذر.

قال سُليمان بن طَرخان: لو أَخَذْتَ برُخْصَةِ كل عالم اجتمع فيك الشرُّ كلُّهُ.

قال يَونُسُ بن عُبَيْد: ليس شيء أعزَّ من شيئين: درهم طيب، ورجل يعمل علىٰ سُنّة.

قال إبراهيمُ بنُ أَبي عَبْلة: من حمل شاذ العِلم حمل شراً كثيراً.



وعن عبدالرحمن بن عمرو الأَوزاعي قال: من أخذَ بنوادر العلماء، خرجَ من الإسلام.

كان بِشر بن منصور يُصلِّي فيطوِّل، ورجل وراءَه ينظر فَفَطِنَ له، فلما انصرف قال: لا يُعجبكَ ما رأيتَ مني، فإن إبليس قد عبد الله دهراً مع الملائكة.

كان الفُضَيل بن عِياض يقول: تركُ العملِ من أجل الناسِ رياءٌ، والعملُ من أجل الناس شِرْكٌ، والإخلاصُ أن يعافِيَكَ اللهُ عنهما.

قال المُزَنيُّ: سألتُ الشافعيَّ عن مسألة من الكلام، فقال: سَلْني عن شيءٍ، إذا أخطأتُ فيه، قلتَ: أخطأتَ، ولا تسألني عن شيءٍ إذا أخطأتُ فيه، قلتَ: كفرتَ.



قال السَّريُّ بنُ المُغَلِّس السَّقطِيُّ: حَمِدتُ الله مرةً، فأنا أستغفِرُ من ذلك الحمدِ منذُ ثلاثين سنةً. قيل: وكيفَ ذاكَ ؟ قال: كان لي دكانٌ فيه متاعٌ، فاحترق السوقُ، فلقيني رجلٌ، فقال: أبشر، دكانُك سَلِمتْ فقلتُ: الحمدُ لله، ثم فكرتُ، فرأيتُها خطيئة.

وقال الجُنَيْدُ: سمعتُ سَرِيـًا بنُ المُغَلِّس السَّقطِيَّ يقول: أشتهي منذ ثلاثين جَزَرَةً أَغمِسُها في دِبسٍ وآكلُها، فما يصحُّ لي.

وعن القِرمِيْسِينيُّ إبراهيم بن شيبان قال: مَنْ أراد أن يتعطَّل ويتبطَّل، فليلزمِ الرُّخَص.

ومن محاسِن ابنُ نُجَيْد إسماعيل بن نجيد أنّ شيخَه الزَّاهد أبا عثمانَ الحِيْريَّ طلبَ في مجلسه مالاً لبعضِ الثُّغور، فتأخر، فتألَّم وبكىٰ علىٰ رؤوس الناس، فجاءه ابن نُجِيد بألفَيْ دِرْهم، فدعا له، ثمَّ إنَّه نوَّه به، وقال: قد رجوتُ لأبي عَمْرٍو بما فعل، فإنَّه قد ناب عن الجماعة، وحمل كذا وكذا، فقام ابنُ نُجيد، وقال: لكنْ إنَّما حملتُ من مالِ أُمّي وهي كارهة، فينبغي أن تردَّه لترضىٰ. فأمر أبو عثمان بالكِيسِ فردَّ إليه، فما جَنّ الليلُ جاء بالكيس، والتمس



من الشيخ سترَ ذلك، فَبَكىٰ، وكان بعد ذلك يقول: أنا أَخشىٰ من همَّة أبي عَمْرو.

قال أبو عبدالرحمن السُّلمي، جدِّي له طريقةٌ ينفرد بها من صون الحال وتلبيسه، سمعتُه يقول: كلُّ حالٍ لا يكون نتيجةِ علمٍ وإن جلَّ، فإنَّ ضررَهُ علىٰ صاحبه أكبرُ من نَفْعه.

ومن كلام أبو إسحاق الإِسْفَراييني إبراهيم بن محمد قال: القولُ بأنَّ كُلَّ مجتهدٍ مصيبٌ أولُهُ سَفْسَطةٌ وآخره زَنْدَقة.

كان الزَّاز عبدالرحمن بن أحمد مِن أَئمة الدّين، ثخينَ الوَرَع، محتاطًا في القوت، بحيثُ إنه تَرك أكل الرُّزِّ، لأنه لا يَزرعه إلا الجند (وقيل لأنه يحتاج إذا زرع إلىٰ ماء كثير، وصاحبه قلّ ألا يظلم غيره في سقي الماء).



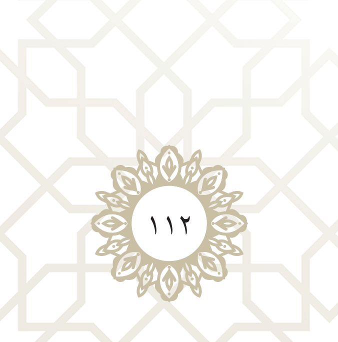
من كلام أميرُ المؤمنين الراشد بالله منصور بن الفضل: إنَّا نكْرَهُ الفِتَنَ إشفاقًا علىٰ الرَّعية، ونُؤثِرُ العدلَ والأمنَ في البرية، ويأبىٰ المقدورُ إلا تَصَعُّب الأمورِ، واختلاطُ الجمهور، فنسأل الله العون علىٰ لمِّ شَعَثِ النَّاسِ بإطْفَاءِ نَائِرَةِ البَأسِ.



قال ابنُ الجوزي: كان الزَّبِيْديُّ أبو عبدالله محمد بن يحيىٰ يقولُ الحقَّ وإن كان مُرّاً، لا تأخُذُهُ في الله لومة لائم، قيل: دخل علىٰ الوزيرِ الزَّينبيِّ وعليه خِلْعَةُ الوزارة، وهم يُهَنِّئُونه، فقال: هو ذا يومُ عَزَاءٍ، لا يومُ هَنَاء، فقيل: ولم ؟ قال: أُهَنِّئ علىٰ لبس الحرير ؟!



قال أبوشامة: أخبرنا السخاويُّ: أنَّ سَبَبَ انتقالِ الشاطبيِّ من بلدِهِ أنَّهُ أُرِيدَ علىٰ الخطابةِ، فاحتجَّ بالحجِّ، وتركَ بلدَهُ، ولم يَعُدْ إليه تورُّعـًا مما كانوا يُلْزِمونَ الخطباءَ من ذكرهم الأمراء بأوصافٍ لم يَرَها سائغةً، وصبرَ علىٰ فقرٍ شديدٍ.





قال سبط الجوزيّ: كان الأشرف موسىٰ شاه أرمن بن العادل يحضر مجالسي بحَرّان، وبخِلاط، ودِمشق، وكان ملكـًا عَفِيفـًا، قال لي: ما مددت عيني إلىٰ حريم أحد ولا ذكر ولا أنثىٰ، جاءتني عجوز من عند بنت صاحب خلاط شاه أرمن بأن الحاجب عليّ أخذ لها ضيعة فكتبتُ بإطلاقها فقالت العجوز: تريد أن تحضر بين يديك. فقلت: باسم الله، فجاءت بها فلم أرَ أحسنَ من قوامها ولا أحسن من شكلها فَخَدَمَت فقُمتُ لها، وقلت: أنت في هذا البلد وأنا لا أدري ؟ فسفرت عن وجه أضاءت منه الغُرفة، فقلت: لا، استتري. فقالت: مات أبي واستولىٰ علىٰ المدينة بكتمر، ثم أخذ الحاجب قريتي، وبقيت أعيش من عَمل النَّقش وفي دار بالكِراء. فبكيتُ لها، وأمرتُ لها بدار وقِماش، فقالت العجوز: يا خَوَند ألا تحظَىٰ الليلة بك ؟ فوقع في قلبي تغير الزمان وأن خِلاط يملكها غيري، وتحتاج بنتي أن تقعد هذه القَعْدَة، فقلت: معاذَ الله ما هذا من شيمتي. فقامت الشابةُ باكية تقول: صان الله عواقِبَكَ.

كتب الأشرف موسىٰ شاه أرمن بن العادل: يا عز الدين الفتنة ساكنة لعن الله مُثِيرَها، وأما بابُ السلامة فكما قيل:

وجُـرْم جَـرَّهُ سُـفهاءُ قـومٍ   فَحَـلَّ بغـيرِ جَانِيـهِ العَذابُ





غرائب

قال معاوية: كنت فيمن حضر خُبَيْب بن عدي، فلقد رأيت أَبا سفيان يلقيني إِلىٰ الأرض، فَرَقًا مِن دعوته. وكانُوا يقولون (أي أهل الجاهلية، وهو من خرافاتهم): إِن الرجل إذا دُعي عليه فاضطجع، زلَّت عنه الدعوة.

كان أبوطلحة الأنصاري لا يرىٰ بابتلاع البَرَدِ للصائم بأسًا. ويقولُ: ليس بطعامٍ ولا شراب.

كان يكونُ للعبَّاس (عم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الحاجةُ إلىٰ غِلمانه وهم بالغابة، فيقفُ علىٰ سَلْعٍ، وذلك في آخر الليل، فيُناديهم فيُسمِعُهُم. والغابةُ نحو من تسعة أميال.

وكان سُلَيْمَان بن عبدالملك من الأَكَلَة، حتىٰ قيل: إنه أكل مرَّة أربعين دجاجة، وقيل: أكل مرَّة خروفًا وستَّ دجاجات، وسبعين رُمَّانة، ثم أُتي بمكوكِ زبيب طائفي فأكله. (المكوك: مكيال يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد، يقال: إنه يسع صاعًا ونصفًا).



مكث محمد بن عَجلان في بطن أمه ثلاث سنين، فَشُقَّ بطنها، فأُخرج منه وقد نبتت أسنانُه.

كان الخَلِيْل بن أحمد الفراهيدي يعرف علم الإيقاع والنَّغم، ففَتح له ذلك علمَ العروض. وقيل: مر بالصَّفارين (النحاسين)، فأخذه من وقع مِطرقة علىٰ طَسْت.

مَيْسَرَةُ الترَّاس أكول، قال الأصمعي: قال لي الرشيد: كم أكثر ما أكل مَيسرة ؟ قلت: مئة رغيف، ونصف مكُّوك مِلْح، فأمر الرشيدُ، فَطُرِح للفيل مئةُ رغيف، ففضَّل منها رغيفاً. وقيل: نذرت امرأةٌ أن تُشبعه، فرفق بها، وأكل ما يكفي سبعين رجلاً.

حفر بِشر بن منصور قبره، وختم فيه القرآنَ، وكان وردُه ثلثَ القرآن. وكان ضَيغمُ صديقاً له، فتوفيا في يوم.



مر عَبدالله بن المبارك برجل أعمىٰ، فقال له: أسألُك أن تدعو لي أن يرد الله عليَّ بصري، فدعا الله، فردَّ عليه بصرهَ، وأنا أنظر.

كان الفُضيل بن عياض شاطراً يقطعُ الطريق بين أَبِيوَرد وسَرخس، وكان سببُ توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدرانَ إليها، إذ سمع تاليًا يتلو ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ ...﴾[الحديد:١٦] فلَما سَمِعَها، قال: بلىٰ يا رب، قد آن، فرجع، فآواه الليلُ إلىٰ خَرِبة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضُهم: نرحل، وقال بعضهم: حتىٰ نصبح فإِن فُضَيلاً علىٰ الطريق يقطعُ علينا. قال: ففكرتُ، وقلت: أنا أسعىٰ بالليل في المعاصي، وقومٌ من المسلمين ها هنا، يخافوني، وما أرىٰ الله ساقني إليهم إلا لأرتدعَ، اللهمَّ إني قد تبتُ إليك. وجعلتُ توبتي مُجاورةَ البيت الحرام.

قال الخطيب: مات علي بن الفُضَيل بن عِياض قبل أبيه بمدة من آية سمعها تُقرأ، فغُشي عليه، وتوفي في الحال.

قال سُفيان بن عُيَيْنة: ما كتبتُ شيئًا إلا حفظته قبل أن أكتبَه.



ويُروىٰ أن سُفيان بن عُيَيْنة كان يقول في كل موقف: اللهم لا تجعلْهُ آخِرَ العهدِ منك، فلما كان العام الذي مات فيه لم يَقُلْ شيئًا. وقال: قد استحييتُ مِن الله تعالىٰ.

كان في سِكَّة أبي بكر بن عياش كَلْبٌ، إذا رأىٰ صاحب مِحبرة حمل عليه، فأطعمه أصحابُ الحديث شيئًا فقتلوه، فخرج أبوبكر، فلما رآه ميتًا، قال: إنَّا لله، ذهب الذي كان يأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر.

وقيل: إن أبا معَاوِيَة الضرير ذهب بصرُه، فكان إذا أراد التِّلاوةَ في المصحف، أَبصرَ بإذن الله.

قال منصورُ بنُ عمَّار: لما قدمتُ مِصرَ، كانوا في قَحطٍ، فلما صلَّوا الجمعةَ، ضَجُّوا بالبُكاء والدُّعاء، فحضرتنِي نِيَّةٌ، فصِرتُ إلىٰ الصَّحنِ، وقلتُ: يا قوم، تَقَرَّبُوا إلىٰ الله بالصَّدَقة، فما تُقرِّبَ بِمثلها، ثم رَمَيْتُ بكِسَائي. فقال: هذا جهدي فتصدَّقُوا، حتىٰ جعلت المرأة تُلقي خُرصَها حتىٰ فَاضَ الكِسَاء، ثم هَطلت السَّماءُ، وخرجوا في الطِّين، فدفعتُ إلىٰ اللَّيث وابن لَهيعة، فنظرا إلىٰ كثرة المال، فوكَّلُوا به الثقات ورحتُ أنا إلىٰ الإسكندرية، فبينا أنا أطوفُ





علىٰ حِصنِها، إذا رجلٌ يرمُقُنِي. قلت: مالَكَ ؟ قال: أنتَ المتكلِّمُ يومَ الجمعة ؟ قلت: نعم. قال: صِرتَ فتنة، قالوا: إنّكَ الخَضِر، دَعَا فأُجِيبَ. قلتُ: بل أنا العبدُ الخاطئ، فقدِمتُ مصرَ، فأقطعني اللَّيثُ خمسةَ عشَرَ فَدَّانـًا.

وقال أبوسعيد الأَشَجُّ: كنتُ عند وَكيع بن الجرَّاح فجاءَهُ رجلٌ يدعوهُ إلىٰ عُرْسٍ، فقال: أَثَمَّ نبيذٌ ؟ قال: لا. قال: لا نحضُر عُرسـًا ليس فيه نبيذٌ، قال: فإنّي آتيكُم به. فقام.

كان أَحمَدُ بنُ حَرب النيسابوري إذا جلس بين يدي الحَجَّام لِيُحفيَ شاربه، يسبّح، فيقول له الحجام: اسكت ساعة، فيقول: اعمل أنت عملك، وربما قطع من شفته، وهو لا يعلم.

قال علي بن أبي فَزَارَة: كانت أمي مقعدةً من نحو عشرين سنة. فقالت لي يومـًا: اذهب إلىٰ أحمد بن حنبل، فَسَلْهُ أن يدعوَ لي، فأتيتُ، فدققت عليه وهو في دِهليزه، فقال: من هذا ؟ قلتُ: رجل سألتني أمي وهي مُقعدةٌ أن أسأَلك الدعاء. فسمعت كلامه كلام رجل مغضَب. فقال: نحن أحوجُ أن تدعوَ اللَه لنا، فولَّيْت منصرفـًا. فخرجتْ عجوز، فقالت: قد تركته يدعو لها. فجئتُ إلىٰ بيتنا ودَقَقْتُ الباب، فخرجت أمي علىٰ رجليها تمشي.





قال عُبيد بن يَعيش: أقمتُ ثلاثين سنة، ما أكلتُ بيدي بالليل. كانت أُختي تلقمني، وأنا أكتب.

وعن إبراهيم بن إسحاق الحَربي قال: ما انتفعتُ من علمي قَطُّ إلَّا بنصفِ حَبَّةٍ، وقفتُ علىٰ إنسانٍ، فدفعتُ إليه قطعةً أشتري حاجةً، فأصابَ فيها دانقًا، إلَّا نصفَ حبَّةٍ، فَسَألني عن مسألةٍ، فأجبتُه، ثُمَّ قال للغُلام: أعطِ أبا إسحاق بدانقٍ، ولا تَحُطَّه بنصف حبةٍ.

المعْتَضِد انتخىٰ لله، وقَتَلَ السَّرْخَسي لفلسفته وخُبْثِ مُعتقده. ويقال: إنَّه قال له: لك سالف خِدَم، فكيفَ تَختارُ أنْ نَقْتُلك. فاختارَ أن يُطعَم كبابَ اللَّحم، وأن يُسقىٰ خَمْراً كثيراً حتىٰ يَسْكر، ويُفْصَد في يديه، ففعل به ذلك، فصفي من الدَّم، وبقيت فيه حَياة، وغلبت عليه الصَّفْراء، وجُنَّ، وصَاح، وبقيَ ينطَحُ الحائطَ لفرط الآلام، ويعدو كثيراً حتىٰ ماتَ.

حُكي أنَّ أبا الآذان عمر بن إبراهيم البغدادي طالت خُصومَةٌ بينَه وبينَ يهودي أو غيره، فقال له: أدخِل يَدَكَ ويدي في النَّار، فَمَن كان مُحِقًّا لم تحترقْ يدُه، فذُكِر أنَّ يَدَهُ لم تحترقْ، وأنَّ يَدَ اليهوديِّ احترقت.





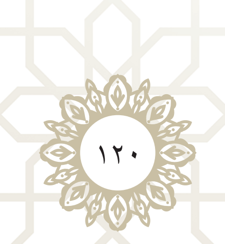
كان النَّسَائيّ نضِرَ الوجه مع كِبَر السِّن، يؤثرُ لباسَ البُرُود النوبيَّة والخضر، ويكثرُ الاستمتاع، له أربعُ زوجات، فكان يَقْسِم لهنّ، ولا يخلو مع ذلك من سُرِّيَّة، وكان يُكْثِرُ أكلَ الدّيوك، تُشترىٰ له وتسمَّن وتُخصىٰ.

حَمزَةُ بنُ مُحَمَّد بن عيسىٰ الجرجاني، الشَّيْخُ المعَمَّر، أبو عليٍّ الجُرجَانيُّ ثمَّ البغداديّ، الكاتب، لم يكن محدِّثًا، وإنَّما حُبِسَ في شَأْنِ التصَرُّف، فصادَفَ في الحَبْسِ الحافظَ نُعَيم بن حمّاد، فأملَىٰ عليه جُزءاً واحداً، وهو جزءٌ عالٍ طَبَرْزديّ، يعرفُ بنُسْخَةِ نعيمِ بن حمّاد.

كان أبو زُرعَةَ القَاضِي يَرقي من وَجَع الضِّرس، ويُعطي الموجوعَ حَشِيْشةً توضَعُ عليه فَيسكن.

كان أبو زُرعَةَ القَاضِي من الأكَلَة: يأكُلُ سَلَّ مِشْمِشٍ وسَلَّ تِيْن.

قال ابْنُ الجَلاَّء أحمد بن يحيىٰ: قلتُ لأبويّ: أحبُّ أنْ تَهَباني لله. قالا: قد فَعَلْنا. فغِبْتُ عنهم مدَّة، ثمَّ جئتُ فدققتُ الباب، فقال أبي: مَنْ ذا ؟ قلتُ: ولدُك، قال: قد كان لي ولدٌ وَهَبْناهُ لله. وما فتحَ لي.





يروىٰ أنَّه كان لرجلٍ علىٰ آخر دين مئة دينار، فطلب الرجلُ الوثيقةَ، فلم يجدها، فجاء إلىٰ بُنان الحَمَّال ليدعو له، فقال: أنا رجلٌ قد كَبِرْت، وأُحِبُّ الحَلواءَ، اذهب اشترِ لي من عند دار فرج رطلَ حلواء حتىٰ أدعوَ لك. ففعل الرَّجلُ وجاء، فقال بُنان: افتح ورقة الحَلواء، ففتح، فإذا هي الوثيقة، فقال: هي وَثِيْقَتِي. قال: خُذْها، وأَطعمِ الحلواءَ صِبْيَانَك.

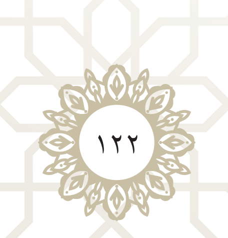
في سنة اثنين وستين، حصل قحط، وأكل المصريين بعضهم بعضاً، وتمزَّقُوا في البلاد من الجوع، وتمحَّقَتْ خزائنُ المُستَنصر بالله معد بن مَعَدٍّ، وافتقرَ، وتعثَّر. وفي هذه النوبة نقل صاحب «المرآة»، أن امرأة خَرَجَتْ وبيدها مُدُّ لؤلؤ لتشتريَ به مُدُّ قمح، فلم يلتفتْ إليها أحدٌ، فرمته فما كان له مَنْ يَلْتَقِطُه. وقال ابنُ الأثير: اشْتَدَّ الغلاءُ حتىٰ حُكِيَ أن امرأةً أكلتْ رغيفاً بألفِ دينارٍ، باعت عروضاً تساوي ألفَ دينار بثلاث مئة دينار، فاشترتْ بها جُوالِق (وعاء من صوف أو غيره، جمعه: جوالق -بفتح الجيم، وهو عند العامة شوال) قمح، فانْتَهَبَهُ النَّاسُ، فَنَهَبَتْ هي منه فَحَصَلَ لها ما خُبزَ رَغِيفاً.





قال ابنُ خَلِّكان: أخبرني عالمٌ أن العاضِدَ عبدالله بن يوسف رأىٰ في نومه كأَنَّ عقربـًا خَرَجَتْ إليه من مسجد عُرِفَ بها فَلَدَغَتْه، فلما استيقظَ طَلب مُعبِّراً، فقال: ينالُك مكروه من رجلٍ مقيمٍ بالمسجد، فسأل عن المسجدِ، وقال للوالي عنه، فأُتي بفقيرٍ، فسألهَ من أينَ هُوَ ؟ وفيما قَدِمَ، فرأَىٰ منه صِدْقـًا وديناً. فقال: ادعُ لنا يا شيخ، وخلَّىٰ سبيلَه، وَرَجَعَ إلىٰ المسجد، فَلَمَّا غَلَبَ صلاحُ الدِّين علىٰ مِصْرَ، عَزَمَ علىٰ خَلْعِ العاضدِ، فقال ابنُ خَلِّكان: استفتىٰ الفقهاء، فأفتوا بجواز خَلْعِهِ لِمَا هُوَ من انحلالِ العقيدةِ والاستِهْتَارِ، فكان أكثرهم مبالغةً في الفُتْيَا ذَاك، وهو الشيخُ نجم الدينِ الخُبُوشانيُّ، فإنه عدَّد مساوئ هؤلاء، وسَلَب عنهم الإيمان.

قال المحدِّث أبوسهل القَطّان: كُنْتُ مع الوَزِير علي بن عيسىٰ لمَّا نُفِيَ بمكَّةَ فدخلنا في حَرٍّ شديد وقد كِدْنا نتلف، فطافَ يَوْمـًا، وجاءَ فرمىٰ بنفسِهِ، وقال: أشتهي علىٰ الله شربَةَ ماءٍ مثلوج. قال: فَنَشَأَتْ بعد ساعةٍ سحابةٌ وَرَعَدَتْ، وجاء بَرَد كثيرٌ جمع منه الغِلْمَانُ جِراراً. وكان الوزيرُ صائمـًا، فلمَّا كان الإِفْطَارُ جِئْتُه بأقداحٍ من أصنافِ الأَسْوقة فأقبل يسقي المجاورينَ، ثم شَرِبَ وَحَمِدَ اللهَ، وقال: ليتني تمنَّيْتُ المغفرة.





قال ابن هلال: حدثنا جعفر بنُ محمدِ بنِ حَمَّاد، حدثنا عبدالله بنُ صالح، حدثنا موسىٰ بنُ علي، عن أبيه، أن أعمَىٰ كان له قَائِدٌ بَصيرٌ، فَغَفَلَ البصيرُ، فَوَقَعَا في بئرٍ، فماتَ البصيرُ، وسَلِمَ الأعمىٰ. فجَعَل عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دِيَتَه علىٰ عاقِلَة الأعمىٰ.

قيل: إنَّ ابنَ مُجَاهد، قال للشِّبْلِيِّ دلف بن جحدر: أين في العلم إفساد ما ينفع -ذلك لأنه كان من شأن الشبلي إذا لبس شيئاً خَرَّق فيه موضعاً-، قال: قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾[ص:٣٣].

قال الأَزْهَرِيُّ أنَّه يحضُرُ مجلس المِصرِيُّ علي بن محمد رجالٌ ونساءٌ، فكان يجعَلُ علىٰ وجهِهِ بُرْقُعاً خوفاً أن يَفتَتِن به النَّاس من حُسن وَجْهه.

قيل: إنَّ الفَارَابي محمد بن محمد بن طرخان دَخَلَ علىٰ الملك سيفِ الدَّولة بنِ حمدان وهو بزيِّ التُّرك. وكان فيما يقال: يَعرفُ سَبعينَ لساناً، وكان والده من أُمراء الأتراك، فَجَلَس في صَدر المجلس، وأخذ يُناظر العلماءَ في فنونٍ. فعلا كلامُه، وبان فَضلُه، وأنصتوا له. ثم إذا هو أبرعُ مَنْ يضربُ بالعود، فأخرج عُوداً من مثل الكيس، وشدَّه، ولَعِبَ به، ففَرِحَ كلُّ أهلِ المجلس،





وضحكوا من الطَّرب. ثم غيَّر الضَّرْب، فنامَ كلُّ من هناك حتىٰ البَّواب فيما قيل. فقَام وذَهَبَ. ويقال: إِنَّه هو أوَّل من اخترع القَانُون.

قال عبدالرحمن بن أبي إسحاق المُزَكِّي: سمعتُ أبا بكر بنَ داود الزَّاهد، يقول: كنتُ بالبَصْرة أيامَ القَحْط. فلم آكلْ في أربعين يومـاً إلَّا رغيفـاً واحداً، كنت إذا جُعتُ، قرأت (يس) علىٰ نية الشِّبَع، فكفاني اللهُ الجوع.

ابنُ الحَجَّام عبدالله بن أبي هاشم شاخ وعُمِّر. فقيل: إنَّه تَدَفَّأ بنارٍ، فاحترق لَمَّا نَعَسَ في سنةِ ستٍ وأربعين وثلاث مئة.

قيل: إنَّ أبا وهب عَبَّاسي، وكان لا ينْتَسِبُ، وكان صاحِبَ عُزْلَة، باع ماعُونَه قبل موته. فقيل: ما هذا ؟ قال: أريد سفَراً، فماتَ بَعْدَ أيامٍ يسيرة.

ومما نُقل عن وَهبُ بنُ مَسَرَّة، أنَّه كان يقول: ليستِ الجَنَّةُ التي أُخرج منها أبونا آدم بجنة الخُلْد، بل جنةٌ في الأرض.





جال ابنُ الأحمر ووَصَلَ إلىٰ الهند تاجراً، وكان يقول: رجعتُ من الهند، وأنا أقدر علىٰ ثلاثين ألف دينار، ثمَّ غرقتُ وما نَجَوْتُ إلا سباحةً لا شيء معي، ثمَّ رجع إلىٰ الأندلس، وجلبَ إليها «السنن الكبير» للنَّسائي، وحمل الناسُ عنه.



المتَّقي لله ماتَ في السِّجن في شعبانَ سنةَ سبعٍ وخمسين، وبقيَ في السِّجن أربعـًا وخمسينَ سنَةً.

قال أبو نصر السّراج: حكىٰ أبوبكر الدُّقِّيُّ، قال: كنتُ بالبادية، فوافيتُ قبيلةً، فأَضافَني رجل، فرأيتُ غلامـًا أسودَ مقيَّدًا، ورأيتُ جمالاً ستَّة، فقال الغلام: اشفَع لي، قلت: لا آكلُ حتَّىٰ تحلَّه، قال: إنَّه أَفقرني، قلت: ما فعل ؟ قال: له صوتٌ طيِّبٌ، فحدا لهذه الجمال وهي مثقلة، حتىٰ قطعتْ مسيرة ثلاثةِ أيّام في يوم، فلمَّا حطّ عنها ماتت كلُّها. ولكن قد وهبتُه لك، فلمّا أصبحت أحببتُ أن أسمَع صوتَه، فسألتُه، وكان هناك جمل يُستقىٰ عليه، فحدا، فهامَ الجملُ علىٰ وجهِه، وقطع حبالَهُ، ولم أظنَّ أنِّي سمعتُ أطيبَ من صَوْته، ووقعتُ لوجهي.





كان عزُّ الدَّوْلَة بختيار بن أحمد بن بويه، شديد البأسِ، يُمسك ثوراً بقَرْنيه، فيصرعه.

كان عضد الدولة إذا أراد الإيقاع بين الملوك أمر الأَحْدَبُ الكَاتِب أن يكتب علىٰ خط بعضهم إليه في الموافقة علىٰ من يريد إفساد الحال بينهما، ثم يتوصل ليصل المكتوب إليه، فيفسد الحال.

قال المُسبِّحي: لما غُسل ابنُ حِنزَابة جعفر بن الفضل جُعل فيه ثلاثُ شعراتٍ من شَعر النبي ﷺ كان أخذها بمالٍ عظيم.

قال ابنُ حَيَّان: تُوفي الفقيهُ الحافظُ المُشاوَرُ، المستبحِرُ الراوية، البعيدُ الأثر، الطويلُ الهجرةِ في طلب العلم، الناسكُ المُتقشِّفُ، أبوعبدالله بنُ الفَخَّار بمدينةِ بَلَنْسِيَة في عاشر ربيع الأول سنة تسع عشر وأربع مئة. فكان الحفلُ في جنازتِهِ عظيماً. وعاين الناسُ فيها آيةً من طيورٍ شبهِ الخُطَّافِ -وما هي بها- تخلَّلتِ الجمعَ رافَّةً فوقَ النعشِ، جانحةً إليه، مُشفَّةً إليه، لم تُفارق نعشَهُ إلىٰ أن وُوري، فتفرَّقَت، وتحدث الناسُ بذلك وقتاً. مكث مدة ببَلَنْسِيَة مُطاعاً، عظيمَ القَدر عند السُّلطان والعامّة، وكان ذا منزلةٍ عظيمةٍ في الفقهِ والنُّسك، صاحبَ أنباء بديعة.



نُفِّذ الزَّيْدي علي بن محمد رسولاً إلىٰ ملكِ الروم، فلما جلس، غنّت النصارىٰ، وحرّكوا الأرغلَ، فثبتَ الزَّيْديُّ عند سماعه، وتعجَّبُوا من ثَباتِه كثيراً، فلما قام، وجدوا تحتَ كعبه الدَّمَ مما ثَبَّت نفسَه، ولم يتحرَّك.

وزر أبوعبدالله عبدالرحيم بن حسين المُلَقَّبُ بالعادل للملكِ الرحيم أبي نصر بنِ أبي كاليجار، وتنمّر له أبونصر، فأهلَكَه؛ طلبه إلىٰ داره وقد حفر له جُبّاً، وبسَطَ عليه حَصيرةً، فتردّىٰ فيه، وطُمَّ عليه.

قال أبو عُمر الطَّلَمَنْكي: دخلتُ مُرسِية، فتشبَّثَ بي أهلُها ليسمعوا علي «غريب المُصَنَّف»، فقلت: انظروا من يقرأُ لكم، وأُمْسِكُ أنا كتابي، فأَتوني بإنسانٍ أعمىٰ يُعْرف بابن سِيْده، فقرَأه عليَّ كُلَّه، فعجبتُ من حِفظه. قال: وكان أعمىٰ ابنَ أعمىٰ.

قال أبو القاسم عبدُ الله بن علي؛ أخو نظام الملك: كان أبو الحسن الداوودي لا تَسكن شَفتُه من ذِكر الله، فحُكي أن مُزيِّناً أراد قصَّ شاربه، فقال: سَكِّنْ شَفتيك. قال: قل للزمان حتىٰ يسكن.





وقال المُؤيّد في «تاريخه»: أُهدِيَ للشيخ أبي القاسم القُشيْري فَرَسٌ، فركبه نحواً من عشرين سنة، فلما مات الشيخ لم يَأْكُلِ الفَرسُ شيئًا، ومات بعد أُسبوع.

كان الكَتّاني أبو محمد عبدالعزيز بن أحمد الدمشقي، مُديمًا للتلاوة، مُكِبًّا علىٰ طلب الحديث، وقد اشتاق أبوه إليه، وسافر خلفَه إلىٰ بغداد، فوجده قد طبخ رُزّاً بلحم، فقرَّبه إليه، فقال: يا بني ! قد عرفتَ عادتي –وكان قد هجر أكل الرز خَشية أن يبتلعَ فيه عَظمًا فيَقْتُلَه– فقال: كُل، لا يكونُ إلا الخير. فأكَلَ، فابتلع عظمًا، فمات. رواها ابن عساكر، عن جمال الإِسلام، عن ابن أبي العلاء، أو عن الكتاني.

قال أبوسعد السمعاني: قال لي شيخٌ: كان جدُّك أبو المظفر عزم علىٰ المُجاورة في صحبة سعدٍ الزَّنْجَاني الإمام، فرأىٰ والدتَه كأنَّما كَشفتْ رأسَها تقولُ: يا بني، بحقِّي عليك ما رجعتَ إليَّ، فإني لا أُطيقُ فِرَاقَكَ. قال: فانتبهتُ مغمومًا، وقلتُ: أُشاور الشيخ، فأتيتُ سَعداً، ولم أقدر من الزحام أن أُكلِّمه، فلما قام تَبِعتُه، فالتفتَ إليّ، وقال: يا أبا المظفر، العجوزُ تَنتظرُكَ. ودخَلَ بيتَه، فَعلمتُ أنه كاشَفَني، فرجعتُ تلك السنة.



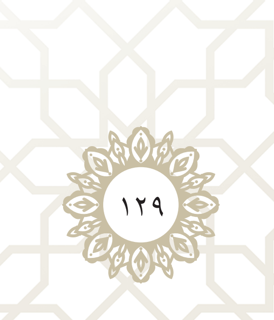


قال ابنُ طاهر: دخلتُ علىٰ الزَّنْجَاني أبو القاسم سعد بن علي، وأنا ضَيِّقُ الصدرِ من شيرازيٍّ، فقال لي من غير أن أُعْلِمَه: لا تُضيِّق صدرك، في بلادنا يقالُ: بُخْلُ أهوازيٍّ، وحَماقَةُ شِيرازيٍّ، وكَثْرةُ كلام رازيٍّ. وأتيتُه وقد عزمتُ علىٰ الخروج إلىٰ العراق، فقال:

أَرَاحِلُونَ فَنَبْكِي أَمْ مُقِيمُونَا ؟

فقلتُ: ما يأمُرُ الشيخ ؟ فقال: تَدخُل خراسان، وتفوتُك مِصر، فيبقىٰ في قلبكَ منها. اخرج إلىٰ مصر، ثم منها إلىٰ العراق وخراسان، فإنه لا يفوتُك شيء. فكان في رأيه البركة. وسمعتُه وجرىٰ بين يديه «صحيح» أبي ذر، فقال: فيه عن أبي مُسلم الكاتب، وليس من شرط «الصحيح».

وعن أبي الفتيان الرَّوَّاسي عمر بن عبدالكريم قال: أُرِيدُ أن أخرج إلىٰ مَرْوَ وسَرْخَسَ علىٰ الطريق، وقد قيل: إنها مقبرة العلماء، فلا أدري كيف يكون حالي بها؛ فمات بها.

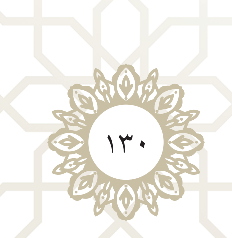




وقال أبو المظفر سِبطُ ابن الجوزي: حكىٰ ابنُ عَقيل علي بن عقيل عن نفسه قال: حججتُ، فالتقطتُ عقد لؤلؤٍ في خيط أحمرَ، فإذا شيخٌ أعمىٰ ينشُدُه، ويبذُلُ لملتقطه مئة دينار، فرددتُه عليه، فقال: خُذِ الدنانيرَ، فامتنعتُ، وخرجتُ إلىٰ الشَّامِ، وزُرْتُ القُدْس، وقصدتُ بغدادَ، فأويتُ بحلبَ إلىٰ مسجد وأنا بردانُ جائع، فقدَّموني، فصليتُ بهم، فأطعموني، وكان أوَّلَ رمضان، فقالوا: إمامُنا تُوفي فَصلِّ بنا هذا الشهرَ، ففعلتُ، فقالوا: لإمامنا بنتٌ، فزُوِّجتُ بها، فأقمتُ معها سنة، وأولدتُها ولداً ذكراً، فَمَرِضَتْ في نفاسها، فتأملتُها يومـًا فإذا في عُنُقِها العقدُ بعينه بخيطه الأحمر، فقلتُ لها: لهذا قصة، وحكيتُ لها، فبكت، وقالت: أنتَ هُوَ واللهِ، لقد كان أبي يبكي، ويقول: اللَّهُمَّ ارزُقْ بنتي مثل الذي رد العقدَ عليَّ، وقد استجاب اللهُ منه، ثم ماتت، فأخذتُ العِقدَ والميراثَ، وعُدْتُ إلىٰ بغداد.



ابن أبي رَوْح أسعد بن أحمد، أخذ عن ابن البراج، وسكن صيدا إلىٰ أن أخذتها الفرنجُ، فَقُتِلَ بها، وكان ذا تعبُّد وتهجُّد وصمتٍ، ناظرَ مَغرِبيـًا في تحريم الفقاع، فقطعه، فقال المغربيُّ المالكي: كُلني ؟! قال: ما أنا علىٰ مذهِبك، أي: جوازِ أكلِ الكلب.

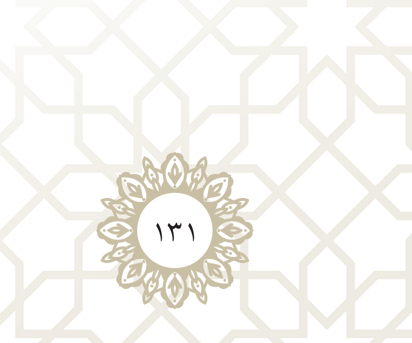




سُئِلَ ابنُ الفَتَىٰ الحسن بن سلمان: ما علامةُ قبول صومِ رمضانَ ؟ قال: أن يموتَ في شَوَّال قبل التلبُّسِ برديءِ الأعمال، فمات في سادس شوال سنةَ خمس وعشرين وخمس مئة.

قال ابن عطاءُ بن أبي سَعد: وقُدِّم أبي بأصبَهان ليُصْلَب بعد أن حبسُوه مُدةً، فقال له الجلاَّدُ: صلِّ ركعتين. قال: ليس ذا وقتَ صلاةٍ، اشتغلْ بما أُمرتَ به، فإنّي سمعتُ شيخي يقول: إذا علَّقْتَ الشعيرَ علىٰ الدَّابةِ في أسفل العَقَبةِ، لا تُوصِلُكَ في الحالِ إلىٰ أعلاها، الصلاةُ نافعةٌ في الرخاء لا في حالةِ البأس. فوصلَ مسرعٌ من السُّلطان ومعه الخاتمُ بتسريحه، كانت الخاتون مَعنيَّةً في حقّه، فلما أُطلِقَ، رجعَ إلىٰ التظلُّم والتشنيع.

قال السمعاني: ومن العجب أن ابن فُطَيْمَة أبو عبدالله الحسين بن أحمد الشافعي، قُطِعَتْ أصابعُه بِكَرْمان من عِلَّة، فكان يأخُذُ القلمَ، ويتركُ الورقَ تحت رجلِهِ، ويُمسِكُ القلم بكفَّيه، فيكتُب خطـًا مليحـًا سريعـًا.





ذكر السَّمعاني أن سَعْدُ الخَيْر أبو الحسن بن محمد بن سهل الأندلسي التاجر حُمِلَ إلىٰ قاضي المرستان يسيرَ عُودٍ، فدفعهُ إلىٰ جاريةِ القاضي، فلم تُعرِّفه به لِقِلَّتِهِ. قال: فجاء، وقال: يا سيِّدنا، وصلَ العُود ؟ قال: لا. قال: دفعتُهُ إلىٰ الجارية، فسألَهَا عنه، فاعتلَّت بِقِلَّتِهِ، وأحضرتْهُ، فرماه القاضي، وقال: لا حاجةَ لنا فيه. ثم إنَّ سعدَ الخير طَلَبَ منه أن يُسمِّع ولدَهُ جابراً جُزءَ الأنصاريِّ، فَحَلَفَ أن لا يُحدِّثَه به إلا بخمسةِ أَمْناءٍ عوداً، فبقي يُلِحُّ علىٰ القاضي أن يُكفِّر يمينَهُ، فَمَا فَعَلَ، وَلا هُوَ حَمَلَ شَيئًا.



روىٰ ابنُ عساكر عن الفندَلاوي أبو الحجاج يوسف بن دوناس، وقال: كان حسنَ المُفاكهة، حُلو المُحاضرة، شديدَ التعصُّب لمذهب أهل السُّنَّة، كريمًا، مُطَّرِحًا للتكلف، قويَّ القلب، سمعتُ أبا تراب بنَ قيسٍ يذكرُ أنه كان يعتقِدُ اعتقاد الحَشَوية، ويُبغض الفندلاوي لردِّه عليهم، وأنه خرجَ إلىٰ الحجِّ، وأُسِرَ، وأُلقي في جُبٍّ، وغُطِّي بصخرةٍ، وبقي كذلك مدةً يُلقي إليه ما يأكُل، وأنه أحسَّ ليلةً بحسٍّ يقولُ: ناولني يَدكَ. فناوله، فأخرجه. قال: فإذا هو الفندلاوي، فقال: تُب مما كنت عليه. فتاب.





ابن الحُطَيْئة أبو العباس أحمد بن عبدالله، كان يعيشُ من الوراقة، وعلَّم زوجتَه وبنتَه الكتابة، فكتبتا مثلَه، فكان يأخُذُ الكتابَ ويقسِمه بينه وبينهما، فينسخُ كُلٌّ منهما طائفةً من الكتاب، فلا يُفرَّقُ بين الخطوط إلا في شيء نادرٍ.

قال الشيخ شجاعُ: كان الشيخُ ابن الحُطَيْئة أبو العباس أحمد بن عبدالله، قد أخذ نفسَه بتقليلِ الأكلِ، بحيثُ بلغ في ذلك إلىٰ الغاية، وكان يتعجبُ ممَّن يأكُلُ ثلاثين لُقمةً، ويقول: لو أكلَ الناسُ من الضارِّ ما آكُلُ أنا من النافع ما اعتلُّوا. قال: وحكىٰ لنا شجاعُ أنَّ أبا العباس وُلِدَتْ له بنتٌ، فلما كَبِرتْ أقرأها بالسَّبْعِ، وقرأتْ عليه «الصحيحين» وغيرَ ذلك، وكتبت الكثيرَ، وتعلَّمتْ عليه كثيراً من العلم، ولم ينظُرْ إليها قطُّ، فسألتُ شجاعًا: أكان ذلكَ عن قصدٍ؟ فقال: كانَ في أوَّل العُمر اتفاقًا، لأنه كان يشتغِلُ بالإقراءِ إلىٰ المَغْرب، ثم يدخل بيتَهُ وهي في مهدِها، وتمادىٰ الحالُ إلىٰ أن كَبِرَت، فصارت عادةً، وزوَّجَها، ودخلت بيتَها والأمرُ علىٰ ذلك، ولم ينظر إليها قطُّ.

كان الكِيْزَاني أبو عبدالله محمد بن إبراهيم يقولُ: أفعالُ العبادِ قديمة، وبينَه وبين أهل بلدهِ نزاعٌ، وكان قد دُفن عند ضريحِ الشافعي، فتعصَّب عليه الخُبُوشانيُّ، ونبشَه، وقال: هذا حَشَويٌّ لا يكونُ عند الإمام. ودُفن في موضع آخر.





قال حمزةُ بنُ القُبَّيطي: كان ابنُ الخشّاب أبو محمد عبدالله بن أحمد يتعمَّمُ بالعمامة، وتبقىٰ مُدةً حتىٰ تَسْوَدَّ وتتقطعَ من الوسخِ وعليها ذَرَقُ العصافير.

قال القِفْطيُّ: ذهبَ ابن الدَّهّان أبو محمد سعيد بن المبارك إلىٰ أَصْبَهان، واستفادَ من كُتُبها، وقد غرِقَتْ كتبُه ببغداد في غيبَتِه، ثم نُقلت إليه إلىٰ المَوْصل، فشرعَ في تبخيرِها باللَّاذن ليقطعَ ريحَها الرديء، فطلَعَ ذلك إلىٰ رأسِه، وأحدث له العمىٰ.

قال أبو طاهر السِّلَفِيَّ أحمد بن محمد: لي ستون سنةً بالإسكندريةِ ما رأيت منارتها إلاَّ من هذه الطاقة، وأشار إلىٰ غرفةٍ يجلسُ فيها.

كان أبو طاهر السِّلَفِيَّ أحمد بن محمد مُغْرىً بجمعِ الكتبِ والاستكثار منها، وما كان يصِلُ إليه من المالِ كانَ يُخرجه في شرائها، وكان عنده خزائنُ كتبٍ، ولا يتفرَّغ للنظرِ فيها، فلما مات وجدوا معظمَ الكتبِ في الخزائنِ قد عفنتْ، والتصق بعضُها ببعضٍ لندواةِ الإسكندريةِ، فكانوا يستخلصونها بالفأسِ، فتَلِفَ أكثرُها.

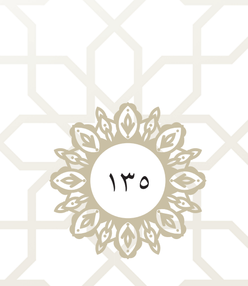




قيل: إنَّ هرَّةً نامتْ علىٰ كُمِّ الرِّفاعِيِّ أحمد بن أبي الحسين، وقامت الصلاة، فقصّ كُمَّهُ، وما أزعجَها، ثم قعَدَ، فوصَلَهُ، وقال: ما تَغيَّرَ شيءٌ.

قال العمادُ: حدَّثني سَعْدٌ الكاتبُ بمصرَ، قال: كانَ الجُوَيْنِيُّ حسن بن علي صديقي، وكان يشربُ الخَمْرَ، فحدَّثني أنه كانَ يكتبُ مصحفًا، وبين يديه مِجْمَرةٌ وقنينةُ خمرٍ، ولم يكنْ بقربي ما أندِّي به الدواةَ، فَصَبَبْتُ من القنينةِ في الدواةِ، وكتبتُ وجهةً، ونشَّفْتُها علىٰ المِجْمَرَة، فصعدتْ شرارةٌ أحْرَقَتِ الخطَّ دونَ بقيةِ الورقةِ، فرعبتُ، وقمتُ، وغسلتُ الدواةَ والأقلامَ، وتبتُ إلىٰ الله.

كان بين العِمَاد محمد بن حامد وبينَ الفاضلِ مخاطباتٌ ومكاتباتٌ. قال مرَّةً للفاضلِ مِمّا يُقرأُ منكوسًا: سِرْ فَلاَ كَبَا بِكَ الفَرَسُ، فأجابَهُ بمثله فقال: دامَ عُلا العِمادِ.





كتب إلىٰ الناصر لدين الله، خادم اسمه يُمن يتعتب، فوقع فيها: «بِمَنْ يَمُنّ يُمْن، صَمَنُ يُمْنٍ ثُمْن»، يذكر أن الخليفة كتب التوقيع من غير نقط، وهذا هو المقصود من الحكاية، لأنها استعصت علىٰ جماعة بسبب تشابه الصورة وعدم النقط.

قال السيف بن المجد: سمعنا من زينُ الأُمناء الحسن بن محمد الدمشقي إلا أنه كان كثير الالتفات في الصلاة، ويقال: كان يشاري في الصلاة ويشير بيده لمن يبتاع منه.

قال ابن خَلِّكان: مات صاحب إرْبل كوكبري بن علي التركماني ليلة الجمعة رابع عشر رمضان سنة ثلاثين وست مئة، وعُمِلَ في تابوت، وحُمِلَ مع الحجاج إلىٰ مكة، فاتفق أن الوفد رجعوا تلك السنة لعدم الماء، فدفن بالكوفة.

قال سِبْط الجوزي: لم يكن في زمان السَّيْف علي بن أبي علي التغلبي من يجاريه في الأصلين وعلم الكلام، وكان يظهر منه رقّة قلب وسرعة دمعة، أقام بحماة، ثم بدمشق. ومن عجيب ما يُحكىٰ عنه أنه ماتت له قطّة بحماة فدفنها فلما سكن دمشق بعث ونقل عظامها في كيس ودفنها بقاسيون.





قال ابن أبي أُصيبعة: قرأت علىٰ الرَّحبي يوسف بن حيدرة الحكيم في سنة اثنتين وثلاث وعشرين كتبًا وانتفعت به، وكان محبًا للتجارة مُغرَىً بها، ويُراعي مزاجه، ولا يصعد في سلَّم، وله بستان، وكان الوزيرُ ابن شُكر يلزم أكلَ الدجاج حتىٰ شحب لونه، فقال له الرَّحبي: الزم لحم الضأن، ففعل فظهر دمه.

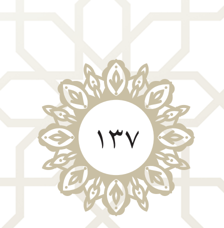


قال عُمر بن الحاجب: ابن صبّاح الحسن بن يحيىٰ المخزومي شيخٌ ثقة، وقور، مُكرم لأهل الحديث، كثير التواضع، قال لي: إنه يبقىٰ ستة أشهر لا يشرب ماء. قلتُ: فتركته لمعنىٰ ؟ فقال: لا أشتَهيه.



كان ابن عَدي حسن بن عدي من رجال العالَم دَهاءً وهِمّةً وسُموّاً، له فضيلةٌ وأدبٌ وتواليفُ في التصوف الفاسد، وله أتباع لا ينحصرون وجلالةٌ عجيبةٌ. بلغ من تعظيمهم له أن واعظًا أتاه فتكلَّم بين يديه، فبكىٰ تاج العارفين وغُشِيَ عليه، فوثب كردي، وذبح الواعظ، فأفاق الشيخ فرأىٰ الواعظَ يختبِطُ في دمه، فقال: أيشٍ هذا ؟ فقالوا: أي شيء هذا من الكلاب حتىٰ يُبْكِي سيدي الشيخ.







من صور الولاء والوفاء والمحبة

كان أَبوسفيان بن الحارث من الشعراء، وفيه يقولُ حسان:

هَجَوْتَ محمَّـــداً فأجَبْـــتُ عَنْهُ ... وعِنْـــدَ اللهِ في ذاكَ الجَـــزاءُ

حزن عمر بن الخطاب علىٰ موت أخيه زيد بن الخطاب، وكان يقول: أَسلم قبلي، واستشهد قبلي. وكان يقول: ما هبَّتِ الصَّبا إِلاَّ وأَنا أَجِدُ ريحَ زيد.

بلغ بلالاً بن رباح أَن ناسـاً يُفضلونه علىٰ أَبي بكر، فقال: كيف يُفضلوني عليه وإِنما أَنا حسنةٌ مِن حسناته.

رويَ أن جاريةً لصَفيَّةَ أُمّ المؤمنين أتت عمر بن الخطاب، فقالت: إن صَفِيَّةَ تُحب السبت، وتَصِلُ اليهود. فبعث عُمرُ يسألُها. فقالت: أما السبتُ، فلم أُحِبَّه مُنذ أبدلني اللهُ به الجمعة؛ وأما اليهودُ، فإِنَّ لي فيهم رَحِماً، فأنا أَصِلُها، ثم قالت للجارية: ما حَمَلَكِ علىٰ ما صَنَعْتِ ؟ قالت: الشيطان، قالت: فاذهبي، فأنت حُرَّة.





قال طلحة بن مُصرِّف: قد أكثرتُم عليَّ في عثمان، ويأبىٰ قلبي إلا أن يُحِبَّه.

قال أبو جعفر: سمعتُ يحيىٰ بن جعفر -وهو البِيْكَنْدِيُّ- يقول لمحمد بنِ إسماعيل البُخَارِيُّ: لولا أنتَ ما استطبتُ العيَش ببخُارىٰ.

وقال عبدُ الله بن حماد الآمُلي: وددت أني شَعْرَةٌ في صدرِ محمدِ بن إسماعيل البُخَارِيُّ.

قد أرادوا أن ينتقل العُكْبَرِيُّ عبدالله بن الحسين النحوي الحنبلي عن مذهب أحمد، فقال، وأقسم: لو صببتُم الذَّهَبَ الذَّهَبَ عليَّ حتىٰ أتوارَىٰ به، ما تركتُ مذهبي.







في المدح والشكر والثناء

عن أَبي هريرة قال: «ما احتذىٰ النِّعالَ ولا رَكِب المَطَايا بعدَ رسول الله، صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أَفضَلُ مِنْ جعفرِ بن أَبي طالب» يعني في الجود والكرم.

قال النابغة الجَعْدي في ابن الزُّبير:

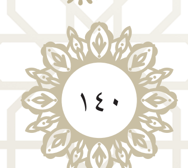
وَسَوَّيت بينَ النَّاسِ في الحقِّ فَاستَوَوا   فَعَادَ صَبَاحاً حالِكُ الليلِ مُظْلِمُ

روىٰ الحسن بن عُمارة، عن أبي إسحاق، قال: ما رأيتُ أميراً قطّ أفضلَ ولا أسخىٰ ولا أشجع من المُهَلِّب بن أبي صفرة؛ ولا أبعدَ مما يكره، ولا أقربَ مما يحب.

قال الأصمعيُّ: أنشد أعرابيٌّ، خالد بن عبدالله القَسري في مجلس الشعراء:

فَأَنْتَ النَّدَى وابْنُ النَّدَى وَأَخُو النَّدى   حَلِيفُ النَّدَى ما للنَّدى عَنْكَ مَذْهَبُ

فأعطاه مئة ألف.





قال شعبة: شَكُّ عَبدُالله بنُ عَون أحبُّ إليَّ من يقين غيره.

قال وَكِيع: شَكُّ مِسعَر بن كدام كيَقين غيره.

دخل محمد بن المنصور علىٰ المهدي شريف، فوصله، فقال: يا أميرَ المؤمنين! ما أنتهي إلىٰ غاية شُكرِك، إلا وجدت وراءها غاية من معروفك، فما عَجَز النَّاس عن بلوغه، فالله من وراء ذلك.

قال ابن المعتز: أجودُ شعر مَروان بن أبي حفصة: اللامية، التي فضل بها علىٰ شعراء زمانه في مَعن بن زائدة، فأجازه عليها بمال عظيم. قال: وأخذ من خليفة علىٰ بيت واحد ثلاث مئة ألف درهم. ومن اللامية:

فَمَا يَسْتَطِيعُ الفَاعِلُون فِعَالَهم وإنْ أحسنُوا في النَّائبات وأجْمَلوا

قال النَّظَّام وذكر عبدالوهَّاب الثَّقفي فقال: هو والله أَحْلىٰ من أَمْنٍ بعد خَوْف، وبُرءٍ بعد سقم، وخِصْبٍ بعد جَدْب، وغنىٰ بعد فَقْر، ومن طاعةِ المحبوب، وفَرَجِ المكروب، ومن الوِصال الدَّائم مع الشَّباب الناعم.



وقال يحيىٰ بنُ مَعِين: رأيتُ بمصر ثلاثَ عجائب: النِّيل، والأهرام، وسعيدَ بنَ عُفير.

ابن المُدَبِّر إبراهيم بن محمد كانَ وافرَ الحِشمَة، كثيرَ البَذل، وفيه يقولُ أبو هَفَّان:

لَـوْ كَانَ مِثْلَكَ في البَرِيَّـةِ وَاحِدٌ في الجُودِ لَـم يَكُ فِيهِـمُ فَقَرَاءُ

وروىٰ الماذَرَائي، عن أبيه، قال: كنَّا مع أبي الجَيْش خُمَارَوَيه بن أحمد بن طولون علىٰ نهر ثورا، فأتاه أعرابي، فأَخَذَ بِلِجَامه، وقال: اسمع لي. قالَ: قُل. قال:

إنَّ السِّـنَان وَحَدَّ السَّيْفِ لَوْ نَطَقَا لَحَدَّثَا عَنـكَ بَينَ النَّاسِ بالعَجَبِ

أتلَفتَ مَالَـكَ تُعطِيـهِ وتُنهِبُهُ يَا آفَةَ الفِضَّةِ البَيضَـاءِ وَالذَّهَبِ

فأعطاه خمسَ مئة دِينار، فقال: أيُّها الملك ! زِدني. فقال للغِلمان: اطرحوا لَهُ سُيوفَكم ومناطِقَكم.





ذكر ابن مُقْلَة أنَّه حضرَ مجلس ابن الفرات في أول وزارته، فأُدخل إليه عبيدُ الله بنُ عبدالله بن طاهر في مِحَفَّة، فدفعَ الوزيرُ إليه عشرة آلاف درهم سِراً، فأنشَد:

أيادِيْكَ عِنْـــدِي مُعْظَمَاتٌ جَلَائِل   طَوَالَ المَدَى شُـــكْرِي لَهُنّ قَصِيْرُ
فَـإنْ كُنْتَ عَنْ شُـكْرِي غَنِيّاً فَإنَّني   إلى شُـــكرِ مـــا أَوْلَيتَـــني لَفَقِيْرُ

كان عَضُدُ الدولة يقول: إذا رأيتُ السَّلَاميَّ محمد بن عبيد الله في مجلسي، خِلْتُ أنّ عُطَارِد نَزَلَ من الفَلَك.

وفي المُظَفَّر بن الأفطس سلطان الثغر الشمالي، يقول أبوالأصبغ القلمَندر الكاتب:

يُربي على سَـــيبِ الغَمـــام عَطاؤُهُ   مَلِكٌ على فُلكِ العُلى اســـتِمطاؤُهُ
سَـــيْفٌ رِقـــابُ عَـــدُوِّه أغمادُهُ   تَســـقيهِ بالغَيْثِ المُغيـــثِ دِماؤُهُ





ولعبدالمجيد بن عيذون في بني المُظَفَّر قصيدة طَنَّانَةٌ نادِرَةُ المِثْل، منها:

بني المظفـــر والأيـــام لا نزلت   مراحــلٌ والورى منها على ســـفرِ
من لـــلأسرة أو مـــن للأعمة أو   من للأســـنة يهديهـــا إلى الثُّغُر
مـــن للبراعة أو مـــن لليراعة أو   من للشـــجاعة أو للنفع والضَّرَرِ

قال أبو الكرم بن الشَّهرُزُوري: كان إلكِيا إذا رأىٰ أبا الخطاب الكَلوذاني مقبلاً قال: قد جاء الجَبَلُ.

وقال أبوبكر بن النَّقور: كان إلكِيا الهَرَّاسي إذا رأىٰ أبا الخطاب الكَلوذاني قال: قد جاء الفقه.

قال محمد بن الحسين الآمِدي: دخلت علىٰ متولي الإسكندرية، وقد وَرِمَ خِنصرُهُ من خاتَمٍ، فقلت: المصلحةُ قطعُ الخاتم، وطلبتُ له ظافراً بن القاسم أبو منصور الحداد، فقطع الحلقة وارتجل:

قـــصَّر عـــن أوصافــك العالم   وأكـــثر   النَّاثــرُ   والنَّاظِــمُ
مـــن يكـــن البحـــرُ له راحةً   يضيـــقُ عـــن خنـــصرهِ خاتمُ



قال الكمالُ الأنباريُّ: لما قدم الزمخشريُّ أبو القاسم محمد بن عمر للحجِّ، أتاه شيخُنا أبوالسعاداتِ بنُ الشَّجَري مُهنِّئًا بقُدومه، وقال:

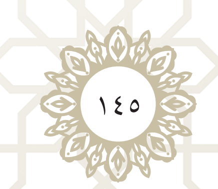
كَانَت مُسَاءَلَةُ الرُّكبَانِ تُخبِرُني عن أَحمَدَ بنِ عليٍّ أَطيَبَ الخَبَرِ
حتّى التَقَينا فَلَا واللّهِ ما سَمِعت أُذني بأَحسَنَ مِمّا قَد رَأَى بَصَرِي

وأثنىٰ عليه، ولم ينطق الزمخشريُّ حتىٰ فرغ أبوالسعادات، فتصاغرَ له، وعظَّمه، وقال: إنَّ زيدَ الخيل دخل علىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرفع صوتَه بالشهادتين، فقال له: «يازيد كُلُّ رجلٍ وُصف لي وجدتُهُ دون الصفة إلا أنتَ، فإنكَ فوقَ ما وُصِفتَ» وكذلك الشريف ودعا له، وأثنىٰ عليه.

عُمارة بن علي بن زيدان اليمني، تفقَّه بزَبيد مُدّةً، وحج سنةَ تسعٍ وأربعين، ونفّذه أميرُ مكة قاسمُ بنُ فُليتة رسولاً إلىٰ الفائزِ بمصرَ، فامتدحه بكلمةٍ منها:

ليتَ الكَواكبَ تَدْنُو لي فأنْظِمَها عُقُودَ مَدْحٍ فما أَرضى لكُم كَلِمي

قال ابن النجار: نشرَ المستنصر باللّه منصور بن محمد البغدادي العدلَ، وبثَّ المعروفَ، وقَرَّبَ العُلماء والصُّلحاء، وبنىٰ المساجد والمدارس والرُّبط، ودُورَ الضيافة والمارستانات، وأجرىٰ العطيات، وقمع المُتمرِّدة،



وحمل الناسَ علىٰ أقوم سَنن، وعَمَّرَ طُرُقَ الحاج، وَعَمَّرَ بالحرمين دوراً للمرضىٰ، وبعث إليها الأدوية:

تَخْشَى الإِله فَمَــا تَنَــامُ عِنَايَةً بالمُسْــلِمِينَ وَكُلُّهــم بِــكَ نائِمُ







في تهذيب النفس

دُخِلَ علىٰ أَبي دُجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلَّلُ. فقيل له: ما لِوجهك يتهلَّلُ ؟ فقال: ما مِن عملِ شيء أَوثق عندي من اثنتين: كنتُ لا أَتكلَّمُ فيما لا يعنيني، والأخرىٰ فكان قلبي للمسلمين سليماً.



قال عبدالله بن مسعود: لو سَخِرْتُ مِن كلب، لخشيتُ أَن أكون كلباً.



زعم عبدُالله بن حنظلة أن عبدَالله بن سلام مَرَّ في السوق، عليه حزمةٌ من حطب. فقيلَ له: أليس أغناكَ الله ؟ قال: بلىٰ، ولكن أردتُ أَنْ أقمع الكِبْر.



خطب الحسنُ بن علي بن أبي طالب بالكوفة، فقال: إنَّ الحِلمَ زينة، والوقارَ مروءة، والعجلةَ سَفَه، والسفه ضعف، ومجالسة أهل الدناءة شَين، ومخالطة الفُسَّاق ريبة.





عن وَهْبُ بن مُنبِّه قال: دعِ المِراء والجَدَل، فإنَّهُ لَنْ يعجز أحدُ رجُلَين: رجلٌ هو أعلم منك، فكيف تعادي وتُجادِلُ مَنْ هو أعلمُ منك ؟! ورجُلٌ أنت أعلمُ منه، فكيف تعادي وتُجادِلُ مَنْ أنت أعلمُ منه ولا يُطيعُك ؟!

أقبل يزيدُ بنُ عَبْدِالمَلِك إلىٰ مجلس مكحول، فَهَمَمْنَا أن نُوسِّع له، فقال: دعوة يتعلَّم التواضُعَ.

وعن حماد بن أبي سليمان قال: من أمِنَ أن يُستثقَل ثَقُل.

قال أبوحازم: خصلتانِ، مَنْ يكفلُ لي بهما ؟ تركُكَ ما تُحِبُّ، واحتمالُك ما تكره.

قيل لابن المقفع: من أدبك ؟ قال: نفسي. إذا رأيت من أحدٍ حسناً أتيتُه، وإن رأيت قبيحاً أَبَيْتُه.



كانَ حجَّاج بن أَرطَاة فقيهـاً، أحد مُفتي الكوفة، وكان فيه تِيْه، فكان يقول: أهْلكني حُبُّ الشَّرَف.

وعن سفيان الثوري، قال: ما عالجتُ شيئاً أشد عليَّ من نفسي، مرة عَليَّ، ومرة لي.

قال أبو وَهْب المَرْوَزي: سألت عبدالله بن المُبارك: ما الكِبْرُ ؟ قال: أن تَزْدَري الناس. فسألته عن العُجْب ؟ قال: أن ترىٰ أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلِّين شيئاً شراً من العُجْب.

وسمع بعضُهم عبدالله بن المبارك وهو يُنشِدُ علىٰ سور طَرسوس:

وَمِـــنِ البَـــلاَءِ ولِلبَـــلاءِ عَلَامَةٌ   أَن لا يُرَىَ لَكَ عَـــن هَوَاكَ نُزُوعُ
العَبْدُ عَبْدُ النَّفسِ في شَـــهَوَاتِها   والحُـــرُّ يَشـــبعُ مَـــرَّةً وَيَجُوعُ





قال الفُضَيل بن عِياض: لا يكون العبد من المتَّقين حتىٰ يأمنه عَدوُّه.

محمد بن فهد المصري: حدثنا الربيعُ، سمعتُ الشافعيَّ يقولُ: مَن استُغضِبَ فلم يغضب، فهو حمار، ومَن استُرضِيَ فلم يَرْضَ، فهو شيطان.

وعن أبي سُليمان الدَّاراني قال: أفضلُ الأعمالِ خِلافُ هوىٰ النَّفْس.

رُوي عن بشر بن الحارث الحافي أنه قيل له: ألا تُحدِّثُ ؟ قال: أنا أشتهي أن أُحدِّث، وإذا اشتهيتُ شيئًا، تركتهُ.

وعن الجُنَيْدُ بن محمد بن الجنيد النهاوندي قال: أَعلىٰ الكِبْر أَن تَرَىٰ نفسَكَ، وأَدناهُ أَن تخطرَ ببالك - يعني نفسك.

قال القَوَّاس: سمِعْتُ الخُلْدِيُّ جعفر بن محمد يقول: لا توجد لَذَّة المُعَاملة مع لذَّة النَّفْس.



خطَبَ مُنذِرُ بنُ سَعيد البَلُّوطي يومـًا فأَعجَبتْهُ نفسُه، فقال: حتَّىٰ متىٰ أَعظُ ولا أتَّعِظ، وأَزجُر ولا أَزدَجِر، أدلُّ علىٰ الطريق المُسْتَدلِّين، وأَبقىٰ مُقيمـًا مع الحائرين، كلَّا إنَّ هذا لَهُو البلَاء المُبين. اللهُمَّ فَرَغِّبْني لمَا خَلَقْتَني له، ولا تَشْغَلْني بما تكَفَّلْتَ لي به.



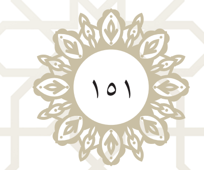
قال أَبو عُثمانَ المَغربيّ سعيد بن سلام: من أَعطىٰ الأَماني نفسَه قَطَعَتْها بالتَّسويف وبالتواني.



فخر المُلْك محمد بن علي بن خلف، رُفعت إليه سِعايةٌ برجل، فوقَّع فيها: السِّعايةُ قبيحة، ولو كانت صحيحة، ومعاذَ اللهِ أن نقبلَ من مهتوكٍ في مستور، ولولا أنك في خُفَارة شَيْبِك، لعاملناكَ بما يُشْبِه مقالَك، ويردَعُ أمثالَكَ، فاكتُم هذا العَيب، واتَّق من يعلَمُ الغيب. فأخذها فُقهاءُ المَكاتب، وعلَّمُوها الصِّغار.

ابن المَغْرِبي علي بن الحسين، له ترسُّلٌ فائق وذكاءٌ وقَّاد، ومن نظمه:

وكُلُّ امـــرِئٍ يَدْرِي مَوَاقِعَ رُشْــدِهِ ولكنَّـــهُ أعـــمى أَسِـــيرُ هَـــوَاهُ





هَوى نَفْسِهِ يُعْمِيهِ عَنْ قُبْحِ عَيْبِه   ويَنْظُــرُ عن حِذْقٍ عُيُوبَ سِــوَاهُ

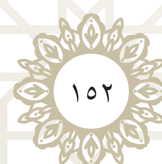
قال غيثُ بن علي: أنشدنا الخطيب أبو بكر أحمد بن علي لنفسه:

فَخالِــفِ النَّفْــسَ في هواهــا   إنَّ الهــوى جامــعُ الفَسَــادِ

ذكر السمعاني عن البُرُوجِرديّ أبو الفضل أنه قال: كنتُ أنسخُ بجامع بُرُوجِرد، فقال شيخٌ رثُّ الهيئة: ما تكتب ؟ فكرهت جوابه، وقلت: الحديث. فقال: كأنك طالبٌ ؟ قلت: نعم. قال: من أين أنت ؟ قلت: من مرو. قال: عمَّن روىٰ البخاري من أهل مرو ؟ قلت: عن عبدالله بن عثمان وصَدَقَةَ بن الفضل. قال: لم لُقِّبَ عبدالله بعَبْدان ؟ فتوقفت، فتبسم، فنظرت إليه بعينٍ أخرىٰ، وقلت: يفيد الشيخ. قال: كنيته أبوعبدالرحمن، واسمُهُ عبدالله، فاجتمع فيه العَبْدَان، فقيل: عَبْدان. فقلت: عمن هذا ؟ قال: سمعته من محمد بن طاهر.

قيل: أُحْضِرَ بين يدي الرِّفاعِيُّ أحمد بن أبي الحسين طبقُ تمرٍ، فبقي يُنقِّي لنفسِهِ الحشَفَ يأكلُه، ويقول: أنا أحقُّ بالدُّونِ، فإني مثلُه دونٌ.







من بليغ الدعاء

كان سعد بن عُبادة يقول: اللهم هَبْ لي حمداً ومجداً، اللهم لا يُصلحني القليلُ، ولا أَصلحُ عليه.

مرَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أَبي بكر وعمر، وعبدالله بن مسعود قائم يصلي، فافتتح سورة النساء يسجلها، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أحب أن يقرأ القرآن غضـاً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد» فأخذ عبدالله في الدعاء. فجعل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «سل تُعط». فكان فيما سأل: اللهم إِني أَسأَلكَ إيمانـاً لا يرتد، ونعيمـاً لا ينفَدُ، ومرافقةَ نبيك محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أَعلىٰ جنان الخُلد. فأتىٰ عمرُ عبدالله يبشرُه، فوجد أَبا بكر خارجـاً قد سبقه، فقال: إِنك لسبّاقٌ بالخير.

كان عبدالله بن مسعود يقول في دعائه: خائف مستجيرٌ، تائبٌ، مستغفرٌ، راغبٌ، راهب.





جاء رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ المسجد، وأبوموسىٰ الأشعري علىٰ باب المسجد، فأخذ بيده، فأدخله المسجد، فإذا رجلٌ يصلِّي يدعو، يقول: اللهم، إني أسألُك، بأني أشهدُ أنك اللهُ، لا إله إلا أنت الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. قال: «والذي نفسي بيده لقد سَأَلَ اللهَ باسمِهِ الأعظمِ، الذي إذا سُئِلَ به أعطىٰ، وإذا دُعِيَ به أَجَاب».

كان هَمَّامُ بنُ الحارث النخعي يدعو: اللهمَّ اشفني من النوم باليسير، وارزقني سهراً في طاعتك.

كان ابنُ شهاب الزهري، يختِمُ حديثه بدعاء جامع، يقول: اللهمَّ أسألُك من كل خير أحاط به علمُك في الدنيا والآخرة، وأعوذُ بك من كل شر أحاط به علمك في الدنيا والآخرة.

وبالإسنادِ عن بقية، قال: كُنَّا مع إبراهيم بن أَدهَم في البحر، فهاجت ريح، واضطربت السَّفينة، وبَكَوا، فقلنا: يا أبا إسحاق! ما ترىٰ؟ فقالَ: يا حيُّ حينَ لا حيَّ، ويا حيُّ قبل كل حي، ويا حيُّ بعدَ كل حي، يا حيُّ، يا قَيُّومُ، يا محسنُ، يا مُجْمِل! قد أريتنا قدرَتك، فأرنا عفوك.





قال إبراهيم بن الأشعث: سمعتُ الفُضَيل بن عِياض يقول في مرضه: ارحمني بحبِّي إياك فليس شيء أحبَّ إليَّ منك.

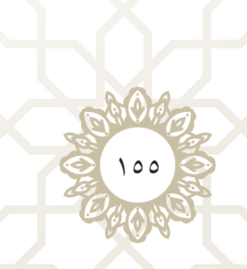
وعن الفُضَيل بن عِياض قال: اللهمَّ إنِّي اجتهدتُ أن أؤدِّب علياً –يعني ابنه–، فلم أقدِرْ علىٰ تأديبه، فأَدِّبه أنت لي.

وعن أبي الصَّلْت قال: سمعتُ عليَّ بنَ موسىٰ بالموقف يدعو: اللهم كما سترْتَ عليَّ ما أعلمُ فاغْفِر لي ما تَعْلَمُ، وكما وَسِعَني علمُك، فَلْيَسَعْني عَفْوُكَ، وكما أَكْرَمْتَني بمعرفتك، فاشْفَعها بمغفرتِكَ يا ذا الجَلالِ والإِكرام.

قال حريز بن أحمد بن أبي دُوَاد: كان أبي إذا صلىٰ، رفع يده إلىٰ السماء وخاطب ربه ويقول:

مَا أَنْتَ بِالسَّـــببِ الضَّعِيْفِ وإنَّما ... نُجْـحُ الأُمُـــورِ بِقُوَّةِ الأَسْــبَابِ

فَالْيَـــومَ حَاجَتُنا إلَيْـــكَ، وإِنَّما ... يُدعى الطَّبيبُ لِسَاعةِ الأَوْصَابِ





روىٰ ابنُ رِزْقَويه عن إسماعيل الخُطَبِيِّ، قال: وجَّه إليَّ الرَّاضي بالله ليلةَ الفِطْرِ، فحُمِلْتُ إليه راكبًا فدخلتُ [عليه] وهو جالس في الشُّموع، فقال لي: يا إسماعيل ! [إني] قد عَزمتُ في غدٍ علىٰ الصَّلاةِ بالنَّاسِ فما الذي أقول إذا انتهيتُ إلىٰ الدُّعاء لنفسي ؟ فأطرقتُ ساعةً، ثُمَّ قُلْتُ: يا أمير المؤمنين قل: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ [الأحقاف:١٥] فقال لي: حَسْبُكَ فَقُمْتُ وَتَبِعَنِي خَادمٌ، فأعطاني أربع مئة دينار.

كان صَاحِبُ الأنْدَلُس المَلِكُ الملقَّبُ بأمير المؤمنين، أبو المُطَرِّف عبدالرحمن بنُ الأمير محمد، لا يَملُّ من الغزو، فيه سُؤدُدٌ وحَزْم وإقْدام، وسجايا حميدة، أصابَهُم قَحْطٌ، فجاء رسولُ قاضيه منذر البَلُّوطي يحرّكُه للخروج، فلَبِس ثوْبًا خَشِنًا، وبكىٰ واستغفر، وتذلَّل لربِّه، وقال: ناصيتي بيدك، لا تعذِّب الرَّعية بي، لن يفوتك مني شيءٌ. فبلغَ القاضي، فتهلَّل وجهه، وقال: إذا خَشَع جبَّارُ الأرْض، يرحم جَبَّار السَّماء، فاستَسْقوا ورُحموا.

قال السَّمعاني: سمعتُ غيرَ واحد يقولون: كان الأَبِيوَرْدِي محمد بن أحمد يقول في صلاته: اللَّهُمَّ ملِّكني مشارِقَ الأرضِ ومغارِبَها.





قال الحسنُ بنُ أحمدَ الأوقيُّ: كانوا يأتونَ السِّلَفيِّ أبو طاهر أحمد بن محمد، ويطلبون منه دعاءً لِعُسْرِ الولادةِ، فيكتبُ لمن يقصِدُه، قال: فلما كَثُرَ ذلك نظرتُ فيما يكتبُ، فوجدتهُ يكتُب: اللّهمَّ إنّهم قد أحسنوا ظنَّهم بي، فلا تُخيِّبْ ظنَّهم فيَّ.





حب الوطن

قالت عائشة: لما قدم النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المدينة، وُعِك أبوبكر وبلال، فكان أبوبكر إِذا أَخذته الحمَّىٰ يقول:

كُلُّ امــرِئٍ مُصبَّــحٌ في أَهلِــهِ   والمــوتُ أَدنى مِــنْ شراكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إِذا أَقلع عنه يرفع عقيرته ويقول:

أَلاَ لَيْتَ شِــعْري هَلْ أَبيتَنَّ لَيْلَةً   بــوادٍ وَحَــوْلي إذخِــرٌ وجليلُ

التَّميميُّ محمد بن عيسىٰ رحل إليه الناس من النواحي، وبعد صيته، واشتهر ذكره، وتخرج به أئمة، وكان دينا، سريع الدمعة، مؤثراً للطلبة، بنىٰ جامع سبتة، وعزل نفسه من القضاء بأخرة، ثم طلبوه، وولوه قضاء فاس، فلم تُعجبه الغُربة، فرجع إلىٰ وطنه.

قال السَّمعانيُّ في «معجمه»: كان أبوسَعْد أحمد بن محمد البغدادي حافظًا كبيراً، تامَّ المعرفة، يحفَظُ جميع «صحيح» مسلم، وكان يُملي من حفظِه، قدم مرّةً من حجِّه، فاستقبله الخلقُ وهو علىٰ فرسٍ يسيرُ بسيرهم، فلما قَرُب من أَصْبَهانَ، ركضَ فَرَسَهُ، وتركَ الناسَ، وقال: أردتُ السُّنَّة: إن النبيَّ

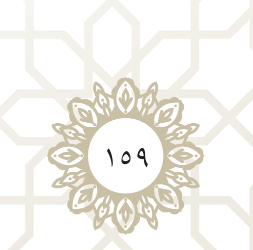


صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُوضِعُ راحلتَهُ إذا رأىٰ جُدُرَ المَدينة، وكان حُلوَ الشمائِلِ، استمليت عليه بمكةَ والمدينةِ، وكتب عنِّي، قال لي مرةً: أَوقفتُكَ. واعتذر، فقلتُ: يا سيدي، الوقوفُ علىٰ بابِ المُحدِّثِ عِزٌّ.



كان ياقوت الرومي الحموي المؤرخ شاعراً متفنّنًا جيد الإنشاء: يقول في خراسان: وكانت لعمر الله ذاتَ رياض أريضة، وأهوية صحيحة مرِيضة، غَنْت أَطيارُها، وتمايلت أشجارها، وبكت أنهارها، وضحكت أزهارها، وطاب نَسيمُها فَصَحَّ مزاج إقليمها؛ أطفالهم رجال، وشبابهم أبطال، وشيوخهم أبدال، فهان علىٰ ملكهم ترك تلك الممالك.









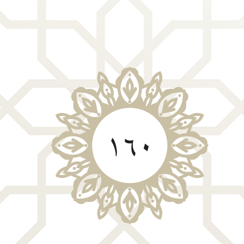
عن الدنيا وحقيقتها

قال رجلٌ يقال له: جابر أو جُويبر، قال: أَتيتُ عمر بن الخطاب وقد أعطيتُ منطقًا فأخذت في الدنيا، فصغرتها، فتركتها لا تسوىٰ شيئًا، وإِلىٰ جنبه رجل أَبيضُ الرأس واللحية والثياب، فقال: كُلُّ قولك مقارب إِلا وقوعَك في الدنيا، هل تدري ما الدنيا ؟ فيها بلاغُنا أَو قال: زادُنا إِلىٰ الآخرة، وفيها أَعمالُنا التي نُجزىٰ بها. قلت: من هذا يا أَميرَ المؤمنين قال: هذا سيِّدُ المسلمين أُبيُّ بن كعب.

رُوِي عن أبي الدرداء، قال: لولا ثلاثٌ ما أحببتُ البقاء: ساعةُ ظمأ الهواجر، والسجودُ في الليل، ومجالسةُ أقوام ينتقون جيِّدَ الكلام كما يُنتقىٰ أطايِب الثمر.



قال أبوحازم: ما الدنيا ؟ ما مضىٰ منها، فحلم، وما بقي منها، فأماني.





قال أحمد بن أبي الحَوارِي: حدّثنا إسحاق بن جبلة، قال: دخل الحسن بن صالح يوماً السُّوقَ، وأنا معه، فرأىٰ هذا يخيطُ، وهذا يصبغُ، فبكىٰ وقال: انظر إليهم يتعلَّلون حتىٰ يأتيهم الموت.

وعن الفُضَيل بن عِياض قال: إنما أمس مَثلٌ، واليومَ عملٌ، وغداً أملٌ.

فيض بن إسحاق: سمعتُ الفُضَيل بن عِياض يقول: ليست الدنيا دارَ إقامة، وإنما آدم أُهبط إليها عقوبةً، ألا ترىٰ كيف يَزويها عنه، ويمرِّرها عليه بالجوع، بالعُري، بالحاجة، كما تصنعُ الوالدة الشفيقة بولدها، تسقيه مرةً حُضَضاً ومرةً صَبِراً، وإنما تُريد بذلك ما هو خيرٌ له.

قال جَعْفَرُ البرمكي: إذا أقبلت الدُّنيا عليك، فأَعْطِ، فإنها لا تَفْنىٰ، وإذا أَدْبرتْ، فأَعطِ فإِنَّها لا تَبْقىٰ.





وقال الأَصْمَعِيُّ: سمعتُ يحيىٰ بنَ خالد البَرمكيّ يقول: الدنيا دُوَلٌ، والمال عَارِيَّة، ولنا بمن قَبْلَنا أُسْوَةٌ، وفينا لمن بعدنا عِبْرة.

وعن عليِّ بنِ موسىٰ الرِّضىٰ، عن أبيه قال: إذا أَقْبلَتِ الدُّنيا علىٰ إنسانٍ، أَعْطَته محاسنَ غيرِه، وإذا أَدْبَرَتْ عنه، سَلَبَتْه محاسنَ نفسِهِ.

وقيل للشافعي: مالكَ تُكثر من إمساك العصا، ولستَ بضعيف ؟ قال: لأذكُرَ أَنِّي مسافر.

وعن بشر بن الحارث الحافي: أمسِ قد مات، واليوم في السياق، وغداً لم يولد.

قال محمد بن يحيىٰ الذُّهلِيُّ: تَقَدَّمَ رجلٌ إلىٰ عالمٍ، فقال: علِّمْني وأَوجِزْ، قال: لأُوجِزَنَّ لك، أَمَّا لِآخِرَتك: فإنَّ الله أوحىٰ إلىٰ نبيٍّ من أنبيائه: قُل لقومِكَ: لو كانت المعصيةُ في بيتٍ من بيوت الجنة لأوصلتُ إليه الخراب. وأما لدنياك: فإنَّ الشاعر يقول:



ما النَّــاسُ إلّا مَعَ الدُّنْيا وَصَاحِبِها وَكَيْفَ ما انقَلَبَتْ يوماً بِهِ انْقَلَبُوا
يُعَظِّمُونَ أخا الدُّنيـــا فَإنْ وَثَبَتْ يوماً عَلَيْهِ بما لا يَشْـــتَهِي وَثَبُوا

قال أبو عليّ الثَّقَفِيُّ محمد بن عبدالوهاب: أُفٍّ من أشغال الدُّنيا إذا أَقْبَلَتْ، وأُفٍّ مِنْ حَسَرَاتها إذا أَدْبَرَتْ. العاقل لا يَرْكَن إلىٰ شيءٍ، إن أقبل كان شُغلاً، وإن أَدْبَرَ كان حَسْرَةً.

ابن المَغْرِبي علي بن الحسين هو القائل:

أَرَى النَّـاسَ في الدُّنْيا كَرَاعٍ تَنَكَّرتْ مَرَاعيهِ حتّى لَيْـسَ فِيهنَّ مَرْتَعُ
فَمَاءٌ بِلا مَرْعىً ومَــرعىً بِغَيْرِ ما وحَيْثُ يُرى ماءٌ ومَرْعىً فمَسْـبَعُ

الغَزِّي إبراهيم بن يحيىٰ شاعِرُ خُراسان، يُنشد له قوله:

ما مضى فــاتَ والمؤمّــلُ غيب فَخُذِ السَّــاعَةَ الــتي أنت فيها





قال السَّمعاني: سمعتُ الغَزْنَوي أبو الحسن علي بن الحسين يقول: رُبَّ طالبٍ غيرُ واجد، وواجد غيرُ طالب.

من كلام أبو الفرج ابن الجَوْزِيَ: ما اجْتَمَعَ لامرئٍ أَمَلُهُ، إلاَّ وسَعَىٰ في تفريطِه أَجَلُهُ.







في الكرم والبذل والعطاء

كان معاذ بن جَبَل شاباً جميلاً سمْحاً من خير شباب قومه، لا يُسأل شيئاً إلا أعطاه، حتىٰ عليه دَيْنٌ أغلق ماله كلَّه، فسأَل رسولَ الله، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يُكلِّمَ له غرماءَه ففعل، فلم يضعوا له شيئًا، فلو تَرَكَ أحدٌ لكلام أَحد، لتُرِكَ لمعاذ لكلام رسول الله، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



أُمُّ سَلَمَةَ أُمُّ المؤمنين، أبوها: هو زادُ الراكب، أحد الأجواد – قيل: اسمه – حُذَيفة. في «اللسان» وأزواد الركب من قريش: أبو أمية بن المغيرة، والأسود بن عبدالمطلب بن أسد بن عبدالعزىٰ، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية عم عقبة، كانوا إذا سافروا، فخرج معهم الناس، فلم يتخذوا زاداً معهم ولم يوقدوا، يكفونهم ويغنونهم.

هشام بن عروة، عن القاسم بن محمد: سمعت ابن الزبير يقول: ما رأيت امرأةً قط أجودَ من عائشة وأسماء بنتُ أبي بكر؛ وجُودهما مختلف: أما عائشة، فكانت تجمعُ الشيءَ إلىٰ الشيء، حتىٰ إذا اجتمع عندها وضعته مواضعه، وأما أسماء، فكانت لا تَدَّخِرُ شيئاً لغد.





باع قيسُ بنُ سعد مالاً من مُعاوية بتسعين ألفـًا؛ فأَمَر من نادىٰ في المدينة، من أراد القرض، فليأتِ. فأقرضَ أربعين ألفـًا، وأجازَ بالباقي، وكتبَ علىٰ مَنْ أقرضه. فمرض مرضـًا قلَّ عُوَّادُه، فقال لزوجته قُرَيْبة أختِ الصديق: لِمَ قَلَّ عُوَّادي ؟ قالت: للدَّين، فأرسل إلىٰ كُلِّ رَجُلٍ بصَكِّهِ، وقال: اللّهُمَّ ارزقني مالاً وفَعالاً، فإِنَّه لا تصلحُ الفَعالُ إلا بالمال.



حَجَّ يزيد بن المهلب، فلما حلق رأسَهُ الحلاق، أعطاه ألف درهم، فَدُهِشَ بها، وقال: أمضي أُبَشِّرُ أُمِّي؛ قال: أعطوهُ ألفـًا أخرىٰ؛ فقال: امرأتي طالق إن حلقتُ رأس أحدٍ بعدك، قال: أعطُوهُ ألفين آخرين.



قال موسىٰ التيمي: ما رأيتُ أحداً أجمعَ للدين والمملكة والشرفِ من عبدالرحمن بن أبان بن عثمان بن عفَّان. وقيل: كان يشتري أهل البيت فيكسوهم ويُعتقهم ويقول: أستعينُ بهم علىٰ غمراتِ الموت، فمات وهو نائم في مسجده.





قال مالك: كان ابن شهاب الزهري من أسخىٰ الناس، فلما أصاب تلك الأموال، قال له مولىٰ له وهو يَعظه: قد رأيتَ ما مرَّ عليك من الضيق، فانظر كيف تكون، أمْسِكْ عليك مالك، قال: إن الكريم لا تحُنِّكُه التَّجاربُ.

نزل ابنُ شهاب بماء من المياه. فالتمس سلفـًا فلم يجد، فأمر براحلته فنُحِرَتْ، ودعا إليها أهلَ الماء، فمر به عمُّه فدعاه إلىٰ الغداء، فقال: يا ابنَ أخي: إن مروءة سنة تذهب بذل الوجه ساعة، قال: يا عم انزل فاطْعَمْ، وإلا فامض راشداً.

جاء محمد بن المُنْكَدِرِ إلىٰ أُمِّ المؤمنين عائشة، فشكىٰ إليها الحاجة، فقالت: أوَّلُ شيء يأتيني أبعث به إليك. فجاءتها عشرةُ آلاف درهم، فقالت: ما أسرعَ ما امتُحنتِ يا عائشة، وبَعَثَتْ بها إليه فاتَّخذ منها جارية، فولدت له محمداً وأبا بكر وعمر.



أرسل عَبدالله بن المبارك إلىٰ أبي بكر بن عياش بأربعين ألف درهم، وقال: سُدَّ بهذه فتنة القومِ عنك.

قال الخطيب: حدثنا أبو منصور محمد بن محمد العُكْبَري، حدثني أحمد بن الحسين الواعظ، قال: أُودِعَ أبو عبدالله بنُ أبي موسىٰ الهاشمي عشرة آلاف دينار ليتيم، فضاقَتْ يدُه، فأَنفقها، وكَبِرَ الصَّبيّ، وأُذنَ له في قبض ماله. قال ابنُ أبي موسىٰ: فضاقت عليَّ الأرض، وتَحَيَّرتُ، فبكرتُ علىٰ بغلتي، وقصدتُ الكرخ، فانتهت بي البغلة إلىٰ درب السلولي ووقفت بي علىٰ باب مسجد دَعْلَج، فدخلتُ فصليتُ خلفَه الفجر، فلمّا انفتل رحَّب بي، وقُمْنا فدَخَلْنا دارَه، فقُدِّمتْ لنا هريسة، فأكلتُ وقصرتُ، فقال: أراكَ منقَبضاً؛ فأخبرتهُ، فقال: كُلْ فإنَّ حاجتكَ تُقْضىٰ، فلمَّا فرغنا، استدعىٰ بالذَّهب والمِيزان، فوزنَ لي عشرةَ آلاف دينار.

قال القاضي الصَّيْمري: سمعتُ المَرْزُباني محمد بن عمران يقول: كان في داري خمسون ما بين لحاف ودواج معدة لأهل العلم الذينَ يبيتون عندي.





قيل: إن امرأةً أَتَتْ المَنِيعي أبو علي حسان بن سعيد الخالدي، بثوبٍ ليُنفق ثَمَنه في بناء الجامع، يساوي نصف دينار، فاشتراه منها بألفِ دينار، وسَلَّمتِ المال إلىٰ الخازن لإنفاقه، وخَبّأ الثوبَ كفنًا له.

قال أبو علي الصَّدَفي: كان ابنُ الخاضِبَة محمد بن أحمد محبوبـًا إلىٰ الناس كُلِّهم، فاضلاً، حَسَنَ الذِّكْرِ، ما رأيتُ مثلَه علىٰ طريقته، وكان لا يأتيه مستعيرٌ كتابـًا إلا أعطاه أو دلَّه عليه.

قالَ المُوَفَّقُ عبدُاللطيفِ: كان عَضُدُ الدِّين محمد بن عبدالله إذا وَزَنَ الذَّهَبَ، يَرْمِي تحتَ الحُصْرِ قُرَاضَةً كثيرةً ليأخذَهَا الفرَّاشون، ولا يَرَىٰ صَبِيًّا مِنَّا إلا وَضَعَ في يَدِهِ ديناراً، وكذا كانَ ولدانِ لهُ يَفْعَلَانِ؛ وهما : كمالُ الدين ، وعمادُ الدين.



وقال سِبط الجوزي: حُكِيَ عن الظاهر بأمر الله محمد بن أحمد العباسي، أنه دخلَ إلىٰ الخزائن، فقال له خادم: في أيامك تمتلئ، قال: ما عُملتِ الخزائن لتُملأ، بل لتفرغ وتُنْفَق في سبيل الله، إن الجَمْع شُغل التّجّار!





مدَحَ الحَيْص بَيْص، صاحب إرْبل كوكبري بن علي التركماني فقال له: ما أعرف ما تقول، ولكني أدري أنك تريد شيئًا! وأمر له بِخلْعة وفَرَس وخمس مئة دينار.



قال ابن خَلِّكان: كان بيت ابنُ الأثير علي بن محمد الجزري بالمَوْصِل مجمع الفضلاء.







وصايا

روىٰ أَيوب: عن أَبي قِلابة وغيره أَن فلانـًا مرَّ به أَصحاب النبيِّ، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: أَوصُوني، فجلعوا يوصُونه، وكان معاذ بن جبل في آخر القوم، فقال: أَوصني يرحمك الله، قال: قد أوصوك فلم يأْلُوا، وإِني سأجمع لك أَمرك: اعلم أَنه لا غنىٰ بك عن نصيبك من الدنيا، وأَنت إِلىٰ نصيبك إِلىٰ الآخرة أَفقر، فابدأ بنصيبك من الآخرة، فإِنه سيمر بك علىٰ نصيبك من الدنيا فينتظمه، ثم يزول معك أَينما زلت.

عن عبدالله بن مسعود قال: ارضَ بما قسم الله تكنْ مِن أَغنىٰ الناس، واجتنبِ المحارمَ تكن مِن أَورعِ الناس، وأَدِّ ما افترِضَ عليك تكن من أَعبد الناس.

جاء رجلٌ إلىٰ أبي الدَّرداء فقال: أوصني. قال: اذكر الله في السرَّاء يذكُرْك في الضَّراء؛ وإذا ذكرتَ الموتىٰ، فاجعلْ نَفَسَكَ كأحدهم، وإذا أشرفَتْ نَفْسُك علىٰ شيء من الدنيا، فانظُر إلىٰ ما يصير.





قال بشيرُ بنُ عمرو: قلنا لأبي مسعود البدري: أوصنا. قال: عليكم بالجماعة فإِنَّ الله لن يجمع الأمة علىٰ ضلالة؛ حتىٰ يستريح بَرٌّ، أو يُستراحَ مِنْ فاجر.

أيوب، عن حُمَيد بنِ هلال، عن أبي قَتَادة: قال لي عِمرانُ بن حُصَين: الزمْ مسجدكَ. قلتُ: فإنْ دُخِلَ عليَّ ؟ قال: الزَمْ بيتَكَ. قلتُ: فإِنْ دُخِلَ عليَّ ؟ قال: لو دخل عليَّ رجلٌ يُريدُ نفسي ومالي، لرأيتُ أن قد حَلَّ لي أن أقتله.

وعن فَضَالة بن عُبَيد قال: خِصالٌ ينفعُك اللهُ بهنَّ؛ إن استطعت أن تَعرِف ولا تُعْرَف، فافعل، وإن استطعت أن تسمع ولا تَكَلَّم، فافعل، وإن استطعت أن تَجلِسَ ولا يُجلَسَ إليك، فافعل.

كان هَرِمُ بن حيَّان يقول: ما أقبلَ عبدٌ بقلبه إلىٰ الله، إلاَّ أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتَّىٰ يرزُقَه وُدَّهم.



عن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تَبلُوَنَّ نفسك بهنَّ: لا تدخُلْ علىٰ السلطان، وإن قلتَ: آمُرُه بطاعةِ الله، ولا تُصغِيَنَّ بسَمْعِك إلىٰ هوىٰ، فإنك لا تدري ما يعلَقُ بقلبك منه، ولا تَدخُلْ علىٰ امرأةٍ، ولو قلتَ: أُعلِّمُها كتابَ الله.

قال مُعَاويةُ بنُ قُرَّة: لا تُجَالِس بعلمك السُّفهاء، ولا تُجالس بسفهك العُلماء.

كان يزيد بن الوليد (ولُقِّبَ بيزيد الناقص) يقول: يا بني أمية إياكُم والغِنَاء، فإنه ينقُص الحياء، ويزيدُ في الشهوة، ويهدِمُ المروءة، وينوبُ عن الخمر، فإن كنتم لا بدَّ فاعلين، فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنىٰ.

قال صالحُ بن أبي الأخضر: قلت لأيوب السَخْتِياني: أوصني، قال: أَقِلَّ الكلامَ.

قال أبوحازم: ما أحببتَ أن يكون معك في الآخرة، فاتركه اليوم.





قال أبوحازم: انظر كل عمل كرهتَ الموت من أجله، فاتركه ثم لا يضرُّك متىٰ مت.

قال أبوحازم: اكتُم حسناتك، كما تكتم سيئاتِك.

جاء رجل إلىٰ سُفيان الثوري يُشاوره في الحج، قال: لا تَصْحَبْ مَن يكرُم عليك، فإنْ ساويته في النَّفَقَةِ، أضَرَّ بِك، وإن تفضَّل عليك، استذَلَّك.

رُوي أن العُمَريُّ كان يلزم المقبرة كثيراً، معه كتاب يُطالعه، ويقول: لا أَوْعَظَ مِن قبرٍ، ولا آنَسَ مِن كتابٍ، ولا أَسلمَ من وَحدة.

حدثنا عبدالرَّزَّاق بن هَمَّام، أخبرنا مَعْمَر، عن زَيْدِ بنِ أسلم، عن أبيه قال: قال عُمر: يا أسلَم، لا يكن حُبُّكَ كَلَفَاً، ولا بُغْضُكَ تَلَفَاً. قلتُ: وكيف ذاك ؟ قال: إذا أحببتَ، فلا تَكْلَفْ كما يكلَفُ الصَّبِيُّ، وإذا أَبْغَضْتَ، فلا تُبْغِض بُغْضَاً تُحِبُّ أن يتلفَ صاحبك ويَهلِك.



وعن الشافعي: اجتنابُ المعاصي، وتَركُ ما لا يَعنيك، يُنَوِّرُ القلبَ، عليك بالخلوةِ، وقِلَّةِ الأكلِ، إيَّاكَ ومُخالطَة السُّفَهاءِ ومَن لا يُنصِفك، إذا تكلمتَ فيما لا يَعنيكَ ملكَتْكَ الكلمةُ، ولم تَملكْها.

قال الصُّورِي محمد بن المبارك: اعملْ لِله، فإنه أنفعُ لك مِن العَمل لِنَفسِك.

كان أحمدُ بن عاصِم الأنطاكي يقول: غَنيمةٌ باردةٌ: أصلِحْ فيما بَقي يُغْفَرْ لَك ما مَضىٰ.

وعن أبي جَعفرٍ المُسْنَدي محمد بن سلاّم قال: ودَّعتُ الفُضَيلَ بن عِياض فقلتُ: أوصِني. قال: كُن ذَنبًا ولا تَكن رأسًا.

وقال الجُنَيْدُ: دخلتُ علىٰ السَّرِيِّ بنُ المُغَلِّس السَّقطِيُّ وهو يجودُ بنفسه، فقلتُ: أوصني. قال: لا تصحبِ الأشرارَ، ولا تشتغلَنَّ عن اللهِ بُمجالسةِ الأخيار.





يقول ابنُ الحَدَّاد سعيد بن محمد بن صبيح: ما للعالِمِ وملاءَمَة المَضاجِع.

وعن يوسُفُ بنُ الحُسَيْن الرازي قال: بالأدب تَتَفهَّم العِلمْ، وبالعِلم يصحُّ لكَ العَمَل، وبالعَمَلِ تنالُ الحِكْمة، وبالحِكمة تفهمُ الزُّهد، وبالزُّهدِ تتركُ الدُّنيا، وترغبُ في الآخرة، وبذلك تنالُ رِضَىٰ اللهِ تعالىٰ.

قال الخُلْدي: كتب الجُنيد إلىٰ يوسُفَ بنِ الحُسَيْن الرازي: أُوصِيْكَ بَترِكِ الالتفاتِ إلىٰ كلِّ حالٍ مَضَتْ، فإنَّ الالتفاتَ إلىٰ ما مَضَىٰ شغلٌ عن الأولىٰ. وأُوصِيْك بتَركِ ملاحظةِ الحالِ الكائنة. اعملْ علىٰ تخليصِ هَمَّكَ من همَّكَ لهمِّك، واعملْ علىٰ مَحقِ شاهِدِكَ من شاهِدِك حتَّىٰ يكونَ الشاهدُ عليكَ شاهداً لكَ وبكَ ومنكَ.

قال أبو العبَّاس الرَّازي: كان أخي خادمًا للحلاَّج، فلمَّا كانت الليلةُ التي يُقتل فيها من الغد قلت: أوصِني يا سَيّدي. فقال: عليك نفسَكَ، إن لم تشغلْها شَغَلَتْكَ.





ومن وصيَّة ابنِ سيناء لأبي سعيد، فضلِ الله المِيْهَني: ليكنِ اللهُ تعالىٰ أولَ فكرٍ له وآخِرَه، وباطِنَ كُلِّ اعتبارٍ وظاهِرَه، ولتكن عينُه مكحولةً بالنظرِ إليه، وقَدَمُه موقوفةً علىٰ المُثُول بين يديه، مُسافراً بعقلِهِ في المَلَكُوتِ الأعلىٰ وما فيه من آيات ربِّه الكبرىٰ، وإذا انحطّ إلىٰ قراره، فليُنَزِّه اللهَ في آثاره، فإنه باطنٌ ظاهرٌ تجلَّىٰ لكُلِّ شيءٍ بكلِّ شيء، وتَذَكَّرَ نفسَه، ووَدَعَها، وكان معها كأنْ ليس معها، فأفضلُ الحركاتِ الصلاةُ، وأمثلُ السكناتِ الصيامُ، وأنفعُ البرّ الصدقةُ، وأزكىٰ السِّرِّ الاحتمالُ، وأبطلُ السعي الرياءُ، ولن تخلُصَ النفسُ عن الدونِ ما التفتَتْ إلىٰ قيلٍ وقالٍ وجدالٍ، وخيرُ العملِ ما صدر عن خالصِ نيَّة، وخيرُ النيَّة ما انفرجَ عن علمٍ، ومعرفةُ الله أولُ الأوائِل، إليه يصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّب. إلىٰ أن قال: والمشروبُ فيُهجَرُ تَلَهِّيـًا لا تَشَفِّيـًا، ولا يقصِّرُ في الأوضاع الشرعيّة، ويُعظِّمُ السُّنَن الإلهية.

يقول الغَزْنَوي أبو الحسن علي بن الحسين: حُزمةُ حُزنٍ خيرٌ من أعدال أعمال.

قال الدُّبيثي: كان المُسْتَنْجد بالله بن المقتفي لأمر الله يقولُ الشعرَ، ونقشُ خاتِمه: من أحب نفسَه عمل لها.



من وصايا الموفَّق عبداللطيف بن يوسف، قال: ينبغي أن تكون سيرتك سيرة الصَّدر الأول، فاقرأ السيرة النبوية، وتتبع أفعاله، واقتفِ آثارَهُ، وتشبَّه به ما أمكنك، من لم يحتمل ألم التَّعلّم لم يذق لذة العِلم، ومن لم يكدح لم يفلح. إذا خلوت من التَّعلم والتفكُّر فحرّك لسانك بالذِّكر وخاصة عند النَّوم، وإذا حدث لك فرحٌ بالدُّنيا فاذكر الموت وسُرعة الزَّوال وَكَثرة المُنَغِّصات. إذا حَزَبَك أمر فاسترجع وإذا اعتراك غَفْلَةٌ فاستغفر. واعلم أن للدين عقبة وعرقًا ينادي علىٰ صاحبه ونوراً وضَيئًا يشرف عليه ويدل عليه، يا محيي القلوب الميتة بالإيمان خذ بأيدينا من مهواة الهلكة، وطهرنا من دَرَن الدُّنيا بالإخلاص لك.





في العلم وطلبه وشرفه

قال عبدالله بن مسعود: والذي لا إله غيره لقد قرأتُ من في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بضعـًا وسبعين سورة، ولو أَعلم أَحداً أَعلم بكتاب الله مني تُبَلغُنيه الإِبل لأتيتُه.

قال أبوالدرداء: مالي أرىٰ عُلماءكم يذهبون، وجُهَّالكم لا يتعلمون! تعلَّموا، فإنَّ العالم والمتعلم شريكان في الأجر.

وعن أبي الدرداء، من وجه مرسل: لن تكون عالمـًا حتىٰ تكون متعلمـًا، ولا تكونُ متعلمـًا حتىٰ تكون بما علمتَ عاملاً؛ إنَّ أخوفَ ما أخافُ إذا وُقفتُ للحساب أن يُقال لي: ما عملتَ فيما علمت.

قال أبو موسىٰ الأشعري لابنه أبي بردة: ائتني بكل شيء كتبته، فمحاه، ثم قال: احفظْ كما حفظتُ.





قال الزهري: لولا أن زيد بن ثابت كتب الفرائض، لرأيت أنها ستذهب من الناس.

كان أبو هريرة يقول: رُبَّ كِيسٍ عند أبي هريرة لم يَفتحه. يعني: من العلم.

دعا أبو هريرة لنفسه: اللهُمَّ، إني أسألُكَ علماً لا يُنْسىٰ. فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آمين».

أَمَرَ عليّ بن أبي طالب أبو الأسود الدُّؤَلي بأن يضع شيء في النَّحو لمَّا سمع اللَّحنَ. فأراه أبو الأسود ما وضع، فقال عليٌّ: ما أحسن هذا النَّحوَ الذي نحوت، فمن ثمَّ سُمِّيَ النَّحْو نَحْواً.

عن أبي العالية الرِّياحي رُفيع بن مِهران، قال: كان ابن عباس يرفَعُني علىٰ السرير وقريش أسفَل مِنَ السرير، فتغامزَتْ بي قُريش، فقال ابن عباس: هكذا العِلْمُ يزيدُ الشريفَ شرفاً، ويُجْلِسُ المَمْلوكَ علىٰ الأسرَّة.



قال الشَّعبي عامر بن شراحيل: لعنَ اللهُ أرَأيت.

كان عُبَيدالله بن عبدالله من العلماء، وكان إذا دخلَ في صَلاته، فقعد إليه إنسان، لم يُقْبِل عليه حتىٰ يَفْرُغَ، وإنَّ عليَّ بنَ الحُسَين بن علي بي أبي طالب كان مِن أهلِ الفَضْل، وكان يأتيه، فيجلسُ إليه، فيطَوِّل عُبيدالله في صَلاته، ولا يلتفِتُ إليه، فقيل له: عليٌّ وهو مِمَّن هو منه! فقال: لا بُدَّ لمن طلب هذا الأمر أن يُعنَّىٰ به.

قال الزُّهرِي: حدَّثتُ عليُّ بن الحُسَيْن بن علي بي أبي طالب بحديث، فلمَّا فَرَغتُ قال: أحسنت! هكذا حُدِّثناهُ؛ قلتُ: ما أُراني إلاّ حدَّثتُكَ بحديثٍ أنْتَ أعَلَمُ بهِ منِّي؛ قال: لا تَقُلْ ذاك، فليسَ ما لا يُعرفُ من العِلم، إنمَّا العِلم ما عُرِف، وتواطأت عليه الألسُن.

مبارك بن فضالة، عن هشام، عن أبيه عُروَة بن الزبير بن العوَّام، أنه كان يقول لنا ونحن شباب: ما لكم لا تعلَّمون، إن تكونوا صغارَ قوم يُوشِكُ أن تكونوا كبارَ قوم، وما خير الشيخ أن يكون شيخًا وهو جاهل.





قال عُروَة بن الزبير بن العوَّام: ما حدَّثْتُ أحداً بشيءٍ من العِلْمِ قطّ لا يبلغُه عقلُهُ إلا كان ضلالةً عليه.

قال الحَسَنُ البَصريّ: لولا النِّسيانُ كان العلم كثيراً.

قال عِكْرِمَة مولىٰ ابن عباس: إن للعلم ثمنـًا، فأعطوه ثَمَنَهُ، قالوا: وما ثَمَنُه يا أبا عبدالله ؟ قال: أن تَضَعَهُ عِنْدَ من يُحسِنُ حِفظَهُ ولا يُضيِّعُه.

وعن طاووس بن كيسان اليماني قال: تَعلَّم لِنفسك، فإنَّ الناس قد ذهبت منهم الأمانةُ.

عن يحيىٰ بن سعيد، قال: أهلُ العلم أهلُ وسعة، وما برِحَ المفتون يختلِفُون، فُيحلل هذا، ويُحرم هذا، وإن المسألة لترِد علىٰ أحدهم كالجبل، فإذا فتح لها بابها، قال: ما أهونَ هذه.



قال يحيىٰ بن سعيد: لأن أكونَ كتبتُ كل ما أسمعُ أحبُّ إلىٰ من أن يكون لي مثل ما لي.

قال يحيىٰ بن أبي كثير: لا يُستطاع العِلْمُ براحة الجسد.

وصحَّ عن ربيعة، قال: العلم وسيلةٌ إلىٰ كُلِّ فضيلة.

قال عَمْرُو بن الحارث: الشرف شرفان: شرف العلم، وشرف السلطان، وشرفُ العِلْمِ أشرفُهما.

كان الأَوزاعي عبدالرحمن بن عمرو يقولُ: كانَ هذا العلمُ كريمـًا، يتلاقاه الرِّجالُ بينهم، فلمَّا دخلَ في الكُتُب، دَخَل فيه غيرُ أهله.

روي عن سُفيان الثَّوري قال: أُحِبُّ أن يكونَ صاحبُ العلم في كفايةٍ، فإنَّ الآفاتِ إليه أسرعُ، والألسنة إليه أسرع.



قالتْ أمُّ سفيان الثوري له: اذهبْ، فاطلب العلم حتىٰ أعولك بمِغْزَلي.

قال سفيان الثوري: ينبغي للرَّجل أن يُكرِهَ وَلَدَهُ علىٰ العلم، فإنه مسؤول عنه.

وعن الخَلِيْل بن أحمد الفراهيدي قال: لا يعرِفُ الرَّجلُ خطأَ معلِّمه، حتىٰ يُجَالِسَ غيرَه.

سأل هارون الرشيد الإمام مالك، وهو في منزله، ومعه بنوهُ، أن يقرأ عليهم. قال: ما قرأت علىٰ أحد منذ زمان وإنما يُقرأ عليَّ، فقال: أَخرِجِ الناسَ حتىٰ أقرأ أنا عليك، فقال: إذا مُنِعَ العامُّ لبعض الخاصِّ، لم ينتفعِ الخاصُّ. وأمر مَعْنَ ابن عيسىٰ، فقرأ عليه.

عن الإمام مالك، قال: ينبغي للعالم أن يُورِّث جُلَساءه قول: «لا أدري». حتىٰ يكونَ ذلك أصلاً يَفْزَعُونَ إليه.



قال مالك: حَقٌّ علىٰ من طلب العلم أن يكون له وَقَارٌ، وسكينةٌ، وخشية، والعلم حَسنٌ لمن رُزِقَ خَيره، وهو قَسْم من الله تعالىٰ، فلا تمكن الناسَ مِن نفسك، فإن من سعادة المرء أن يُوَفَّق للخير، وإن من شِقوة المرء أن لا يزال يُخطئ، وذلٌّ وإهانةٌ للعلمِ أن يتكلَّم الرجلُ بالعلم عند من لا يُطيعه.

قال شريكُ: الحديثُ أعزُّ علىٰ أهله من أن يُعرَّض للتكذيب.

محمد بن يزيد الرِّفاعي: حدثني حمدانُ بن الأصبهاني، قال: كنتُ عند شَريك، فأتاه بعضُ ولد المهدي، فاستند، فسأله عن حديث، فلم يلتفِت إليه، وأقبل علينا، ثم أعاد، فعاد بمثل ذلك. فقال: كأنك تَستَخِفُّ بأولاد الخليفة. قال: لا، ولكن العلمَ أزينُ عند أهله من أن تضيِّعوه. قال: فجثا علىٰ ركبتيه، ثم سأله، فقال شريك: هكذا يُطْلَبُ العِلْمُ.

قال ابن السَّمَّاك: كم من شيء إذا لم ينفع لم يضرَّ، لكن العلمَ إذا لم ينفعْ، ضَرَّ.





قَدِمَ الرشيد الرَّقة، فانجفل الناسُ خلفَ عَبدالله بن المُبارك، وتقطعت النِّعالُ، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أمُّ ولد لأمير المؤمنين من بُرج من قصر الخشب، فقالت: ما هذا ؟ قالُوا: عالم من أهل خُراسان، قَدِمَ. قالت: هذا والله المُلْكُ، لا ملكُ هارون الذي يجمع الناسَ إلا بِشُرَط وأعوانٍ.

عوتب عَبدالله بن المبارك فيما يُفرِّق من المال في البلدان دونَ بلده، قال: إني أعرفُ مكان قوم لهم فضلٌ وصدق، طلبُوا الحديث، فأحسنوا طَلبه لحاجة الناس إليهم، احتاجوا، فإن تركناهم، ضاعَ علمهم، وإن أعنَّاهم، بثُّوا العلم لأمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا أعلم بعد النبوة أفضلَ من بثِّ العلم.

قال عَبدالله بن المبارك: عجبتُ لمن لم يطلُب العلمَ، كيف تدعوه نفسُهُ إلىٰ مكرُمة.

وعن عَبدالله بن المبارك قال: أوَّلُ منفعة العِلم أن يُفيد بعضُهُم بعضاً.



قال عليُّ بن الحسن بن شقيق: قمتُ لأخرجَ مع عَبدالله بن المبارك في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث، أو ذاكرتُهُ، فما زِلنا نتذاكر، حتىٰ جاء المؤذِّن للصُّبح.

ورویٰ غيرُ واحد أن عَبدالله بن المبارك قيل له: إلىٰ متىٰ تكتُبُ العلم ؟ قال: لعل الكلمةَ التي أنتفع بها لم أكتُبْها بعد.

قال سُفيان بن عُيَيْنة: العلمُ إذا لم ينفعك، ضَرَّك.

وعن أبي بكر بن عيَّاش قال: الدخولُ في العلم سهلٌ، لكن الخروج منه إلىٰ الله شديدٌ.

كان هارون الرَّشيدُ يُجلُّ أبا مُعاوية الضرير، ويحتَرِمُه، قيل: إنَّه أكل عنده، فغسل يديه، فكان الرَّشيد هو الذي صَبَّ علىٰ يده، وقال: تَدري يا أبا معاوية من يَصُبُّ عليك ؟ فقال أبو معاوية: لا، فقال الرشيد: أَنا، إِجْلالاً للعلم. ثم وَصَلَهُ بذهَبٍ كثير.





قال عليُّ بنُ خَشْرم: ما رأيتُ بيد وَكيع بن الجرَّاح كتاباً قطُّ، إنما هو حِفظٌ، فسألتُهُ عن أدويةِ الحِفظِ، فقال: إنْ عَلَّمتُك الدواءَ استعملتَه ؟ قلتُ: إي واللهِ. قال: تركُ المعاصي ما جَرَّبتُ مثلَه للحفظ.

قال حفص بن عبدالله: ما أقبحَ بالشَّيخِ المُحَدِّث يَجلِسُ للقومِ، فيُحدِّثُ من كتاب.

قال الشافعيُّ: من تعلَّمَ القرآنَ عظُمتْ قيمتُه، ومن تكلَّم في الفقه نما قدرُه، ومن كتب الحديثَ قويت حُجَّتُه، ومن نظر في اللغة رقَّ طبعُه، ومن نظر في الحساب جزل رأيُه، ومن لم يَصُنْ نفسه، لم ينفعه علمُه.

قال خَلفُ بن هِشام: أشْكل عليَّ بابٌ من النحو، فأنفقتُ ثمانين ألف درهمٍ حتَّىٰ حَذَقْتُه.

قال عَلِيُّ بنُ المَدِينيِّ: رُبما أَذَّكَّرُ الحديث في الليل، فآمرُ الجارية تُسْرِج السراج فأنظر فيه.



قال أحمد بن حنبل: أخذنا هذا العِلمَ بالذل، فلا ندفعُه إلا بالذل.

ورُوِيَ عن سُحنون قال: من لم يعمل بِعِلْمِهِ، لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُه، بل يَضُرُّه.

وقال محمدُ بنُ أبي حاتم: سمعتُ هانئ بن النضر يقول: كنا عند محمدِ بن يوسف يعني: الفِرْيابي - بالشام، وكنا نَتَنَزَّه فِعْلَ الشباب في أكل الفِرْصادِ (أي عَجْمُ الزبيب والعنب. والفرصاد: التوت، وقيل حَملُه، وهو الأحمر منه) ونحوه، وكان محمدُ بن إسماعيل البُخَارِيُّ معنا، وكان لا يُزاحمنا في شيءٍ مما نحن فيه، ويُكِبُّ علىٰ العلم.

وعن أبو عبدِالله البُخَارِيُّ: لا أعلم شيئًا أَنْفَعَ للحفظِ من نَهْمَةِ الرجل، ومُداومةِ النظر.





قال أبو زُرْعَة الرَّازي: كتبتُ عن إبراهيم بن موسىٰ الرَّازي مئة ألفِ حديثٍ، وعن أبي بكر بن أبي شَيْبة مئة ألفٍ. فقلتُ له: بَلَغَني أنَّك تحفَظُ مئةَ ألفِ حديثٍ، تَقْدِرُ أن تُملي عليَّ ألفَ حديثٍ من حفظٍ ؟ قال: لا، ولكنْ إذا أُلقيَ عَليَّ عَرَفْتُ.

قال عبدُالرَّحمن بن أبي حاتم الرَّازي: لا يُسْتَطاع العِلم بِرَاحَةِ الجَسَد.

قال الخطيب: وبلغَني عن أبي حامد أحمدَ بنِ أبي طاهر الإِسْفَرايينيِّ الفقيه أنَّه قال: لو سافرَ رجلٌ إلىٰ الصِّين حتىٰ يحصِّلَ تفسيرَ محمدِ بنِ جرير لم يكنْ كثيراً.

قال أبو جعفر الطَّبريَّ لأصحابه: هل تَنْشَطُونَ لتاريخِ العالم من آدم إلىٰ وَقْتِنا ؟ قالوا: كم قدرُه ؟ فذكر نحو ثلاثينَ ألفِ ورقة، فقالوا: هذا ممَّا تَفْنىٰ الأعمارُ قبل تمامِه ! فقال: إنَّا لله ! ماتَتِ الهِمَم. فاختصرَ ذلك في نحو ثلاثةِ آلاف وَرقة، ولمَّا أن أرادَ أن يُمْليَ التفسيرَ قال لهم نحواً من ذلك، ثم أملاهُ علىٰ نحوٍ من قدر التاريخ.





قال محمد بن علي السُّلَميُّ: قمتُ ليلةً سحراً لآخذ النَّوْبة علىٰ ابن الأخْرمِ محمد بن النضر، فوجدتُ قد سبقني ثلاثون قارئًا، وقال: لم تدركْني النَّوْبَةُ إلىٰ العَصْر.

كان أبوعلي النَّيْسَابوري في أيام الحداثة يتعلَّم في الصَّاغة، فنصَحَهُ بعض العلماء لمَّا شاهد فرط ذكائه، وأشار عليه بطلب العلم، فهشَّ لذلك، وأَقبل علىٰ الطَّلب.

قال الخطيب: أنشدني أبو يَعْلىٰ بنُ الفرّاء، أنشدنا ابنُ الجَرَّاح عيسىٰ بن علي لنفسه:

رُبَّ مَيْتٍ قَدْ صَار بالعِلمِ حَيَّاً ... ومُبَقَّى قَدْ حازَ جَهْلاً وَغيّاً
فَاقْتَنوا العِلم كيْ تَنَالوا خُلوداً ... لا تَعُدُّو الحياةَ في الجهلِ شَيَّاً

ومن نظم أحمد بن فارس:

إذا كُنْتَ تؤذى بحرِّ المَصِيف ... ويُبْسِ الخَريفِ وَبَرْدِ الشِّتَا
ويُلْهِيكَ حُسْنُ زَمانِ الرَّبيع ... فَأَخْذُكَ لِلْعِلْمِ قُلْ لي مَتَى ؟

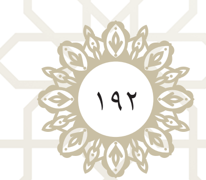




قال الخطيبُ: سمعتُ ابنُ رَزْقويه محمد بن أحمد يقول: واللّهِ ما أُحِبُّ الحياةَ إلا للذّكر وللتحديثِ.

وقال أبو إسماعيل: سمعتُ يحيىٰ بنَ عمّار يقولُ: العلومُ خمسةٌ؛ علمٌ هو حياةُ الدين وهو علمُ التوحيد، وعلمٌ هو قوتُ الدين وهو العِظَةُ والذِّكر، وعلمٌ هو دواءُ الدين وهو الفقهُ، وعلمٌ هو داءُ الدين وهو أخبارُ ما وقع بين السَّلَف، وعلمٌ هو هلاكُ الدين وهو الكلامُ.

يقول ابن سينا: قرأتُ جميع أجزاء الفلسفة، وكنت كلما أتحيَّر في مسألةٍ، أو لم أَظْفَر بالحدِّ الأوسطِ في قياسٍ، ترددتُ إلىٰ الجامع، وصليتُ وابتهَلتُ إلىٰ مبدعِ الكُلِّ حتىٰ فُتح لي المُنغلِقُ منه، وكنت أسهر، فمهما غلبني النوم، شربت قدحـًا. إلىٰ أن قال: حتىٰ استحكم معي جميعُ العلوم، وقرأتُ كتاب «مابعد الطبيعة»، فأشكل عليَّ حتىٰ أعدتُ قراءتَه أربعين مرةً، فحفظتُه ولا أفهمُه، فأيسْتُ. ثم وقع لي مجلدٌ لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب «مابعد الحِكمة الطبيعيّة»، ففتحَ علي أغراض الكُتُب، ففرحتُ، وتصدَّقْتُ بشيءٍ كثير. واتفق لسُلطان بُخارىٰ نوح مرضٌ صعبٌ، فأحضِرتُ (أي ابن سينا) مع الأطباء، وشاركُتهم في مُداواتِه، فسألتُ إذنـًا في نظرِ خزانةِ كُتُبِه، فدخلتُ فإذا





كُتُبٌ لا تُحصىٰ في كل فَنّ، فظفرتُ بفَوائِدَ. إلىٰ أن قال: فلما بلغُت ثمانيةَ عشر عامًا، فَرَغْتُ من هذه العُلُوم كُلِّها، وكنتُ إذْ ذاكَ للعلمِ أحفَظُ، ولكنّه معي اليومَ أنضَجُ، وإلا فالعلمُ واحدٌ لم يتجدَّد لي شيءٌ.

وقال أبو بكر محمدُ بنُ طرخان التركي: قال لي الإمام أبو محمد عبدُ الله بن محمد -يعني والدَ أبي بكر بن العربي-: أخبرني أبو محمد بنُ حزم أن سَبب تَعلُّمه الفقه أنه شَهِدَ جِنازة، فدخل المسجدَ، فجلس، ولم يركع، فقال له رجلٌ: قُم فَصلِّ تحية المسجد. وكان قد بلغ ستًّا وعشرين سنة. قال: فَقُمتُ وركعتُ، فلما رجعنا من الصلاة علىٰ الجنازة، دَخَلْتُ المسجد، فبادرتُ بالركوع، فقيل لي: اجلس اجلس، ليس ذا وقتَ صلاة -وكان بعدَ العصر- قال: فانصرفتُ وقد حَزِنْت، وقلت للأستاذ الذي رَبَّاني: دُلني علىٰ دار الفقيه أبي عبد الله بن دحُّون. فبدأتُ عليه موطأ مالك.

وقال الخطيب أبو بكر أحمد بن علي: استشرتُ البَرقاني في الرحلة إلىٰ أبي محمد بن النحاس بمصر، أو إلىٰ نيسابور إلىٰ أصحاب الأصم، فقال: إنَّك إن خرجتَ إلىٰ مصر إنما تَخْرُجُ إلىٰ واحد، إن فَاتَكَ، ضاعت رِحلَتُك، وإن خرجتَ إلىٰ نيسابور، ففيها جماعة، إن فاتك واحدٌ، أدركتَ مَنْ بقي. فخرجتُ إلىٰ نيسابور.





قال ابنُ الآبَنُوسي: كان الحافظُ الخطيب أبو بكر أحمد بن علي يَمشي وفي يده جُزءٌ يُطالعه.

يقول أبو سعد الحَرَمِي الحافظ: لا يَصبِرُ علىٰ الخَلِّ إلا دُودُه، يعني: لا يصبرُ علىٰ الحديث إلا أهلُهُ.

قال أبو العباس أحمد الخطيبي: كنت في حلقة الغزَّالي محمد بن محمد، فقال: مات أبي، وخلَّف لي ولأخي مقداراً يسيراً ففني بحيث تعذَّرَ علينا القوتُ، فصِرنا إلىٰ مدرسة نطْلُبُ الفقه، ليس المرادُ سوىٰ تحصيلِ القوت، فكان تعلُّمنا لذلك، لا لله، فأبىٰ أن يكون إلا للهِ.

قال أبو مسعود عبدالرحيم الحاجي: سمعتُ مُحمّد بن طَاهر أبو الفضل يقول: بُلْتُ الدَّمَ في طلب الحديث مرتين، مرة ببغداد، وأُخرىٰ بمكة، كنتُ أمشي حافياً في الحرِّ، فلحقني ذلك، وما ركبتُ دابة قطُّ في طلب الحديث، وكنت أَحْمِلُ كتبي علىٰ ظهري، وما سألتُ في حال الطلب أحداً، كنت أعيش علىٰ ما يأتي.



قال مُحمّد بن طَاهر أبو الفضل الحافظ: رحلتُ من طُوس إلىٰ أَصْبَهَان لأجل حديث أبي زُرعة الرازي الذي أخرجه مسلم عنه ذاكرني به بعضُ الرحالة بالليل، فلما أصبحتُ، سرتُ إلىٰ أَصْبَهَان، ولم أَحْلُلْ هنِّي حتىٰ دخلتُ علىٰ الشيخ أبي عمْرو، فقرأتُه عليه، عن أبيه، عن القطان، عن أبي زرعة، ودفع إليَّ ثلاثة أرغفةٍ وكُمَّثْرَاتَيْنِ، فما كان لي قوتٌ تلك الليلة غيره، ثم لزمتُه إلىٰ أن حصَّلت ما أريدُ، ثم خرجتُ إلىٰ بغداد، فلما عُدْتُ، كان قد تُوفِّيَ.



قال ابنُ عَقِيل علي بن عقيل: عصمني اللهُ في شبابي بأنواعٍ من العِصمة، وقَصَرَ محبتي علىٰ العلم، وما خالطتُ لعَّاباً قطُّ، ولا عاشرتُ إلا أمثالي مِن طلبة العلم، وأنا في عشر الثمانين أَجِدُ من الحِرصِ علىٰ العلم أشدّ مما كنتُ أجده وأنا ابنُ عشرين، وبلغتُ لاثنتي عشرة سنة، وأنا اليومَ لا أرىٰ نقصاً في الخاطر والفِكر والحفظ، وحدَّة النظر بالعين لرؤية الأهلة الخفية إلا أن القوَّة ضعيفة.



قال حمَّاد بن مسْلم: العلمُ مَحَجَّةٌ، فإذَا طلبتَه لِغير الله، صار حُجَّة.





قال أبو موسىٰ المديني: كان قاضي المَرَسْتان أبو بكر محمد بن عبدالباقي إماماً في فُنونٍ، وكان يقول: حَفِظْتُ القرآنَ وأنا ابنُ سبعٍ، وما مِن علمٍ إلا وقد نظرتُ فيه، وحصَّلتُ منه الكُلَّ أو البعضَ، إلا هذا النحوَ، فإني قليلُ البِضاعةِ فيه، وما أعلمُ أني ضَيَّعْتُ ساعةً من عُمري في لهوٍ أو لعب.

قال يوسفُ بنُ أحمد الشيرازيُّ في «أربعين البلدان» له: لما رحلت إلىٰ شيخنا رحلةِ الدنيا ومُسندِ العصرِ أبي الوقت عبد الأول بن عيسىٰ بن شعيب السجزي الهروي، قدَّر اللهُ لي الوصولَ إليه في آخر بلاد كرمان، فسلمتُ عليه، وقبلتُه، وجلستُ بين يديه، فقال لي: ما أقدمكَ هذه البلاد؟ قلتُ: كان قصدي إليك، ومُعوَّلي بعد الله عليك، وقد كتبتُ ما وقع إليَّ من حديثك بقلمي، وسعيت إليك بقدمي، لأُدرِكَ بركةَ أنفاسِك، وأحظىٰ بعُلوِّ إسنادِك. فقال: وفقك اللهُ وإيّانا لمرضاتِه، وجعل سَعيَنا له، وقَصدَنا إليه، لو كُنتَ عَرَفتني حق معرفتي، لما سلَّمت عليَّ، ولا جلستَ بين يديَّ، ثم بكىٰ بُكاءً طويلاً، وأبكىٰ من حضرهُ، ثم قال: اللهم استُرنا بستركَ الجميلِ، واجعل تحت السترِ ما ترضىٰ به عنّا، يا ولدي، تعلمُ أني رحلتُ أيضاً لسماع «الصحيح» ماشياً مع والدي من هَرَاة إلىٰ الداووديِّ ببُوشَنج ولي دون عشرِ سنين، فكان والدي يضعُ علىٰ يديَّ حَجَرين، ويقول: احملْهما. فكنتُ من خوفهِ أحفظهُما بيديَّ، وأمشي وهو يتأمَّلُني، فإذا رآني قد عييتُ أَمَرني أن أُلقي حجراً واحداً، فأُلقي،





وَيَخِفُّ عني فأمشي إلىٰ أن يتبيَّنَ له تعبي، فيقول لي: هل عييتَ ؟ فأخافُه، وأقولُ: لا. فيقول: لم تُقصِّر في المشي ؟ فأسرُع بين يديه ساعةً، ثم أعجِزُ، فيأخُذ الآخر، فيُلقيه، فأمشي حتىٰ أعطَبَ، فحينئذٍ كان يأخُذني ويحملُني، وكنا نلتقي جماعةَ الفلاحين وغيرهم، فيقولون: يا شيخ عيسىٰ، ادفع إلينا هذا الطفلَ نُركبُه وإياكَ إلىٰ بُوشَنْج، فيقول: معاذَ الله أن نركب في طلب أحاديثِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل نمشي، وإذا عجز أركبتُه علىٰ رأسي إجلالاً لحديثِ رسولِ الله ورجاءَ ثوابِه.

قال أبو النَّجيب عبدالقاهر بن عبدالله: كنتُ أدخُل علىٰ الشيخ حمَّادٍ وفيَّ فُتُور، فيقولُ: دخلتَ عليَّ وعليكَ ظُلمة، وكنتُ أبقىٰ اليومين والثلاثةَ لا أستطعم بزادٍ، فأنزلُ في دِجلة أتقلَّبُ ليسكُن جُوعي، ثم اتخذتُ قِرْبةً أستقي بها، فمن أعطاني شيئًا أخذتُه، ومن لم يُعطِني لم أطالِبْهُ، ولما تعذَّر ذلك في الشتاء عليَّ، خرجتُ إلىٰ سوق، فوجدتُ رجلاً بين يديه طَبَرْزَدٌ، وعنده جماعةٌ يدقُّون الأرزَّ، فقُلت: استعملني. قال: أرِني يدكَ. فأريتُه، قال: هذه يدٌ لا تصلُح إلا للقَلَم، وأعطاني ورقةً فيها ذهبٌ، فقُلت: لا آخذُ إلا أجرةَ عملي، فإن شئتَ نسختُ لك بالأُجرة. قال: اصعد، وقال لغُلامه: ناوله المِدقَّةَ، فدققتُ معهم وهو يلحظُني، فلما عملتُ ساعةً، قال: تعالَ، فناولني الذهب، وقال: هذه أجرتك، فأخذته، ثم أوقع الله في قلبي الاشتغال بالعلم، فاشتغلتُ حتىٰ

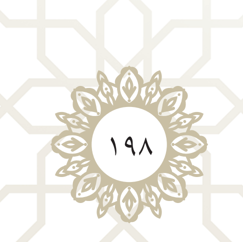




أتقنت المذهب، وقرأت الأصلين، وحفظت «الوسيط» للواحدي في التفسير، وسمعت كتب الحديث المشهورة.

قال الموفَّقُ عبدُاللطيف: حكىٰ لي العِمَاد محمد بن حامد، قالَ: طلبني كمالُ الدين لنيابته في الإِنشاء، فقلتُ: لا أعرف الكتابةَ، قال: إنما أُرِيْدُ منك أن تُثْبِتَ ما يجري، فَتُخْبِرَني به، فَصِرْتُ أَرَىٰ الكتبَ تُكْتَبُ إلىٰ الأطرافِ، فَقُلْتُ: لو طُلِبَ مِنِّي أن أكتبَ مثل هذا، ما كنتُ أصنع ؟ فأخذتُ أحفظُ الكتبَ، وأُحاكيها، وأُروِّض نفسي، فكتبتُ إلىٰ بغدادَ كتباً، ولم أُطلعْ عليها أحداً، فقال كمالُ الدين يوماً: ليتنا وجدنا من يكتبُ إلىٰ بغدادَ، ويريحنا، فقلتُ: أنا، فكتبتُ، وعرضتُ عليه، فأعجبه، واستكتبني، فلما توجَّه أسد الدين إلىٰ مصرَ المرةَ الثالثةَ، صحبتُه.









في التزويج والأزواج والطلاق

طاف سعد بن أَبي وقاص علىٰ تسع جوار في ليلة، ثم استيقظت العاشرة لما أَيقظها، فنام هو، فاستحيتْ أَن تُوقظه.

خطب أبو طلحة الأنصاري أُمَّ سُلَيم ؟ فقالت: أما إني فيك لراغبة، وما مثلُكَ يُرَدُّ، ولكنك كافر، فإن تُسْلِمْ فذلك مَهري، لا أسألُك غيره. فأسلم، وتزوجها. قال ثابت: فما سمعنا بمهرٍ كان قط أكرمَ من مهر أم سُلَيم: الإِسلام.

لما بلغ أبا سُفيان نكاحُ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ابنته أم حبيبة أم المؤمنين، قال: ذاك الفحل، لا يُقرعُ أنفُه. أي أنه كفء كريم لا يُرد.

طلَّق رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حفصة أُمُّ المؤمنين؛ فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فحثا علىٰ رأسه التراب، وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنتِه. فنزل جبريل من الغد، وقال للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: إنَّ الله يأمُرُكَ أنَ تُراجعَ حَفصةَ رحمةً لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.





قيل أن عبدالعزيز بن رُفَيع، قلما تزوَّج امرأة إلا وطلبت الطلاقَ لكثرة استمتاعه بها.

لمَّا دخل مَعمَر بن راشد صنعاء، كرِهوا أن يخرجَ مِن بين أظْهرهم، فقال لهم رجل: قَيِّدوه. قال: فَزوَّجوه.

قيل لإِبراهيم بن أدهم: لو تزوجتَ ؟ قال: لو أمكنني أن أطلق نفسي لفعلت.

روىٰ الخطيبُ عن الوزيرِ عليِّ بن المُسْلمة أنّ الصّبّاغ محمد بن الطيب بن سعد تزوّج بأزيدَ من تسع مئة امرأة.

قال إسحاق: كنتُ يومـًا عند أبي نصر السِّجْزِيِّ، فدُقَّ البابُ، فقمتُ ففتحتُ، فدخلتْ امرأةٌ، وأخرجتْ كيسـًا فيه ألفُ دينار، فوضعتْهُ بين يَدَي الشيخِ، وقالت: أنفِقْهَا كما ترىٰ ! قال: ما المقصودُ ؟ قالت: تتزوَّجُني ولا حاجةَ لي في الزَّوج، لكن لأخدُمَكَ. فأمرها بأخْذِ الكيسِ، وأن تَنْصَرِفَ، فلما



انصرَفَتْ، قال: خرجتُ من سِجِسْتَان بنيَّةِ طلب العلم، ومتىٰ تزوجتُ، سقطَ عني هذا الاسمُ، وما أُوثِر علىٰ ثَواب طلبِ العلم شيئًا.

حَجَّ أبو المظفَّر السَّمْعاني منصور بن محمد، علىٰ البريَّة أيامَ انقطع الرَّكْبُ، فأُخِذَ هو وجماعةٌ، فصَبَر إلىٰ أن خلَّصه الله من الأعراب، وحجَّ وصَحب الزَّنْجاني. كان يقول: أَسَرونا، فكنتُ أَرعىٰ جِمَالَهم، فاتَّفقَ أنَّ أميرَهُم أراد أن يُزوِّج بنته، فقالوا: نحتاجُ أن نرحل إلىٰ الحَضَر لأجل من يَعقِدُ لنا. فقال رجل منا: هذا الذي يَرعىٰ جمالَكُم فقيهُ خُراسان، فَسَألوني عن أشياءَ، فأجبتُهُم، وكلمتُهُم بالعربية، فخَجِلُوا واعتَذَرُوا، فعقدتُ لهم العَقْدَ، وقلتُ الخُطبةَ، فَفرِحُوا، وسألوني أن أقبلَ منهم شيئًا، فامتنعتُ، فحملوني إلىٰ مكة وسَط العام.









في العبادة وفعل الطاعات

قال أبوالدرداء: كنتُ تاجراً قبل المَبعث، فلما جاء الإِسلامُ، جمعتُ التِّجارةَ والعِبادةَ، فلم يجتمعا، فتركتُ التجارة، ولزمتُ العبادة.

كان أبوالدرداء يُصلي، ثم يُقرئ ويَقرأ، حتىٰ إذا أراد القيام، قال لأصحابه: هل من وليمة أو عَقِيقة نشهدُها ؟ فإن قالوا: نعم، وإلا قال: اللهم، إني أشهدُك أني صائم. وهو الذي سنَّ هذه الحِلَق للقراءة.

قيل لأُم الدرداء: أيُّ عبادة أبي الدرداء كانت أكثر ؟ قالت: التفكر والاعتبار.

وعن أبي الدرداء: تفكُّرُ ساعة خيرٌ من قيام ليلة.

قيل لأبي الدرداء –وكان لا يفترُ من الذِّكر–: كم تسبِّح في كل يوم ؟ قال: مئة ألف، إلاَّ أَنْ تُخطئ الأصابع.

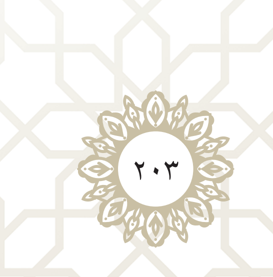


اجتهد أبو موسىٰ الأشعريُّ قبل موته اجتهاداً شديداً، فقيل له: لو أمسكتَ ورفقتَ بنفسك ؟ قال: إِنَّ الخيل إذا أُرسِلَتْ فقاربَتْ رأس مَجراها، أَخْرَجَتْ جميعَ ما عندها؛ والذي بقي من أجلي أقلُّ من ذلك.

روىٰ أبوالضحىٰ، عن مسروق: قال لي رجلٌ من أهل مكة: هذا مُقام أخيك تميم الدَّاريّ: صلَّ ليلةً حتىٰ أصبح أو كاد، يقرأُ آيةً يُردِّدُها، ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية:٢١].

نام تَمِيمُ الدَّاريّ ليلةً لم يقم يتهجَّدُ، فقامَ سنةً لم يَنم فيها، عُقوبةً للذي صنع.

كان شدَّاد بن أَوْس إذا دخل الفراش، يتقلَّب علىٰ فراشه، لا يأتيه النوم فيقولُ: اللهُمَّ، إنَّ النار أَذْهَبَتْ مني النوم. فيقُومُ، فيصلي حتىٰ يصبح.





كان لأبي هريرة خيط فيه ألفا عُقدة، لا يَنام حتىٰ يُسَبِّحَ به.

عَلَّقَ أبو مسلم الخَوْلاني سَوْطـًا في المسجد، فكان يقولُ: أنا أَوْلىٰ بالسَّوْط من البهائم، فإذا فَتَر، مَشَقَ ساقَيْه سَوْطـًا أَوْ سوْطَين. قال: وكان يقول: لو رأيتُ الجَنَّة عِيَانـًا أو النَّار عيانـًا ما كان عندي مُستزادٌ.

قال ابن حِبَّان: كان نافع بن جُبَيْر بن مطعم بن عدي من خيار الناس، كان يَحُجُّ ماشيـًا وناقتُه تُقاد.

قال ثابت بن أسلم: كابدتُ الصلاة عشرين سنة، وتنعمتُ بها عشرينَ سنة.

قال عبدالله بن أبي زكريا: ما عالجتُ من العبادة شيئـًا أشدَّ مِن السكوتِ.



كان أبو جعفر القارئ، يقومُ الليل، فإذا أقرأ يَنْعُسُ، فيقول لهم: ضعوا الحصىٰ بين أصابعي وضُموها، فكانوا يفعلون ذلك، والنوم يغلِبُه.

قالت بنت لجار منصور بن المعتمِر أبو عتاب السلمي: يا أبة أين الخشبة التي كانت في سطح منصور قائمة ؟ قال: يا بنية ذاك منصورٌ، كان يقوم الليل.

سمع أبو حنيفة رجل يقول لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل. فقال أبوحنيفة: والله لا يُتحدثُ عني بما لم أفعل.

كان سعيد بن عبدالعزيز إذا فاتَته صلاةُ الجماعة بكىٰ.

كان خالد بن عبدالله مِن أفاضلِ المسلمين، اشترىٰ نفسه مِن الله أربع مرات: فتصدق بوزنِ نفسه فضةً أربعَ مرات.



قال ابن أبي الدنيا: حدثني من سمع عمرو بن عَوْن يقول: مَكَثَ هُشيم يصلِّي الفجر بوضوء العشاء قبل أن يموت عِشرين سنةً.

كان عبدالله بن المُبارك يُعجبه إذا خَتَم القرآن أن يكون دعاؤه في السُّجود.

روىٰ سليمان بن أيُّوب، سمعتُ سفيان بن عُيينة يقول: شهدتُ ثمانين موقفًا.

عن عاصمِ بن عليٍّ قال: كنتُ أنا ويزيدُ بنُ هارون عند قَيسِ بنِ الرَّبيع، فأما يزيدُ، فكان إذا صلَّىٰ العَتَمَة، لا يزالُ قائمًا حتىٰ يُصلِّي الغداةَ بذلك الوضوءِ نَيِّفًا وأربعين سنة.

كانت الجاريةُ تَفْرُشُ لعليِّ بنِ بكَّار، فَيَلْمَسهُ بيده، ويقولُ: واللهِ إنَّكَ لطيِّبٌ، والله إنَّك لباردٌ، والله لا علوتُكَ الليلةَ، وكان يُصلِّي الفجر، بوضُوءِ العَتَمَة.



قال الشافعيُّ: تَعبَّدْ من قبل أَنْ تَرَأَّس، فإنك إنْ ترأَّستَ، لم تقدِرْ أن تتعبَّد.

قال ابنُ سَماعَة: مَكثتُ أَربعين سنةً لم تَفُتني التكبيرةُ الأولىٰ إلا يَوْمَ ماتت أمي.

قال أَحْمَدُ بنُ حَرب النيسابوري: عبدتُ الله خمسين سنة، فما وجدت حلاوةَ العبادة حتىٰ تركتُ ثلاثة أشياء: تركت رِضىٰ الناس حتىٰ قَدَرت أن أتكلم بالحق، وتركتُ صحبةَ الفاسقين حتىٰ وجدتُ صُحبَةَ الصالحين، وتركتُ حلاوةَ الدنيا حتىٰ وجدت حلاوة الآخرة.

وعن عبدِ الله بن إِسْحاق بن التَّبَّان، أنّ ابن عَبْدوس محمد بن إبراهيم أقام أربعَ عشرةَ سَنةً يُصلي الصُّبح بوضوءِ العِشَاء، وكان غَاية من التَّواضع.



قال أبوعبدالله بنُ بَطَّة: سمعتُ النَّجَّاد، سمعتُ عبدَالله بن أحمد يقول: لما وَرَدَ علينا أبو زُرْعَة الرَّازي، نَزَل عندنا، فقال لي أبي: يا بُنَي ! قد اعْتَضْتُ بِنَوافِلي مذاكرةَ هذا الشَّيخِ.

قال الخُلْدي: رأيتُ النُّوري أحمد بن محمد الخراساني في النَّوم فقلت: ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقال: طاحت تلكَ الإشارات، وغابَتْ تلكَ العِبارات، وفَنِيَتْ تلكَ العُلوم، ونِفدَتْ تلكَ الرُّسوم، وما نَفَعنا إلَّا ركعاتٌ كنَّا نركَعُها في الأَسْحَار.

وقد ورد عن الغَضَائِريّ علي بن عبدالحميد أَنه قال: حججتُ علىٰ رِجلي ذاهبـًا من حلب وراجعـًا أَربعينَ حجَّة.

قال أبو عبدالله بنُ بِشْر القَطَّان: ما رأيتُ أحسنَ انتِزَاعـًا لِمَا أراد من آي القُرآن من أبي سهل بنِ زياد، وكان جارَنا، وكان يُديم صَلاة اللَّيل، والتِّلاوَة، فَلِكثرة دَرْسه، صَار القُرْآن كأنَّه بين عَيْنَيه.



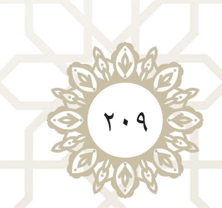


ورُوِيَ عن ابنِ خفيف، أنَّه كان به وجعُ الخاصِرة، فكان إذا أصابه أقعَدَهُ عن الحركة، فكان إذا نُودِي بالصَّلاة يحملُ علىٰ ظهر رَجل، فقيل له: لو خفَّفتَ علىٰ نفسِكَ ؟! قال: إذا سمعتُمْ حَيَّ علىٰ الصَّلاة وَلَمْ تَرَوْني في الصف فاطلبوني في المقبرة.

قال أبو الوليد القُشَيري: سمعتُ أبا عبدالرحمن السُّلمي يسألُ أبا علي الدقّاق، فقال: الذِّكْرُ أتمُّ أم الفِكْرُ ؟ فقال: ما الذي يُفتَح للشيخ فيه ؟ قال أبوعبدالرحمن: عندي الذكرُ أتمُّ، لأنّ الحقَّ يُوصف بالذِّكْرِ، ولا يُوصف بالفِكْر. فاستحسنه أبوعلي.

من قول ابن رضوان أبو الحسن علي بن رضوان المصري الفيلسوف: أفضلُ الطاعات النظرُ في المَلَكُوت، وتَمجيدُ المالِك لها.

قال أبو نُعيم عُبيدالله بن أبي علي الحدّاد: سمعتُ بعضَ جيران الفَضل بن أبي حرب يقول: ما ترك أحداً في جِواره منذ ثلاثين سنة أن ينامَ مِن قِراءته وبُكائِه.





كان الكَرَجي أحمد بن الحسن يقول: أنا بحُكمِكُم إلا يومَ الجمعة، فإنَّه للتبكير والتِّلاوة.

كان ابن جَزْلَهَ يحيىٰ بن عيسىٰ نصرانيًا فأسلم في كُهولتِه، وكان يُداوي الفُقراء من ماله.

كان ابنُ المُهتدي بالله أبو الفضل محمد بن عبدالله خطيبًا بجامع القصر، ثقةً صالحًا، سَرَدَ الصومَ أزيدَ من خمسين سنة.

كان الحازميُّ محمد بن موسىٰ رحمه الله في رباط البَدِيع، فكان يدخل بيتَهُ في كل ليلةٍ، ويطالعُ، ويكتبُ إلىٰ طلوعِ الفجرِ، فقال البديعُ للخادمِ: لا تدفعْ إليه الليلةَ بزراً للسِّراجِ لعله يستريحُ الليلةَ. قال: فلما جَنَّ اللّيلُ، اعتذرَ إليهِ الخادمُ لأجلِ انقطاع البزرِ، فدخل بيتَه، وصفَّ قَدَمَيْهِ يُصلِّي، ويتلو، إلىٰ أن طَلَعَ الفجرُ، وكان الشيخُ قد خرجَ ليعرفَ خبرَه، فوجده في الصلاةِ.



يقالُ عن ابن رُشْد الحَفيد محمد بن أحمد: إنَّه ما تَرَكَ الاشتغالَ مذْ عَقَلَ سوىٰ ليلتين: ليلة موتِ أبيه، وليلة عرسهِ.



سُئِلَ أبو الفرج ابن الجَوْزِيَ: أَيُّما أفضَلُ: أسبِّحُ أو أستغفرُ ؟ قال: الثَّوبُ الوسخُ أحوجُ إلىٰ الصابونِ من البخور.



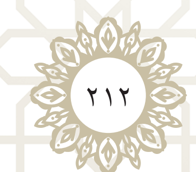
حِكَمٌ سائرة في أبوابٍ متفرقة

قال أبو الدرداء: أعوذ بالله من تفرقة القلب. قيل: وما تفرقة القلب ؟ قال: أن يُجعل لي في كل واد مال.

قال أبو الدَّرْدَاء: اعبد الله كأنك تراه وعُدَّ نفسك في الموتىٰ، وإياكَ ودعوةَ المظلوم، واعلم أنَّ قليلاً يُغنيك خيرٌ من كثير يُلهيك، وأَنَّ البرَّ لا يَبْلىٰ، وأن الإِثم لا يُنْسىٰ.

قال أبو الدرداء: أهلُ الأموال يأكلون ونأكل، ويشربُون ونشرب، ويلبَسُون ونلبَس، ويركبون ونركب، ولهم فضول أموال ينظرون إليها، وننظُر إليها معهم، وحسابُهم عليها ونحنُ منها بُرآء.

قال عمر لأبي مسعود البدري: نُبِّئت أنك تُفتي الناس، ولستَ بأمير ! فولِّ حارَّها من تولىٰ قارَّها. يدل علىٰ أن مذهب عمر أن يمنع الإمام من أفتىٰ بلا إذن (القار: من القر: البرد، قال ابن الأثير: جعل الحر كناية عن الشر





والشدة، والبرد كناية عن الخير والهيِّن، أراد: ولِّ شرها من تولىٰ خيرها، وولِّ شديدها من تولىٰ هينها).

بينا أبو ثعلبة الخُشَني، وكعب جالسين؛ إذ قال أبو ثعلبة: يا أبا إسحاق، ما مِنْ عبد تفرَّغَ لعبادةِ الله إلا كفاه اللهُ مؤونة الدنيا.

قال عَمْرو بنُ العاص: ليس العاقلُ مَنْ يعرفُ الخيرَ من الشرِّ، ولكن هو الذي يعرفُ خيرَ الشرَّين.

خطب الحسن بن علي بن أبي طالب فقال: إن أكيس الكيس التُّقىٰ، وإن أحمق الحمق الفجور.

وعن أبو مسلم الخَوْلاني قال: إن الخيل لا تجري الغايات وهن بدن، إنما تجري وهُنَّ ضُمَّر.



عن الأَحْنَفُ بنُ قَيْس: ثلاثة لا ينتصِفُون من ثلاثة: شريفٌ من دنيء وبَرٌّ من فاجر، وحَلِيمٌ من أحمق.

قال الأَحْنَفُ بنُ قَيْس: مَن أسرع إلىٰ الناس بما يكرهون، قالوا فيه ما لا يعلمون.

وعن الأَحْنَفُ بنُ قَيْس قال: الكامِلُ من عُدَّتْ سقطاتُه.

قال الأَحْنَفُ بنُ قَيْس: العِتابُ خيرٌ من الحِقد.

كان مُطرِّفُ بن عبدالله بن الشِّخِّير يقول: عقول الناس علىٰ قدر زمانهم.

وعن سَعيد بن المُسيِّب قال: من استَغْنىٰ بالله، افتَقَر الناسُ إليه.



وعن المُهَلِّب بن أبي صفرة، قال: يُعجبني في الرجل، أن أرىٰ عقلَه زائداً علىٰ لسانه.

وقال ابن نُمَيْر، عن هشام، عن أبيه عُروَة بن الزبير بن العوَّام، قال: كان يُقال: أزهد الناس في عالم أهلُه.

قال أيُّوب السّختيانيّ: رآني أبو قلابة الجَرمي وقد اشتريتُ تمراً رديئاً، فقال: أما علمتَ أن الله قد نزع من كُلِّ رديءٍ بَرَكتَه.

وعن يزيد بن المُهَلَّب، قال: مَن عُرِفَ بالصِّدق جاز كذِبُه، ومَن عُرِف بالكَذِب، لم يجُز صدقه.

قال خالد بن مَعدان: من التمسَ المَحَامد في مخالفةِ الحقّ، ردَّ الله تلك المَحَامد عليه ذَمّاً؛ ومَن اجترأ علىٰ الملَاوِم في موافقة الحقّ، ردّ اللهُ تلك المَلَاوِمَ عليه حَمْداً.



قال الحَسَنُ البَصريّ: بئس الرفيقان، الدِّينارُ والدِّرْهَم، لا ينفعانِكَ حتَّىٰ يُفارقاك.

قال مَيْمُون بنُ مِهْران: ثلاثة تُؤدَّىٰ إلىٰ البَرِّ والفاجِرِ: الأمَانَةُ، والعَهْدُ، وَصِلةُ الرَّحِم.

وعن مَيْمُونُ بنُ مِهْران قال: مَن أساء سِرَّاً، فليتُب سِرَّاً، ومَن أساء علانية، فليتُب علانية، فإن الناس يُعيِّرون ولا يغفِرُون، والله يغفِرُ ولا يُعيِّر.

روىٰ الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبابة قال: إذا رأيتَ الرجل لجُوجًا مُماريًا مُعْجبًا برأيه، فقد تمَّت خسارتُه.

قال يونس بن مَيْسَرَة: إذا تكلَّفت ما لا يَعنيك لقيت ما يُعنِّيك.



قال معمر: قلتُ لحماد بن أبي سليمان: كنتَ رأسًا، وكنتَ إمامًا في أصحابك، فخالفتهم فصِرت تابعًا، قال: إني أن أكون تابعًا في الحقِّ خيرٌ من أن أكونَ رأسًا في الباطل.

قال قتادة: إن الرجل ليشبع من الكلام كما يشبعُ مِن الطعام.

يقول محمد بن المُنْكَدِرِ: نِعم العونُ علىٰ تقوىٰ الله الغنىٰ.

خطبَ خالد بن عبدالله القسري بواسط، فقال: إنَّ أكرمَ النَّاسِ من أعطىٰ من لا يَرجوه، وأعظم الناس عفواً من عَفَا عن قُدرة، وأوصل النَّاسِ من وصل عن قطيعة.

قال عُبَيْدالله بن أبي جعفر: ما استعان عبدٌ علىٰ دينه، بمثلِ الخشيةِ من الله.



قال السَّفَّاح: من شدَّد نفَّر، ومَنْ لانَ تألَّفَ.

قال أبوحازم: ليس للملوك صديق، ولا للحسود راحة، والنظر في العواقب تلقيح العقول.

قال أبوحازم: يسير الدنيا يشغلُ عن كثير الآخرة. وقال: انظر الذي يُصلِحُك فاعمل به، وإن كان فساداً للناس، وانظر الذي يُفسدك فدعه، وإن كان صلاحـًا للناس.

قال أبوحازم: شيئان إذا عملت بهما، أصبتَ خير الدنيا والآخرة، لا أطوِّل عليك، قيل ماهُما ؟ قال: تحملُ ما تكره إذا أحبَّه الله، وتتركُ ما تحبُّ إذا كرهه الله.

خالد بن صفوان هو القائل: ثلاثةٌ يُعْرَفُونَ عِنْدَ ثَلاثَةٍ: الحَلِيمُ عِنْدَ الغَضَبِ، والشُّجَاعُ عِنْدَ اللِّقَاء، والصَّدِيقُ عِنْدَ النَّائِبَةِ.





قال جعفر بن محمد: لا زادَ أفضلُ مِن التقوىٰ، ولا شيء أحسنُ من الصمت، ولا عدوَّ أضرُّ من الجهل، ولا داءَ أدوأُ من الكذب.

قال يَونُس بن عُبَيْد: لا تجد من البر شيئًا واحداً يتبعه البر كله غيرَ اللسان. فإنك تجد الرجل يُكثر الصيام، ويفطر علىٰ الحرام، ويقوم الليل، ويشهد بالزور بالنهار. وذكر أشياء نحو هذا. ولكن لا تجده لا يتكلم إلا بحق، فيخالف ذلك عمله أبداً.

عن عَبدُالله بنُ شُبرُمَة قال: مَنْ بالغ في الخُصومة أثم، ومن قصر فيها خصم. ولا يطيق الحق من بالىٰ علىٰ من دار الأمر.

قال أبو عمرو بن العلاء: كن علىٰ حذرٍ من الكريم إذا أهنته، ومن اللئيم إذا أكرمته، ومن العاقل إذا أحرجته، ومن الأحمق إذا مازحته، ومن الفاجر إذا عاشرته. وليس من الأدب أن تُجيب من لا يسألُك، أو تسأل من لا يُجيبك، أو تحدث من لا ينصت لك.





قال أبو جعفر المنصور: الخليفة لا يُصْلِحُه إلا التَّقوىٰ، والسُّلْطان لا يُصلحه إلا الطَّاعة، والرعيَّةُ لا يُصلحها إلا العدل، وأولىٰ الناسِ بالعفو أقدرُهم علىٰ العقوبةِ، وأنقصُ النَّاس عقلاً من ظَلَم مَنْ هُوَ دُونَه.

وقالَ عبدالرحمن بن عمرو الأَوزاعيُّ: مَنْ أكثر ذكرَ الموتِ، كفاهُ اليَسِيرُ، ومن عَرَفَ أنَّ منطقه من عمله، قلَّ كلامُه.

وعن عبدالرحمن بن عمرو الأَوزاعي قال: عليكَ بآثار مَن سَلَف، وإن رَفَضَك النَّاس، وإيَّاك وآراء الرِّجالِ، وإن زخْرفوه لكَ بالقول، فإن الأمر ينجلي وأنتَ علىٰ طريقٍ مستقيم.

وكان عبدالرحمن بن عمرو الأَوزاعي يقول: إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم الجَدَلَ، ومنعهم العَمَلَ.

قال مِسعَر بن كدام: من صَبرَ علىٰ الخلِّ والبقْل، لم يُسْتَعْبد.





قال سعيد بن عبدالعزيز: لا خيرَ في الحياة إلا لأحد رجلين: صموتٍ واعٍ، وناطقٍ عارف.

وعن عَبدالله بن المُبارك قال: من بَخِلَ بالعلم، ابتُلي بثلاثٍ: إما موتٌ يُذهِبُ علمَه، وإما يَنْسىٰ، وإما يلزمُ السلطانَ، فيذهب علمه.

قال عبدالله بن المُبارك: من استخفَّ بالعلماء، ذهبت آخرتُه، ومن استخفَّ بالأمراء، ذهبت دنياه، ومن استخفَّ بالإخوان، ذهبت مُروءتُه.

قال عبدالله بن المُبارك: اللهُ يدفع بالسُّلطان معضلة.

قال الفُضَيل بن عِياض: لم يتزيَّن الناسُ بشيء أفضَل مِن الصدق، وطلبِ الحلال. فقال ابنُه علي: يا أبةِ إنّ الحلالَ عزيز. قال: يا بني، وإن قليله عند الله كثير.

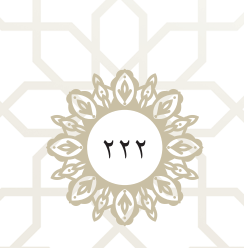


قال الفُضَيل بن عِياض: رَهْبَةُ العبد من الله علىٰ قدر علمه بالله، وزهادتُه في الدنيا علىٰ قَدر رغبته في الآخرة، مَن عمل بما علم استغنىٰ عما لا يعلم، ومن عمل بما علم وفَّقه الله لما لا يعلم، ومن ساء خلقُه شان دينَه وحسبه ومروءتَه.

قال الفُضَيل بن عِياض: أكذبُ الناسِ العائد في ذنبه، وأجهلُ الناس المُدِلُّ بحسناته، وأعلمُ الناسِ بالله أخوفُهم منه، لن يكمُلَ عبدٌ حتىٰ يُؤثِرَ دينَه علىٰ شهوته، ولن يَهْلِكَ عبدٌ حتىٰ يُؤثِرَ شهوتَه علىٰ دينه.

وعن الفُضَيل بن عِياض: واللهِ لو عملتَ بما سمعت، لكان لك في ذلك شُغْل عمّا لم تسمع، سمعت سليمان بن مهْران يقول: إذا كان بينَ يديك طعامٌ تأكله، فتأخذ اللُّقمة، فترمي بها خلفَ ظهرك متىٰ تشبع ؟

كان الفُضَيل بن عِياض يقول: لا تجعلِ الرجالَ أوصياءَك، كيف تلومُهم أن يُضيعوا وصيتك، وأنت قد ضيعتها في حياتك.





ومن كلام أبو معَاوِيَة الضرير: من كانتِ الدُّنيا هَمَّه، طالَ غداً غَمُّه، ومَنْ خافَ ما بين يَدَيه، ضاق به ذَرْعُه.

عن معروفٍ الكَرخيّ قال: إذا أراد اللهُ بعبدٍ شَرّاً، أغلق عنه بابَ العمل، وفتح عليه بابَ الجَدَل.

وعن الشافعي قال: آلاتُ الرياسةِ خمسٌ: صدقُ اللَّهجةِ، وكِتمانُ السِّرِّ، والوفاءُ بالعهدِ، وابتداءُ النصيحةِ، وأداءُ الأمانةِ.

قال يونُس الصَّدَفيُّ: قال لي الشافعيُّ: ليس إلىٰ السلاَمةِ من الناسِ سبيلٌ، فانظر الذي فيه صلاحُكَ فالزَمْهُ.

وعن الشافعي قال: ما رفعتُ مِنْ أحدٍ فوقَ منزلتِهِ إلا وضَعَ منِّي بمقدار ما رَفعْتُ منه.



عن الشافعي: العلمُ ما نفعَ، ليس العلم ما حُفِظ.

وعن الشافعي قال: سياسةُ الناسِ أشدُّ من سياسة الدوَابِّ.

قال داود بنُ رُشَيد: قالتْ حكماءُ الهند: لا ظَفَرَ مع بَغْيِ، ولا صِحَّة مع نَهم، ولا ثَناء مع كِبْر، ولا صداقة مع خِبّ، ولا شرفَ مع سوءِ أدب، ولا بِرَّ مع شُحٍّ، ولا مَحَبّةَ مع هُزء، ولا قضاء مع عدم فِقْه، ولا عُذْر مع إصرار، ولا سِلْمَ قَلبٍ مع غِيبة، ولا راحةَ مع حسَد، ولا سُؤْدُدَ مع انتقام، ولا رئاسة مع عزةِ نفسٍ وعُجبٍ، ولا صوابَ مع ترك مُشاورة، ولا ثباتَ مُلْكٍ مع تهاون.

وقال الجُوْعِيُّ القاسم بن عثمان: سمعتُ مسلمَ بن زياد يقول: مكتوبٌ في التوارة: مَن سالَمَ سَلِمَ، ومَنْ شَاتم شُتِم، ومَنْ طلبَ الفضلَ من غير أهله نَدِم.

قال محمَّد بن منصور: يُعرفُ الجاهِل بالغضب في غير شيء، وإفشاءِ السِّرِّ، والثقةِ بكلِّ أحد، والعظةِ في غير موضِعها.



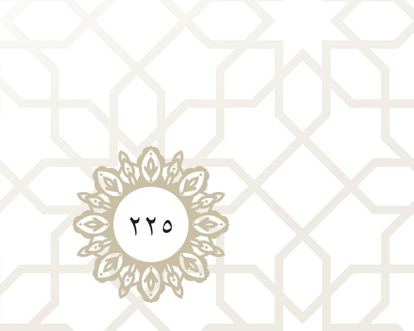


عن سَهل بنُ عَبدِالله التستري: من تَكَلَّمَ فيما لا يَعْنِيه حُرِمَ الصِّدْق، ومن اشتَغَلَ بالفُضُول حُرِم الوَرَع، ومن ظَنَّ ظَنَّ السَّوْءِ حُرِمَ اليَقين، ومن حُرِمَ هذه الثَّلاثة هَلَك.

مِن كلامِ الخَرَّاز أحمد بن عيسىٰ البغدادي: كل باطنٍ يخالِفُه ظاهر، فَهو باطِلٌ.

من كلام الحَكيم الترمذي محمد بن علي: لَيس في الدُّنيا حِمْلٌ أَثقلُ من البِر، فمن بَرَّك، فقد أوثَقَك، ومن جَفَاك فقد أطلقك.

وقال الحَكيم الترمذي محمد بن علي: صَلاحُ خَمسةٍ في خَمسةٍ: صَلاحُ الصَّبي في المَكتب، وصَلاحُ الفتىٰ في العِلم، وصَلاحُ الكَهل في المسجد، وصَلاحُ المرأة في البيت، وصَلاح المؤذي في السِّجْن.



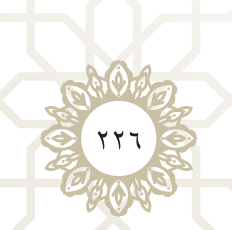


عَبدُاللهِ بنُ المُعتزِّ بالله له نثر بديع منه: مَنْ تجاوزَ الكفافَ لم يُغْنِه الإكثار. كُلَّما عظُمَ قدرُ المنافس، عَظُمتِ الفَجيعةُ به. رُبَّما أوردَ الطمعُ ولم يُصدر. مَن ارتَحَلَه الحِرصُ، أنضاه الطَّلَب. الحَظُّ يأتي مَنْ لا يَأتيه. أشقَىٰ النَّاسِ أقربُهُم مِنَ السُّلطان، كما أنَّ أقربَ الأَشياءِ من النَّارِ أسرعها احتِراقًا. مَنْ شَارَكَ السُّلطانَ في عِزِّ الدُّنْيا، شَارَكه في ذُلِّ الآخِرَة.

وعن الجُنَيْدُ بن محمد بن الجنيد النهاوندي قال: أُعطيَ أهلُ بغداد الشَّطحَ والعِبارة، وأهلُ خراسان القلب والسخاء، وأهلُ البصرة الزهد والقناعة، وأهلُ الشَّامِ الحِلمَ والسَّلامة، وأهلُ الحِجَازِ الصَّبَر والإِنَابة.

يقول بُنَانُ الحَمَّال: الحرُّ عبدٌ ما طَمِع، والعبد حرٌ ما قَنِع.

وقال بُنَانُ الحَمَّال: رؤيةُ الأسبابِ علىٰ الدَّوام قاطعةٌ عن مشاهدة المسبِّب، والإعراضُ عن الأسباب جملةً يُؤدِّي بصاحبه إلىٰ ركوبِ الباطل.





وعن النَّهْرَجُوريُّ إسحاق بن محمد قال: الصِّدْقُ موافقَةُ الحقِّ في السرِّ والعلانية، وحقيقةُ الصِّدْقِ القولُ بالحقِّ في مواطن الهَلَكَة.

علي بن محمد البستي، له نظمٌ في غاية الجَوْدة كبيرٌ سائرٌ بين الفُضَلاء. ومن نثره: من أصلح فاسده أرغم حاسده، من أطاع غضبه أضاع أدبه، من سعادة جدِّك وقوفك عند حدك، إذا بقي ما قاتك فلا تأس علىٰ ما فاتك.

الصُّعْلُوكي سهل بن الإمام له ألفاظٌ بديعة، منها: مَنْ تَصَدَّرَ قبلَ أوانِهِ، فقد تصدّىٰ لِهَوَانِهِ.

المقتدي أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن القائم بأمر الله العباسي، قال ابنُ النجار: اسم أمه عَلَم. قال: وكان مُحِبّـًا للعلوم، مُكرِمـًا لأهلها، لم يزل في دَولةٍ قاهرة وصَوْلة باهرة، وكان غزير الفضل، كامل العقل، بليغَ النثر، فمنه: وَعْدُ الكرماء أَلْزَمُ من ديون الغُرَماء. الألسنُ الفصيحة أنفعُ من الوجوه الصبيحة، والضمائر الصحيحة أَبلغُ من الألسن الفصيحة. حَقُّ الرعية لازمٌ للرعاة، ويَقبحُ بالولاة الإقبالُ علىٰ السُّعاة.





قال أبو طالب بن عبدالسميع: كان مِن ألفاظ المُستَظْهِر بالله أحمد بن عبدالله: خيرُ ذَخائِرِ المرءِ لِدنياه ذكرٌ جميلٌ، ولِآخِرَتِهِ ثوابٌ جَزيل. شُحُّ المرءِ بفَلْسِهِ مِن دناءَةِ نفسه. الصَّبْرُ علىٰ الشَّدَائِدِ يُنتج الفوائد. أدبُ السائِلِ أنفعُ مِن الوسائل. بِضاعة العاقِلِ لا تَخْسَرُ، ورِبْحُها يَظْهَرُ في المَحْشَرِ.

قال الطُّرْطُوشِي محمد بن الوليد: إذا عَرَضَ لك أمرُ دنيا وأمرُ آخِرة، فبادِرْ بأَمرِ الآخرة، يَحْصُلْ لكَ أمرُ الدنيا والأخرىٰ.

ابن مُسْهِر علي بن سعد بن علي الموصلي الأديب البارع له قصيدة بديعة منها:

وأطيبُ العيش ما تجنيه من تعبٍ وأعذبُ الشرب ما يصفو من الرَّنَقِ

وكان صاحبُ غَزنَة محمد بن سام يقولُ: التعصُّبُ في المذاهبِ قبيحٌ.





من غُرَر ألفاظِ أبو الفرج ابن الجَوْزِيَ: عقاربُ المنايا تلسعُ، وخَدْرانُ جسمِ الآمالِ يمنَعُ، وماءُ الحياة في إناءِ العمر يرشح. من قَنَعَ، طابَ عيشُهُ، ومن طمع، طالَ طيشُهُ.



ولي ابنُ الدَّوامي هبة الله بن الحسن البغدادي واسط، ثم صُرِفَ لِلينِهِ وَجَوْدَته، فكتب فيه الخليفةُ: «يُلحق الثِّقة العاجز بالخائن الجَلَد»، فَلَزِمَ دارَهُ في تعبّدٍ وخيرٍ وبرٍّ.





تغير الحال

روىٰ صفوانُ، عن ابن جُبير، عن أبيه، قال: لما فُتحتْ قُبرس، مُرَّ بالسَّبْيِ علىٰ أبي الدرداء، فبكىٰ، فقلتُ له: تبكي في مثل هذا اليوم الذي أَعَزَّ اللهُ فيه الإِسلام وأهله ؟ قال: يا جُبَير، بينا هذه الأمة قاهرة ظاهرة إذْ عَصَوُا الله، فلقُوا ما ترىٰ. ما أهونَ العبادَ علىٰ الله إذا هم عصوه.

وَفدَ وائل بن حُجْر بن سعد علىٰ رسولِ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقطعه أرضـًا، وأرسل معه مُعاويةَ بنَ أبي سفيان ليعرِّفه بها. فقال له معاويةُ: أردفني خلفك. فقال وائل: إنك لا تكونُ من أرداف الملوك. فقال معاوية: أعطني نعلَكَ. فقال وائل: انتعل ظِلَّ الناقة. قال وائل: فلما استُخلفَ، أتيتُه؛ فأقعدني معه علىٰ السرير، فذكَّرني الحديث.

قال عُمر قال لأبي هريرة: كيف وجدتَ الإِمارة ؟ قال: بَعَثْتني وأنا كاره، ونزعتَني، وقد أحبَبْتُها. وأتاه بأربع مئة ألف من البحرين. فقال: ما جئتَ به لنفسك ؟ قال: عشرين ألفـًا. قال: مِنْ أَيْنَ أَصبتها ؟ قال: كُنْتُ أَتَّجِرُ. قال: انظر رأسَ مالك ورزقك، فخُذْه، واجعل الآخر في بيتِ المال.





وعن سعيد بن العاص، قال: القلوبُ تتغيَّر، فلا ينبغي للمرءِ أن يكونَ مادحـًا اليومَ ذَامّـًا غداً.

كان مَيْمُونُ بنُ مِهْران يقول: لو نُشِرَ فيكم رجلٌ من السَّلف ما عَرَفَ إلاَّ قِبلتكم.

عن معاوية بن قُرَّة قال: أدركتُ سبعينَ من الصحابة، لو خرجوا فيكم اليوم، ما عرفوا شيئـًا ممَّا أنتُم فيه إلَّا الأذان.

روىٰ يحيىٰ بن بُكير، عن الليث بن سعد قال: رأيتُ أبا الزناد عبدالله بن ذكوان وخلفه ثلاث مئة تابع من طالب فقه وشعر وصنوف، ثم لم يلبث أن بقي وحده، وأقبلوا علىٰ ربيعة، وكان ربيعة يقول: شِبر من حُظوةٍ خيرٌ من باع من علم.



قيل: إنَّ ولداً ليَحيىٰ بنَ خالد البَرمكيّ قال له وهُم في القُيود: يا أَبَةِ بعدَ الأَمْرِ والنَّهْيِ والأموالِ صِرْنَا إلىٰ هذا ؟ قال: يا بُنيَّ دعوةُ مَظْلومٍ غَفَلْنا عنها، لم يَغْفُلِ اللهُ عنها.

وسُئِلَ سعيدُ بنُ سالم عن ذنب البرامكة، فقال: ما كان منهم بعضُ ما يُوجِبُ ما فعلَ الرشيدُ، لكن طالت أيَّامُهم، وكلُّ طويلٍ يُمَلُّ.

وعن المأمُون قال: أعْيت الحيلةُ في الأمرِ إذا أقبلَ أن يُدبِر، وإذا أدبرَ أن يُقبِل.

قال البخاري: كنتُ أختلِفُ إلىٰ الفقهاء بمَرو وأنا صبيٌّ، فإذا جئتُ أستحي أن أُسَلِّم عليهم، فقال لي مُؤَدِّبٌ من أهلها: كم كتبتَ اليومَ ؟ فقلتُ: اثنين، وأردتُ بذلك حديثين، فضحك مَنْ حَضر المجلسَ. فقال شيخٌ منهم: لا تضحكوا، فلعلَّه يضحكُ منكم يوماً !!



وقد كان محمد بن جَرِيْر الطَّبَري يختلفُ إلىٰ داود بن عَلي مُدةً، ثم تخلف عنه، وعَقَدَ لنفسِه مجلسـًا، فأَنْشأ داود يتمثل:

فَلَــوْ أَنِّي بُلِيْــتُ بِهَاشِــمِيّ ... خُؤُوْلَتُــهُ بَنــو عَبْدِ المــدَانْ

صَــبَرْتُ عَلَى أَذَاهُ لي وَلكِــنْ ... تَعَــالَيْ فَانْظُرِيْ بِمَــنْ ابْتَلَانِي

من جيِّد قول رُوَيْم بن أحمد أبو الحسن: السُّكونُ إلىٰ الأَحوال اغترار.

كان أبو جعفر الطحاوي يقرأُ علىٰ أبي إبراهيمَ المزني، فقال يومـًا: واللهِ لا جَاءَ منك شيء، فَغَضِبَ أبو جعفر من ذلك، وانتقلَ إلىٰ ابن أبي عمران، فلَمَّا صنَّف مختصره، قال: رَحِمَ الله أبا إبراهيم: لو كان حَيًّا لكفَّرَ عن يمينه.

قال الحاكم: قدمَ ابنُ رُمَيْح أحمد بن محمد نَيْسابور، فعقدتُ له مجلسَ الإِملاء، وقرأتُ عليه «صحيح البخاري»، وقد أقام بصَعدة من اليمن زمانـًا، ثمَّ قدمَ، وأكرموه، وأكثروا عنه ببغداد. وما المثلُ فيه إلاَّ كما قال يَحيَىٰ بنُ مَعين: لو ارتدَّ عبدُالرزَّاقِ ما تَركْنا حديثَه، وقد سألتُه المقام بنَيْسَابور، فقال: علىٰ من أُقيم ؟ فواللهِ لو قدرتُ لم أُفارق سُدَّتك، ما الناس اليومَ بخُراسانَ إلاّ كما قيل:





كَفَى حَزَناً أنَّ المُــروءَةَ عُطِّلَت وأنَّ ذوي الأَلبابِ في النَّاس ضُيَّعُ
وأنَّ ملــوكاً لَيْسَ يَحْظَــى لَدَيْهِمُ مِنَ النَّاس إلاَّ مَــنْ يُغَنِّي ويُصفَعُ

أبو زَيْد المَروَزيّ محمد بن أحمد، جاورَ بمكَّة سبعة أعوام، وكان فقيراً يُقاسي البردَ ويتكتَّم ويقنعُ باليَسِير. أقبلتْ عليه الدُّنيا في آخر أيّامِه، فسقطتْ أسنانُه، فكان لا يتمكَّن من المَضْغ، فقال: لا بارَكَ اللّهُ في نعمةٍ أقبلتْ حيثُ لا نابَ ولا نصاب.

وقال سهلُ بنُ بشر: حدثنا سُلَيمُ بن أيوب أنه كان في صِغَره بالريِّ، وله نحوٌ من عشر سنين، فحضَر بعضُ الشيوخ وهُو يُلَقِّن قال: فقال لي: تقدَّمْ فاقْرأ. فجهدتُ أن أقرأَ الفاتحةَ، فلم أَقْدِر علىٰ ذلك لانغلاقِ لِساني، فقال: لكَ والدةٌ ؟ قلتُ: نعم، قال: قُل لها تدعُو لكَ أن يرزُقَكَ اللهُ قراءةَ القُرآن والعلم. قلتُ: نعم. فرجعتُ، فسألتُها الدعاءَ، فدَعَتْ لي، ثم إني كَبِرْتُ، ودخلْتُ بغداد، قرأْتُ بها العربيَّةَ والفقهَ، ثم عُدْتُ إلىٰ الرَّي، فبينا أنا في الجامع أُقابِلُ «مختصر» المزني، وإذا الشيخُ قد حضرَ وسلَّم علينا وهو لا يعرفُني، فسمع مُقابَلَتنا، وهو لا يَعْلَمُ ماذا نقولُ، ثم قال: متىٰ يُتعلَّم مثلُ هذا ؟ فأردتُ أن أقولَ: إن كانت لك والدةٌ، فقُل لها تدعو لك. فاستحييتُ.





قال الوَخشيُّ أبو علي الحسن بن علي بن محمد البلخي يومًا: رَحلتُ، وقاسيتُ الذلَّ والمشاقَّ، ورجعتُ إلىٰ وَخش، وما عَرف أحدٌ قدري، فقلتُ: أموتُ ولا ينتشرُ ذكري، ولا يترحَّمُ أحدٌ علي، فسهَّل اللهُ، ووفَّق نظامَ الملك حتّىٰ بَنَىٰ هذه المدرسة، وأجلسني فيها أحدثُ، لقد كنتُ بعسقلان أسمعُ من ابن مُصَحِّح، وبَقيتُ أياماً بلا أكلٍ، فقعدتُ بقرب خبّاز؛ لأشمَّ رائحةَ الخُبز، وأتقوّىٰ بها.

ظَهيرُ الدِّين محمد بن الحسين، وزر سبعَ سنين وسبعةَ أشهر، ثم عُزِلَ بأمر السلطان مَلِكشاه للخليفة لِمَوْجِدَةٍ، فأنشد أبو شجاع:

تولَّاهــا وليــس لهُ عَـدُوٌّ   وفارقهــا وليــس لهُ صديــقُ

قال صافي بن عبدالله الصوفي: حضرتُ مجلسَ يوسفُ بنُ أيُّوب بن يوسف الهمذاني أبو يعقوب في النِّظاميَّة، فقام ابنُ السقّاء، فآذىٰ الشيخَ، وسألَه عن مسألةٍ، فقال: اجلس، إنّي أجدُ من كلامِكَ رائحةَ الكُفر، ولعلك تموتُ علىٰ غيرِ الإسلام. فاتفق أنّ ابنَ السّقاء ذهب في صُحبة رسولِ طاغية الرُّوم، وتنصَّر بقُسطَنطِينيّة. وقال عبدالوهاب بن أحمد المقرئ يقول: كان ابنُ السقاء مُقْرئًا مُجوِّداً، حدثني من رآهُ بالقُسطنطينية مريضًا علىٰ دَكَّةٍ، فسألتُهُ: هل





القرآنُ باقٍ علىٰ حِفْظِكَ ؟ قال: ما أذكُرُ منه إلا آيةً واحدة: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾[الحجر:٢] والباقي نسيتُه.



قال أبو المظفَّر السِّبطُ: اقتنَىٰ ابنُ نُجَيّةَ علي بن إبراهيم أموالاً عظيمةً، وتنعَّم تنعُّمـًا زائداً، بحيث أنَّه كانَ في دارِه عشرونَ جاريةً للفراشِ، تُساوي كلُّ واحدةٍ ألفَ دينارٍ وأكثر، وكان يُعْملُ له من الأطعمةِ ما لا يُعْمَلُ للملوكِ، أعطاهُ الخلفاءُ والملوكُ أموالاً جزيلةً. قال: ومع هذا مات فقيراً كفَّنه بعضُ أصحابِهِ.







عن المداراة

قال أبو الدَّرداء: إنا لَنُكَشِّر في وُجوه أقوام وإنَّ قلوبنا لتلعنهم.

كان حُذَيفَة بنُ اليَمَان يقول: ما أدركَ هذا الأَمْرَ أحدٌ من الصحابة إلاَّ قد اشترىٰ بعض دينه ببعض. قالوا: وأنت؟ قال: وأنا والله، إني لأدْخُلُ علىٰ أحدهم -وليس أَحَدٌ إلا فيه محاسن ومساوئ- فأذكرُ من محاسنه، وأُعرِضُ عمّا سوىٰ ذلك.

عن عائشة، قالت: جاء مَخْرَمةُ بنُ نوفل، فلما سمع النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به، قال: «بئس أخو العشيرة». فلما دخل، بشَّ به. قالت: فلما خَرجَ، كلمتُه في ذلك فقال: «يا عائشة أعهدتِني فحَّاشًا، إنَّ شَرَّ النَّاس من يُتَّقىٰ شَرُّه».

قال شيرويه: يرجعُ العِجْلي أبو علي أحمد بن سعد إلىٰ نصيبٍ من كُل العلوم، وكان يُداري، ويقومُ بحقُوق الناس، مقبولاً بين الخاصِّ والعام.





أثنىٰ الحافظُ أبو العلاء علىٰ الحافظ أبا القاسم ابن عساكر، وقال: أنا أعلمُ أنه لا يُساجِلُهُ في شأنه أحدٌ، فلو خالقَ الناسَ ومازجَهم كما أصنعُ، إذاً لاجتمع عليه المُوافِقُ والمُخالف.







قوة العادة

المُزَنِيُّ إسماعيل بن يحيىٰ كان يُغَسِّل الموتىٰ تعبُّداً واحتساباً. وهو القائل: تَعَانيتُ غَسْلَ الموتىٰ لِيرِقَّ قلبي، فصار لي عادةً.



قال أبو إسحاق الحبّالُ: كان أبو عبدالله بن نَظِيف يُصَلِّي بالناس في مسجد عبدالله سبعين سنةً، وكان شافعيّاً يقنُتُ، فأمَّ بعده رجلٌ مالكيٌّ، وجاء الناسُ علىٰ عادتهم، فلم يَقْنُت، فتركُوه وانصرَفُوا، وقالوا: لا يُحسنُ يُصَلِّي.







مواقف تدل على العقل والحكمة والأناة

قدم مُعاوية المدينةَ، فلقيه أبو قَتَادة الأنصاري السلمي، فقال: تَلقَّاني الناسُ كُلُّهم غيرَكم يا معشَرَ الأنصار، فما منعكم ؟ قالوا: لم يكنْ لنا دواب. قال: فأينَ النواضح ؟. قال أبو قتادة: عقرناها في طلب أبيك يوم بدر؛ إنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لنا: «إنكم ستلقون بعدي أثرة». قال مُعاوية: فما أَمَرَكُم ؟ قال: أمرنا أن نَصبِرَ. قال: فاصبِرُوا.



قال مالك: لما حجَّ المنصورُ، دعاني فدخلتُ عليه، فحادثته، وسألني فأجبتُه، فقال: عزمتُ أن آمر بكتبك هذه –يعني الموطأ– فتنسخ نُسَخًا، ثم أبعثَ إلىٰ كُلِّ مصرٍ من أمصار المسلمين بنسخة، وآمُرَهُم أن يعملوا بما فيها، ويَدَعوا ما سوىٰ ذلك من العلم المُحدَث، فإني رأيتُ أصلَ العلم روايةَ أهل المدينة وعلمَهم. قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، لا تفعلْ، فإن الناسَ قد سِيقت إليهم أقاويلُ، وسمعوا أحاديثَ، ورَوَوْا رواياتٍ، وأخذ كُلُّ قوم بما سِيق إليهم، وعمِلوا به، ودانوا به، من اختلاف أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرهم، وإنّ رَدَّهم عما اعتقدوه شديدُ، فدعِ الناسَ وما هُم عليه، وما اختار أهلُ كل بلد لأنفسهم.





ذكر مالك دخوله علىٰ المنصور، وقوله في انتساخ كتبه، وحمل الناس عليها، فقال: قد رسخَ في قلوب أهلِ كلِ بلد ما اعتقدوه وعمِلُوا به، وردُّ العامّةِ عن مثلِ هذا عسيرٌ.

قال مالك: شاوَرني هارونُ الرشيد في ثلاثة: في أن يُعلِّق الموطَّأ في الكعبة، ويحملَ الناسَ علىٰ ما فيه، وفي أن ينقُضَ منبَر رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجعلَه من ذهبٍ وفضة وجَوهر، وفي أن يُقدِّم نافعًا إمامًا في مسجد النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقلت: أما تعليقُ «الموطَّأ»،فإن الصَّحابة اختلفوا في الفروع، وتفرَّقوا، وكلٌّ عند نفسه مصيبٌ. وأما نقضُ المنبر، فلا أرىٰ أن يُحْرَمَ الناسُ أثر رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأما تقدمتُك نافعًا فإنه إمامٌ في القراءة، لا يُؤمَنُ أن تَبدر منه بادرةٌ في المحراب، فتُحفَظ عليه. فقال: وفقك الله يا أبا عبدالله.

كان المأمونُ يجلِسُ للمُناظَرة يومَ الثّلاثاء، فجاء رجلٌ قد شّمَّر ثيابَهُ، ونعلُهُ في يده، فوقفَ علىٰ طَرَفِ البِساط، وقال: السلامُ عليكم. فردَّ المأمونُ، فقال: أتأذَنُ لي في الدُّنّو ؟ قال: ادنُ، وتكلَّمْ، قال: أخبرني عن هذا المجلسِ الذي أنتَ فيه، جلستَهُ باجتماع الأُمَّة أم بالغَلَبة والقهرِ ؟ قال: لا بهذا ولا بهذا، بل كان يَتَوَلَّىٰ أمرَ الأُمَّة من عَقَد لي ولأخي، فلما صارَ الأمرُ إليَّ، علمتُ





أنِّي مُحتاجٌ إلىٰ اجتماعِ كلمةِ المسلمين علىٰ الرِّضىٰ بي، فرأيتُ أنِّي متىٰ خَلَّيتُ الأمرَ، اضطربَ حبلُ الإِسلامِ، ومَرِجَ عهدهُم، وتنازَعُوا، وبطلَ الحجُّ والجهادُ، وانقطعت السُّبُلُ، فقمتُ حياطةً للمسلمين، إلىٰ أن يُجمعوا علىٰ من يَرضَونه، فأُسلمُ إليه. فقال: السلامُ عليكَ ورحمةُ الله. وذهَب، فوجَّه المأمونُ مَن يكشِفُ خبرَه، فرجَع، فقال: مضىٰ إلىٰ مسجدٍ فيه خمسةَ عشَر رجُلاً في هَيئتِه، فقالوا: لَقِيتَ الرجلَ ؟ قال: نعم، وأخبرهم بما جرىٰ، فقالوا: ما نرىٰ بما قال بأسًا، وافترقوا. فقال المأمونُ: كُفينا مُؤنةَ هؤلاء بأَيسرِ الخَطْبِ.









بلاغة وحسن كناية

قيل لخالد ابن الخليفة يزيد بن معاوية: ما أقربُ شيءٍ ؟ قال: الأجَلُ، قيل: فما أبعَدُ شيءٍ ؟ قال: الأمَلُ، قيل: فما أرجىٰ شيءٍ ؟ قال: العمل.

روىٰ الزُّبير بن الخِرِّيت، عن أبي لَبيد، قال: ما كنا نُشبِّه كلام أبي موسىٰ الأشعري إلا بالجزار الذي ما يُخطئ المَفْصِل.

وقفتْ علىٰ قيس بن سعد عجوزٌ، فقالتْ: أشكو إليك قِلَّة الجرذان، فقال: ما أحسنَ هذه الكناية، املؤوا بيتها خُبزاً ولحماً وسمناً وتمراً.

أبوالعلاء يزيدُ بنُ أبي مسلم الثقفي مولىٰ الحجَّاج وكاتبه ومشيرُه، استخلَفَهُ الحجَّاج عند مَوْته علىٰ أموال الخراج، فضبط ذلك، وأقرَّهُ الوليد، حتىٰ لقد قال: مَثَلي ومَثَلُ الحجَّاج وأبي العلاء، كمَن ضَاعَ منه دِرهَمٌ فوجَدَ ديناراً.





قال الحسنُ بن عمرو: قال لي طلحةُ بن مصرِّف: لولا أني على وضوءٍ لأخبرتُك بما تقولُ الرافضة.

قال أعرابي لخالد القَسَّري: أصلحك اللهُ، لم أصُن وجهي عن مسألتك، فصُنه عن الرد، وضعني من معروفك حيث وضعتُك من رجائي، فوصله.

روى هشام بن حسان، عن محمد بن واسع، وقيل له: كيف أصبحتَ ؟ قال: قريبـًا أجلي، بعيداً أملي، سيئـًا عملي.

بعث موسى الكاظم إلى الرشيد برسالة من الحبس يقول: إنه لن ينقضيَ عني يوم مِن البلاء إلا انقضى عنك معه يوم من الرَّخاء حتى نُفضيَ جميعـًا إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون.

قال حبيب الجَلاَّب: سألتُ عَبدالله بن المبارك: ما خيرُ ما أُعطي الإنسان ؟ قال: غريزة عقل. قلتُ: فإن لم يكن ؟ قال: حُسْنُ أدب. قلتُ: فإن لم يكن ؟ قال: أخٌ شفيق يستشيرهُ. قلتُ: فإن لم يكن ؟ قال: صَمتٌ طويل. قلت فإن لم يكن ؟ قال: موت عاجل.





قيل للفُضَيل بن عِياض: ما الزُّهد ؟ قال: القُنوع، قيل: ما الوَرعُ ؟ قال: اجتنابُ المحارم. قيل: ما العِبادة ؟ قال: أداءُ الفرائض. قيل: ما التَّواضعُ ؟ قال: أن تخضع للحق. وقال: أشدُّ الورع في اللسان.

قال المُبرِّدُ: عن أبي عثمان المازني قال: سُئِلَ عليُّ بنُ موسىٰ الرِّضىٰ: أيكلِّف اللهُ العبادَ مالا يُطيقُون ؟ قال: هو أعدلُ من ذلك، قيل: فيستطيعون أَنْ يفعلُوا ما يريدون ؟ قال: هم أعجزُ من ذلك.

كان أحمد بن المُعَذَّل من الفقه والسكينة والأدب والحلاوة في غاية. وكان أخوه عبدالصمد الشاعر يُؤذيه، فكان أحمد، يقول له: أنت كالأُصبع الزائدة، إن تُركتْ، شانت، وإن قُطعت، آلمت.

قال الجُنَيْدُ بن محمد بن الجنيد النهاوندي: كنتُ بينَ يدي السَّريِّ ألعبُ وأنا ابنُ سبعِ سِنين، فتكلَّموا في الشُّكر، فقال: يا غلامُ ما الشُّكر ؟ قلت: أَنْ لا يُعْصَىٰ اللهُ بِنِعَمِهِ، فقال: أَخْشَىٰ أَنْ يكونَ حظَّك من اللهِ لسانُك. قال الجُنيد: فلا أزال أبكي علىٰ قوله.





الرَّفّاء السري بن أحمد هو القائل:

وكانـــتِ الإِبْـــرَةُ فيمـــا مَضى   صائنـــةً وَجْـــهي وأَشْـــعاري
فَأَصْبَـــحَ الـــرِّزقُ بِهَـــا ضَيِّقاً   كأَنَّـــهُ مِـــنْ خُرمِهَـــا جَاري

قال أبو العباس ابنُ العَريف: كان لسانُ ابنِ حزم وسيفُ الحجاجِ شقيقين.

قال ابن بشكوال: كان ابنُ أبي تليد فقيهـًا مفتيـًا في بلده، أديبـًا، شاعراً، دينـًا، فاضلاً، وأنشد له قوله:

حَـــالِي مَـــعَ الدّهْـــرِ في تقلُّبِهِ   كطائرٍ ضـــمّ رجلَه شَـــرَكُ
هِمّـــتُهُ في فـــكاك مُـــهـــجته   يـــرومُ تخليصَهَـــا فتشـــتَبِكُ

وقف سنان بن سليمان علىٰ تفصيلِ كتاب، وعلم ما هدَّد به من قولِه وعملِهِ، فكتب: فيا لِلّه العَجَبُ منْ ذبابةٍ تَطنُّ في أذُنِ فيل، وبعوضةٍ تُعَدُّ في التماثيلِ. وذهب في رده حتىٰ قال: وفي المَثَلِ: أو للبطِّ تُهدِّدُ بالشطِّ ؟، فهيِّئ للبلايا أسبابـًا، وتدرَّع للرَّزايا جِلبابـًا، فلأظهَرَنَّ عليك منك، وتكون كالباحث عن حتفه بظلفهِ، وما ذلك علىٰ الله بعزيز، فكن لأمرنا بالمرصاد، واقرأ

أول النحل ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١] وآخر ص ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص:٨٨].



لطائف

قال زيد بن ثابت: لم يزل أبوبكر يُراجعني لجمع القرآن، حتىٰ شرحَ اللهُ صدري للذي شَرح له صدر أبي بكر وعُمر. فكنتُ أَتتَبَّعُ القُرآنَ أَجمعُهُ من الرِّقاع والأكتاف والعُسُب وصُدور الرجال. (والعُسُب جمع عسيب: وهو جريد النخل إذا نحي عنه خوصه. وكانوا يكتبون في تلك الأشياء، لقلة القراطيس عندهم يومئذ).

كان أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إذا استثقلَ رجلاً، قالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ له، وأَرِحْنا منه.

قال الزهريُّ: إذا طال المجلس، كان للشيطان فيه نصيب.

كان الزهريُّ يُحَدِّثُ ثم يقول: هاتُوا من أشعاركم وأحاديثكم، فإن الأُذنَ مَجَّاجّةٌ وإِن للنفس حَمْضةً.





أيوب بن سويد: حدثنا يونس، قال الزهري: إيّاكَ وغُلُولَ الكُتُبِ، قلتُ: وما غُلولُها ؟ قال: حَبْسُهَا.

قال الشافعي: قال ابن عُيينة: حدَّث الزهري يوماً بحديث، فقلتُ: هَاتِه بلا إسناد، قال: أترقىٰ السطح بلا سُلّمٍ ؟.

قال أبو الزناد عبدالله بن ذكوان: مثلي ومثل ذئب، كان يُلحُّ علىٰ أهل قرية، فيأكلُ صِبيانهم ودواجنهم، فاجتمعُوا له، فخرجوا في طلبه، فهرب منهم، فتقطعوا عنه إلا صاحبَ فخّار، فألَحَّ عليه، فوقف له الذئب، وقال: هؤلاء عذرتُهم، أرأيتُك أنتَ مالي ولك ؟! والله ما كسرتُ لك فخارة قطُّ. ثم قال: مالي وللماجِشون واللهِ ما كسرتُ له كَبَراً ولا بَرْبطاً.

قال أبوحازم: لأَنَا مِنْ أنْ أُمْنَعَ من الدُّعاءِ أخوفُ مِنِّي أن أُمنَعَ الإِجابة.

سئل جعفر بن محمد: لم حَرّم الله الربا ؟ قال: لئلَّا يتمانع الناسُ المعروف.



أراد يَونُس بن عُبَيْد أن يلجم حماراً: فلم يحسن. فقال لصاحبٍ له: ترىٰ الله كتب الجهاد علىٰ رجل لا يلجم حماراً ؟

عُمر بن حَفْص العَسْقلاني: حدَّثنا خُلَيْد بن دَعلَج، عن قَتادة: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[فاطر:١] قال: الملاحة في العَيْنين.

قال شُعبة بن الحجاج: كُلُّ حديث ليس فيه «حدَّثنا» فهو مثل الرَّجل في فلاة معه بَعير بلا خِطام.

أبوسعيد الأشَج: سمعتُ أبا عبدالرحمن الحارثي يقول: دَفن سُفيان الثوري كتبه، فكنت أُعِيْنه عليها، فقلتُ: يا أبا عبدالله! و«في الرِّكاز الخمس» فقال: خذ ما شئتَ. فعزلتُ منها شيئًا، كان يحدِّثني منه.

أراد جار لأبي حمزة السُّكري أن يبيع دارَه، فقيل له: بكم ؟ قال: بألفين ثمن الدَّار، وبألفين جوار أبي حمزة. فبلغ ذلك أبا حمزة فوَجَّه إليه بأربعةِ آلاف، وقال: لا تبع دارك.



وقال أبونُعيم: كنت أمرُّ علىٰ زُفر بن الهُذَيل، فيقول: تعالَ حتىٰ أُغَرْبِلَ لك ما سمعت.

إبراهيم الحزامي: حدثني مُطرِّف بن عبدالله، قال لي الإمام مالك: ما يقولُ الناسُ فيَّ ؟ قلت: أما الصديقُ فيُثني، وأما العدوُّ فيَقَع. فقال: ما زال الناسُ كذلك، ولكن نعوذ بالله من تَتَابُعِ الألسنةِ كُلِّها.

قال الشافعي: كان مالكٌ إذا جاءه بعضُ أهلِ الأهواء، قال: أما إنّي علىٰ بَيِّنة من ديني، وأما أنتَ، فشاكٌّ، اذهب إلىٰ شاكٍّ مثلك فخاصِمْه.

قال شِهاب بن خِرَاش: إن القَدَرية أرادُوا أن يَصِفُوا الله بِعَدلِه، فأخرجوه مِن فَضْلِه.

كان عَبدالله بن المُبارك يُكثر الجلوسَ في بيته، فقيل له: ألا تستوحِشُ ؟ فقال: كيف أستوحِشُ وأنا مع النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِه ؟!





قال عبدالله بن المُبارك: رُبَّ عمل صغير تُكثِّره النيةُ، ورب عمل كثير تُصغِّره النيةُ.

سُئِلَ عَبدالله بن المبارك عن الرجل يُصَلِّي عن أبويه. فقال: من يرويه ؟ قيل: شهاب بن خِراش. قال: ثقة. عمن ؟ قيل: عن الحجَّاج بن دينار. قال: ثقة، عمن ؟ قيل: عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: بينَه وبين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفاوِزُ تَنْقَطع فيها أعناقُ الإبل.

وقال إبراهيم بن الأشْعث: سمعتُ الفُضَيل بن عِياض يقول: من أحبَّ أن يُذْكَر لم يذكر، ومن كره أن يُذكر ذُكِرَ.

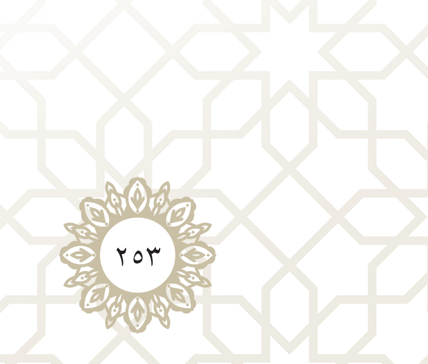
قال إبراهيم بن الأشعث: سمعتُ سُفيان بن عُيَيْنة يقول: مَنْ عَمِلَ بما يعلم، كفي ما لم يَعْلَمْ.



قال عبدالله بن إدريس: قلت لحَفص بن غِياث: اترُكِ الجلوسَ في المسجد، فقال: أنت قد تركتَ ذلك ولم تُترك، قلت: لأَنْ يأتيَني البلاءُ وأنا فارٌّ أحبُّ إليَّ من أن يأتيني وأنا مُتعرِّضٌ له.

قال عبدالرحمن بن مَهْدِيّ: كان يُقالُ: إذا لَقِيَ الرجلُ الرجلَ فوقَه في العلم، فهو يَوْمُ غنيمتِه، وإذا لَقِي مَنْ هو مِثْلُه، دارَسَهُ، وتعلَّم منه، وإذا لقي مَنْ هو دونه، تواضَعَ له، وعلَّمه، ولا يكونُ إماماً في العلم من حدَّثَ بكُلِّ ما سمع، ولا يكونُ إماماً من حدَّثَ عن كُلِّ أحد، ولا من يُحدِّثُ بالشَّاذِّ، والحِفْظُ للإتقان.

قال عبدالله بن وَهْب: نَذَرْتُ أَنِّي كُلَّما اغتبتُ إنساناً أَن أصومَ يوماً، فأَجهَدَني، فكُنتُ أغتابُ وأصوم، فنويتُ أنِّي كُلَّما اغتبتُ إنساناً أن أَتصَدَّقَ بدرهم، فمن حُبِّ الدَّرَاهم تركتُ الغِيبة.





الحسن بن سُفيان: سمعتُ فيَّاضَ بنَ زُهير النَّسائي، يقولُ: تشفَّعْنا بامرأةِ عبدالرَّزَّاق بن هَمَّام عليه، فدخلنا، فقال: هاتُوا، تشفَّعتُم إليَّ بمن يَنْقلِب معي علىٰ فراشي ؟ ثم قال:

ليسَ الشَّــفيعُ الَّذي يَأتِيْك مُتَّزِراً   مثلَ الشَّــفيعِ الذي يَأتيك عُرْيَاناً

وعن النِّبَاجي قال: لو جُعِلَتْ لي دعوة مُجَابةٌ ما سألتُ الفِردَوس، ولَكُنْتُ أسألُ الرِّضىٰ، فهو تعجيلُ الفردوس.

وعن الشافعيِّ: أصلُ العلمِ التَّثْبِيتُ، وثمرتُهُ السَّلاَمَةُ، وأصلُ الورعِ القناعةُ، وثمرتُهُ الراحةُ، وأصلُ الصبرِ الحزمُ، وثمرتهُ الظَّفَرُ، وأصلُ العمل التوفيقُ، وثمرتُهُ النُجحُ، وغايةُ كُلِّ أمرٍ الصدقُ.

وعن المأمُون قال: لا نُزهةَ ألذُّ من النظرِ في عُقُولِ الرِّجال.

وعن الصُّورِي محمد بن المبارك قال: عَلامَةُ الحبِّ للهِ المراقبةُ لِلمحبوب، والتَّحرِّي لمرضاتِه.



وعن يحيىٰ بن يحيىٰ، قال: أخذتُ بركابِ الليث، فأراد غلامُهُ أن يمنَعَني، فقال الليثُ: دَعْهُ. ثم قال لي: خدمَكَ العِلْمُ. قال: فلم تَزَلْ بيَ الأيامُ حتىٰ رأيتُ ذلك.

وقال أبوتراب: قال شقيق لحاتِمِ الأَصَمِّ: مُذ صحبتَني، أيَّ شيءٍ تعلمتَ مني ؟ قال: ستَّ كلمات: رأيتُ النَّاس في شكٍ من أمر الرزق، فتوكلتُ علىٰ الله. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[هود:٦]. ورأيتُ لكل رجل صديقاً يُفشي إليه سره، ويشكو إليه، فصادقتُ الخير ليكونَ معي في الحساب، ويَجوزَ معي الصراط. ورأيتُ كل أحدٍ له عدو، فمن اغتابني ليس بعَدُوِّي، ومن أخذ مني شيئاً ليس بعَدُوِّي، بل عَدُوِّي من إذا كنتُ في طاعة، أمرني بمعصية الله، وذلك إبليس وجنوده، فاتَّخذْتُهم عدواً وحاربتُهم. ورأيتُ الناس كلهم لهم طالب، وهو ملك الموت، ففرَّغت له نفسي. ونظرتُ في الخلق، فأحببتُ ذا، وأبغضتُ ذا، فالذي أَحْبَبْتُهُ لم يعطني، والذي أبغضتُه لم يأخذْ مني شيئاً، فقلتُ: من أين أُتيت ؟ فإذا هو من الحسد فطرحتهُ، وأحببتُ الكل، فكل شيء لم أرضَهُ لنفسي لم أرضَهُ لهم. ورأيتُ الناسَ كُلَّهم لهم بيتٌ ومأوىٰ، ورأيتُ مأواي القبر، فكل شيء قدَرت عليه من الخير قَدَّمتُه لنفسي لِأُعْمِرَ قبري.





قال ثعلب: أجْمَعوا أنه لم يكن أحدٌ بعد ابنِ الأعرابي أعلمَ باللغة من ابنِ السِّكِّيت. وكان المتوكلُ قد ألزمه تأديبَ وَلَدِه المعتز، فلما حضر، قال له ابنُ السِّكِّيت: بِمَ تُحبُّ أن تبدأ ؟ قال: بالانصراف. قال: فأقوم. قال المعتز: فأنا أخفُّ منك، وبادر، فعثر، فسقط وخجل، فقال ابنُ السِّكِّيت:

يَمــوتُ الفَتى مِن عَثرَةٍ بلســانهِ ... وَليسَ يَموتُ المرءُ من عَثرةِ الرِّجلِ

فَعثرتُــهُ بالقولِ تُذهِبُ رَأســهُ ... وَعثرتُــهُ بالرِّجلِ تــبرا على مَهلِ

ومن كلام الجُوْعِيُّ القاسم بن عثمان: رأسُ الأعمالِ الرضىٰ عن الله، والورعُ عمادُ الدين، والجوعُ مُخُّ العبادة، والحِصنُ الحصينُ الصَّمْتُ.

قال أبو العبَّاس بن الفُراتَ: حَضَرتُ مجلسَ إسماعيل بنِ بُلبل، وقد جَلَس جُلوسًا عَامّـًا، فَدَخل إليه المتظَلِّمُون، فَنَظَر في أمورهم، فما انصرفَ أحدٌ إلا بِصِلَةٍ، أو وِلايةٍ، أو قضاءِ حَاجَةٍ، أو إنصافٍ، وبقي رجلٌ في آخر المجلس يسألُه تَسبيب إجارة قريته، فقالَ: إنَّ المَوفَّق أمرَ أن لا أُسَيب شَيئًا إلا عن أمره، فَسَأُخبِرُه. قال: فراجعنا الرَّجُل، وقال: متىٰ أَخَّرني الوزير فَسَدَ حالي. فقال لكاتبه: اكتب حاجتَه في التَّذكرة. فولّىٰ الرَّجل غيرَ بعيد ثم رَجَع، واستأذَن، ثم قالَ:



لَيْـسَ فِي كُلِّ دَوْلـةٍ وَأَوَانٍ   تَتَهيَّـا صَنَائِـعُ الإِحْسَـانِ
فَـإِذَا أَمْكنتكَ يَومَـاً مِنَ الدَّهرِ   فَبَـادِر بهَـا صُرُوفَ الزَّمَـانِ

فقال لي: يا أبا العبَّاس: اكتبْ له بتَسييب إجارة ضَيعته السَّاعة. وأمر الصَّيْرفي أن يَدفع إليه خَمس مئة دينار.



وروي عن إبراهيم بن إسحاق الحَربي، قال: النَّاس علىٰ أربع طبقات: مَليح يَتملَّح، ومَليحٌ يَتبَغَّض، وبَغِيضٌ يَتَمَلَّح، وبغيضٌ يتبغض، فالأول: هو المُنىٰ، الثَّاني: يحتملُ، وأما بغيض يتملَّح، فإني أرحمه، وأما البَغيِض، الذي يتبغض، فأفِرُّ مِنه.



قال الخَرَّاز أحمد بن عيسىٰ البغدادي: من ظَنَّ أنَّه يَصِل بغير بَذْل المجهود فهو مُتَمَنِّي، ومن ظَنَّ أنَّه يَصِل ببذل المجهود فهو مُتَعَني.

قال أبا بكر الصِّبْغي: ما رأيتُ في المحدِّثين أهيبَ مِن إبراهيم بن أبي طَالب، كُنَّا نَجلِس بين يديَه وكأنَّ علىٰ رؤوسِنا الطَّيْر. بينا نحنُ في مسجدِه، إذ عَطَسَ أبوزكريا العَنْبَري، فأخْفَىٰ عُطَاسه، فقلتُ له: قليلاً قليلاً، لا تخف فَلَسْتَ بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ.





سئل المُبَرِّدُ: لم لقبت بهذا اللقب ؟ فقال: كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبني للمنادمة والمذاكرة، فكرهت الذهاب إليه، فدخلت إلىٰ أبي حاتم السجستاني، فجاء رسول الوالي يطلبني، فقال لي أبو حاتم: ادخل في هذا –يعني: غلاف مزملة فارغًا– فدخلت فيه، وغطىٰ رأسه. ثم خرج إلىٰ الرسول وقال: ليس هو عندي، فقال: أخبرت أنه دخل إليك فقال: ادخل الدار وفتشها، فدخل، فطاف كل موضع في الدار، ولم يفطن لغلاف المزملة، ثم خرج، فعجل أبو حاتم يصفق وينادي علىٰ المزملة: المبرد، المبرد، وتسامع الناس بذلك، فلهجوا به.

ومن كلام بُنان الحَمَّال: متىٰ يُفْلح مَنْ يَسرُّهُ ما يضرُّه ؟!

قال أبو العبّاس الدَّغولي: أربعُ مجلّدات لا تُفارقُني في السَّفَر، والحَضَر، وإذا خرجتُ من البلد: كتاب المزني، وكتاب «العَيْن»، و«تاريخ البُخاري»، وكتاب «كليلة ودمنة».

القاضي الخَيّاط محمد بن علي المروزي، عُرف بالخَيَّاط لأنَّه كان يَخِيط علىٰ الأيتام والمساكين حِسْبَة.





قال محمد بن المؤمَّل: حَجَّ جَدِّي، وقد شاخَ فدَعَا الله أن يرزُقَه وَلَداً. فلما رجَع رُزِق أبي فسمَّاه المؤمَّل لتحقيق ما أَمَّلَه، وكنَّاه أبا الوفا ليفيَ لله بالنُّذُور، فوفىٰ بها.

قيل للمُرتَعِش عبدالله بن محمد: فلانٌ يمشي علىٰ الماء، قال: عندِي أنَّ من مَكَّنَهُ اللهُ مِنْ مخالفة هَواه فهو أعظَمُ من المشي علىٰ الماء.

ومن قول أبو عليّ الثَّقَفِيُّ محمد بن عبدالوهاب: يا مَنْ باع كلَّ شيءٍ بلا شيء، واشْتَرىٰ لا شيءَ بكلِّ شيء.

قال ابنُ الأَعرَابِيّ أحمد بن محمد: المَعْرِفَةُ كلُّها الاعْتراف بالجَهْل، والتَّصوفُ كلُّه تَرْك الفُضُول، والزُّهد كلُّه أخْذُ ما لا بدَّ منه، والمعاملةُ كلُّها استعمالُ الأولىٰ فالأَولىٰ، والرِّضىٰ كُلّه تَرْك الاعتراض، والعافية كلُّها سقوطُ التكلُّف بلا تكَلُّف.



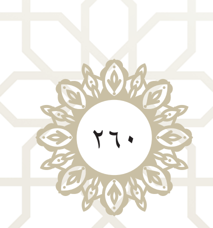


من كلام النَّصْرَابَاذِي إبراهيم بن محمد: نهايات الأولياء بدايات الأنبياء.

قال التَّنوخي: قال لي ابنُ الثَّلاج عبدالله بن محمد: ما باع أحدٌ من أَسلافي ثَلْجًا، وإنَّما كان جدِّي مترفًا، يَجمعُ له ثَلجًا كثيراً، فمرَّ بعض الخلفاء بحُلوان، فطلب ثلجًا، فما وجده إلّا عند جدِّي، فوقع منه بمَوقع، وقال: اطلبُوا عبدَ اللهِ الثَّلاج، فعُرف به.

قال أبو حيّان التوحيدي في رسالة له: سمعتُ الشيخَ أبا حامد الإسفَرايِيني يقولُ لطاهرٍ العبّاداني: لا تُعلِّق كثيراً مما تسمعُ منا في مجالس الجَدَل، فإنَّ الكلام يجري فيها على خَتْلِ الخَصم ومُغالطته ودفعِهِ ومُغَالبتهِ، فلسنا نتكلَّمُ لوجِه الله خالصًا، ولو أردنا، لكان خطُونا إلى الصمتِ أسرَعَ من تطاوُلِنا في الكلام، وإنْ كُنا في كثيرٍ من هذا نبوءُ بغضبِ الله، فإنا نطمعُ في سعةِ رحمةِ الله.

قال الصُّعْلُوكي سهل بن الإِمام: إذا كان رضى الخلق معسوراً لا يُدرك، كان رضى الله ميسوراً لا يُترك.





الفالي أبو الحسن علي بن أحمد الفالي الشاعر، له نَظمٌ جيِّد وفضائل، وقد اشترىٰ منه الشريفُ المرتضىٰ كتاب «الجَمْهَرَة» بستين ديناراً، فإذا عليها للفالي قطعة أبيات منها:

وقد تُخْرِجُ الحاجــاتُ يا أُمَّ مالك   كَرَائِــمَ مِــنْ رَبٍّ بِهِــنَّ ضَنِينِ

وهذا البيت تضمين ما قاله أعرابي فيما ذكره الزبير بن بكار عن يوسف بن عياش، قال: ابتاع حمزة بن عبدالله بن الزبير جملاً من أعرابي بخمسين ديناراً، ثم نقده ثمنه، فجعل الأعرابي ينظر إلىٰ الجمل ويقول:

وقد تخرج الحاجــات يا أم مالك   كرائــم مــن رب بهــن ضَنِينِ

يقول السَّمَّان أبو سعد إسماعيل بن علي الرازي: من لم يَكتبِ الحديثَ لم يَتَغَرْغَرْ بحلاوة الإسلام.

يقال أن الكُنْدُرِي أبو نصر محمد بن منصور، غَنَّتْهُ بنتُ الأعرابي في جَوْقِهَا، فَطَرِبَ، وأمر لها بألفي دينار، ووهب أشياء، ثم أصبح، وقال: كفَّارةُ المجلس أن أتصدقَ بمثل ما بَذلتُ البارحةَ.





قال إمام الحرمين أبي المعالي الجُويني: ما من فقيهٍ شافعيٍّ إلا وللشافعيّ عليهِ مِنَّةٌ إلا أبا بكر البيهقي، فإنَّ المِنَّةَ له علىٰ الشافعي لتصانيفه في نُصرة مذهبه.

السمعاني: سمعتُ الحسينَ بنَ عبدالملك الخَلاّل، سمعتُ عبدالرحمن بن منده يقول: قد عَجبتُ من حالي، فإني وجدتُ أكثر من لقيتُه إن صَدَّقتُه فيما يقولُهُ مدارةً له؛ سمَّاني موافقًا، وإن وَقَفْتُ في حَرْفٍ من قوله أو في شيءٍ من فعله؛ سماني مخالفًا، وإن ذكرتُ في واحد منهما أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك؛ سماني خارجيًا، وإن قُرئ علي حديثٌ في التوحيد؛ سماني مشبهـًا، وإن كان في الرؤية؛ سماني سالميـًا.

ابن البنَّاء أبو علي الحسن بن أحمد بن عبدالله البغدادي الحنبلي، قد ذكره القِفْطيُّ، فقال: كان من كبار الحنابلة، قيل: إنه قال: هل ذكرني الخطيبُ في «تاريخ بغداد» في الثقات أو مع الكذَّابين ؟ قيل: ما ذكرك أصلاً. فقال: ليتَه ذكرني ولو مع الكَذّابين.





قال ابنُ طاهر: كان هَيَّاجُ بن عُبيد الشامي الشافعي أبو محمد يمشي حافياً من مكة إلىٰ المدينة، وسمعتُ من يشكو إليه أن نعليه سُرِقتَا، فقال: اتخذ نعلين لا يسرقُهُما أحد -يعني الحفاء-.

مَلِكْشَاه ابن السلطان ألب أرسلان، شيَّع مرة ركبَ العراقِ إلىٰ العُذَيب، فصادَ شيئاً كثيراً، فَبَنىٰ هناك منارةَ القرون مِن حوافر الوَحش وقرونها، ووقف يتأمَّل الحُجَّاج، فرقّ ونزل وسجد، وعفَّر وَجْهَهُ وبكىٰ، وقال بالعجمية: بلِّغوا سلامي إلىٰ رسولِ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقولُوا: العبدُ العاصي الآبق أبو الفتح يخدم ويقول: يا نَبي الله، لو كنتُ مِمَّن يصلُح لِتِلك الحضرة المقدَّسة، كنتُ في الصُّحبة، فضجَّ الناسُ وَبَكوْا، وَدَعَوْا له.

وقال السِّلَفِي: قال لي أبو الخطاب ابن الجرَّاح: صليت بالمُستَظْهِر بالله أحمد بن عبدالله في رمضان، فقرأت: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَّقَ﴾[يوسف:٨١]، روايةً رويناها عن الكِسائي، فلما سلمتُ، قال: هذه قراءة حسنة، فيه تنزيه أولاد الأنبياء عن الكذب.





اشتهرت مقامات الحريري، وأعجبت وزيرَ المسترشد شرفَ الدين أنوشِروان القاشاني، فأشار عليه بإتمامها، وهو القائل في الخطبة: فأشار مَنْ إشارته حُكْمٌ، وطاعته غُنْمٌ.

ذكروا أن غريباً جاء يزور الحريري القاسم بن علي، ويأخذ عنه شيئًا، فلما رآه استقبح منظره، واستزراه، ففهم ذلك الحريري منه، فأملىٰ عليه قوله:

ما أنــت أول سَــارٍ غــرهُ قمرٌ ... ورائــدٍ أعجبته خــضرةُ الدِّمَنِ

فاختر لنفســك غيري إنني رجلٌ ... مثل المعيدي فاســمع بي ولا ترني

قال ابنُ الخيَّاط أحمد بن محمد: دخلتُ في الصِّبا علىٰ الأميرِ ابن حيُّوس بحلب وهو مُسِنٌّ، فأنشدتُهُ لي:

لــم يبقَ عندي ما يبــاع بدرهمٍ ... وكفاك علماً منظري عن مخبري

إلا صبابــة مــاء وجــهٍ صنتها ... من أن تباع وأين أين المشــتري

فقال له ابنُ حيوس: لو قلت:

وأنتَ نِعْمَ المُشْتَرِي

لكان أحسنَ، ثم قال: كَرُمْتَ عندي، ونعيتَ إليَّ نفسي، فإن الشام لا



يخلو من شاعر مُجيد، فأنت وارثي، فاقصدْ بني عمار بطرابلس، فإنهم يحبون هذا الفن، ثم وصله بثياب، ودنانير، ومضىٰ إلىٰ بني عمَّار، فوصلُوه، ومدحهم.

قال حمَّاد بن مسْلم أبو عبدالله الدباس: إذا أحبَّ الله عبداً، أكثرَ همَّه فيما فرَّط، وإذا أبغض عبداً، أكثر همَّه فيما قسمه له.

قال السمعاني: كان اللَّفْتُواني أبو بكر محمد بن أبي نصر، شيخاً صالحاً، كثيرَ الصلاةِ، حسنَ الطَّريقةِ خَشِنَها، سمعتُ منه الكثيرَ، وما دخلتُ عليه إلا وهو مُشتغِلٌ بخير، يُصَلِّي، أو ينسَخُ، أو يتلُو، وكان يقرأُ قراءةً غيرَ مفهومةٍ، وهو عارفٌ بالحديثِ وطُرُقِهِ، كتب عمَّن أقبل وأدبر، وخطُّه لا يُمْكِنُ قراءتُهُ لكل أحدٍ، فكان يقولُ: يكفي من السماع شَمُّه.

كان ابن الحُطَيْئة أبو العباس أحمد بن عبدالله كثيراً ما يقول إذا ذُكر عُمر بنُ الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: طُوِيتْ سعادةُ المسلمين في أكفانِ عُمر.





وعن أبي الثَّناء النهرملكي قال: تحدثنا أنَّ الذُّباب ما يقعُ علىٰ الشيخ عبدِالقادر الجيلاني، فأَتيتُهُ، فالتفتَ إليَّ، وقال: أيشٍ يعمل عندي الذبابُ، لا دِبَسُ الدنيا، ولا عَسَلُ الآخرة.

قال ابن الخشَاب أبو محمد عبدالله بن أحمد لرجلٍ: ما بكَ ؟ قال: فُؤادي. قال: لو لم تهمزْهُ لم يُوْجِعْكَ.

قَدَّم السودان لصاحب المغرب يعقوب بن يوسف فيلاً فوصلهم، وردَّه، وقال: لا نريدُ أنْ نكونَ أصحابَ الفيلِ.

قال أبو الفرج ابن الجَوْزِيَ: يفتخر فرعونُ مصرَ بنهرٍ ما أجراهُ، ما أجرأه !

وكان في المجلس رَجلٌ يُحَسِّنُ كلامَهُ، ويُزَهْزِهُ لَهُ، فسكَتَ يومـًا، فالتَفَتَ إليه أبو الفرج ابن الجَوْزِيَ، وقال: هارونُ لفظك معينٌ لموسىٰ نطقي، فأرسِلْهُ معي ردْءاً.





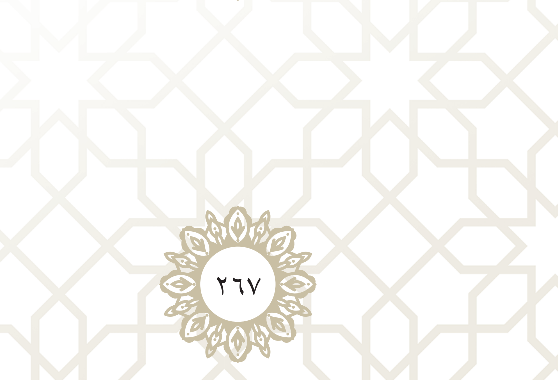
حكىٰ العزّ أخو ابنُ الأثير المبارك بن محمد، قال: جاء مغربيّ عالجَ أخي بدهن صنعه، فبانت ثمرته، وتمكّن من مدّ رجليه، فقال لي: أعطه ما يرضيه واصرفه قلت: لماذا وقد ظهر النُّجح ؟ قال: هو كما تقول، ولكني في راحة من ترك هؤلاء الدَّولة، وقد سَكَنَتْ نفسي إلىٰ الانقطاع والدَّعة، وبالأمس كنتُ أُذَلُّ بالسَّعي إليهم، وهنا فما يجيئوني إلاّ في مشورة مُهِمَّة، ولم يبق من العُمر إلا القليل.



كان ابن سُكَينة عبدالوهاب بن منصور ظاهر الخشوع، غزيرَ الدَّمعة، ويعتذر من البُكاء، ويقول: قد كبرت ولا أملكه.



قال عُمر بن الحاجب في «مُعجمه»: ابن راجح محمد بن خلف المقدسي الجماعيلي إمامٌ مُحَدِّثٌ، فقيه، عابد، دائمُ الذِّكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، صاحبُ نوادر وحكايات، عنده وسوسة زائدة في الطهارة، وكانَ يُحدّث بعد الجُمُعَة من حِفظه، وكانت أعداؤه تشهد بفضله.





قال ابن النجار: كان ابن قُدامَة عبدالله بن أحمد المقدسي الجماعيلي إمام الحنابلة بجامع دمشق، وكان ثِقةً حُجة نبيلاً، غزير الفضل، نزهـًا، ورعـًا عابداً، علىٰ قانون السَّلَف، عليه النور والوقار، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه.

نقش ختم الناصر لدين الله أحمد بن الحسن العباسي البغدادي: «رجائي من الله عفوه».

قال الشيخَ تقيَّ الدين أبا العباسِ: كان الشيخُ جمالُ الدين بن مالك يقولُ: أُلِيْنَ للشيخِ ابن تيميّة الفقهُ كما أُلينَ لداودَ الحديدُ. ثم قالَ الشيخ: وكانت في جدّنا حدّة، قال: وحكىٰ البرهان المراغيّ أنّه اجتمع بالشيخِ ابن تيميّة، فأورد علىٰ الشيخِ نكتةً فقال: الجوابُ عنها من ستين وجهـًا: الأول كذا، الثاني كذا، وسردها إلىٰ آخرها، وقال قد رضِينا منكَ بإعادة الأجوبة، فخضع البرهان له وانبهر.









من صور الحياء والتعفف

لبثت فاطمة بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعين بين يوم وليلة، فقالت: إني لأستحتي من خلل هذا النعش إذا حملتُ فيه، فقالت لها امرأة -لا يدرى أسماء بنت عميس أو أم سلمة- إن شئت عملت لك شيئًا يعمل بالحبشة، ويحمل فيه النساء، قالت: أجل فاصنعيه، فصنعت النعش، فلما رأته، قالت: سترك الله. قال: فما زالت النعوش تصنع بعدها.



خرج زيدُ بنُ ثابت يُريدُ الجمعة، فاستقبل النَّاسَ راجعين، فدخل داراً، فقيل له. فقال: إنَّه من لا يستحي مِنَ النَّاس لا يستحي من الله.

قال إبراهيم بن إسحاق الحَربي: كُنا عند عُبَيْدالله بن عائشة في مَسْجِدِه، إذ طَرَقَه سائلٌ، فسألَه شيئًا، فلم يكن معه ما يُعطيه، فَدَفَع إليه خاتَمَهُ، فلمَّا أَنْ وَلَّىٰ السائل دعاه، فقالَ له: لا تَظُن أنِّي دعَوتُك ضِنةً مِنِّي بما أعطيتُك، إنَّ هذا الفَصَّ شِراؤه عليَّ خمس مئة دينارٍ، فانظُر كيف تُخرجه. فَضَرَبَ السَّائلُ بيده إلىٰ الخاتَمِ، فَكَسَره، ورَمىٰ بالفَصِّ إليه، وقال: بارَك الله لك في فَصِّك، هذه الفِضَّةُ تَكفيني لِقُوتي وقُوتِ عِيالي اليَومَ.





البُسْتي أبو العز محمد بن علي الإِمامُ الزاهد، كان فقيراً مُجَرّداً يسأل، ومن أعطاه أكثر من نصف درهمٍ ردَّه.







في الحلم والعفو والصفح

فَضَلَ شدَّادُ بنُ أوس الأنصارَ بخَصلتين: ببيَانٍ إذا نطق، وبكَظم إذا غضب.

دخل حسانُ بن ثابت علىٰ عائشة، بعدما عَمي، فوضعتْ له وِسادةً، فدخل أخوها عبدالرحمن، فقال: أجلستيه علىٰ وِسادة، وقالَ ما قال ؟ -يريدُ: مقالتَه نوبة الإِفكِ- فقالت: إنه -تعني أَنَّه كان يُجِيبُ عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ويَشفي صدره من أعدائه- وقد عَمِيَ، وإني لأرجو ألاَّ يُعَذَّب في الآخرة.

عن صفوان بن المُعَطَّل، قال: ضرب حسانَ بنَ ثابت بالسيف في هجاء هجاهُ به، فأتىٰ حسَّانُ النبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فاستعداه عليه. فلم يُقِده منه، وعَقَلَ له جُرحه، وقال: «إنك قلت قولاً سيئًا».

والذي قاله حسان:

أمسى الجلابِيبُ قد عزوا وقد كثروا   وابنُ الفريعـــة أمسى بيضة البلدِ



(الجلابيب: السفلة، وابن الفريعة: حسان، والفريعة أمه، وبيضة البلد، أي: وحيداً، تشبيهاً له ببيضة النعامة التي تتركها في الفلاة، فلا تحضنها، وتبقىٰ تريكة). فغضب صفوانُ، وقال: يُعرِّضُ بي ! ووقف له ليلةً، حتىٰ مرَّ حسان، فيضربُه بالسيف ضربةً كشط جلدةَ رأسه. فلكم النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسانَ، ورفق به، حتىٰ عفا؛ فأعطاهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيرين أُخْتَ مارية لعفوه، فولدتْ له ابنَه عبدالرحمن.

خاصم رجلٌ الأَحْنَفُ بنُ قَيْس، وقال: لِئن قلتَ واحدة، لتسمعَنَّ عَشْراً. فقال: لكنَّك إن قلتَ عشراً لم تسمع واحدة.

قال المُهَلَّب بن أبي صفرة: ما شيءٌ أبقىٰ للمُلك من العفو، خير مناقب المَلِكِ العَفْو.

قال هشام بن عُروَة بن الزبير بن العوَّام: قال أبي: رُبَّ كلمةِ ذُلٍّ احتملتها أورثتني عِزاً طويلاً.



مَعمَر، عن سِماك بن الفَضل، قال: كُنَّا عند عُروةَ بن محمد الأمير، وإلىٰ جنبهِ وَهْبُ بن مُنَبِّه، فجاء قومٌ فشَكَوا عامِلَهم وذكروا منه شيئًا قبيحًا، فتناول وَهْب عصًا كانت في يد عُروة فضرب بها رأس العامل حتَّىٰ سال الدَّم؛ فضحك عروةُ واستلقىٰ وقال: يَعيبُ علينا وَهْب الغَضَب وهو يَغضب! قال: ومالي لا أغضبُ وقد غضِبَ الذي خلقَ الأحلام، يقول تعالىٰ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[الزخرف:٥٥].

كان ابن عياش المَنْتُوف يقع في عمر بن ذَرّ ويشتمه. فلقيه عمر، فقال: يا هذا لا تفْرطْ في شتمنا، وأَبْقِ للصلح موضعًا، فإنا لا نُكافئ من عصىٰ الله فينا بأكثرَ من أن نطيع الله فيه.

وعن المأمون قال: الملِكُ يغتَفِرُ كلَّ شيءٍ إلا القَدْحَ في المُلك، وإفشاءَ السِّرِّ، والتعرُّضَ لِلحُرَم.

قال إبراهيمُ بن المَهدي حين أُدخِلَ علىٰ المأمون: ذنبي أعظمُ مِن عُذرٍ، وعفوكَ أعظَمُ مِن أن يتعاظَمَه ذنب. وقيل: إنَّ أحمدَ بن خالد الوَزير، قال: يا أميرَ المؤمنين، إنْ قتلتَه، فلَكَ نُظَرَاء، وإن عفوتَ، لم يكن لك نَظِير.





ومن كلام المُنتصِر بالله إذ عفا عن أبي العَمَرَّد الشاري: لذةُ العفوِ أعذبُ من لذة التَّشَفِّي، وأقبحُ فعالِ المُقتدر الانتقامُ.

قال عبدالله بن محمد الصارفي: كنتُ عند أبي عبدالله البُخَارِيُّ في منزِله، فجاءتهُ جاريةٌ، وأرادت دخولَ المنزل، فعثَرتْ علىٰ محبرةٍ بين يديه، فقال لها: كيف تمشين ؟ قالت: إذا لم يكن طريق، كيف أمشي ؟ فبسط يديه، وقال لها: اذهبي فقد أعتقتُكِ. قال: فقِيل له فيما بعد: يا أبا عبدالله، أغضبتكَ الجاريةُ ؟ قال: إن كانت أغضبتني فإنِّي أرضيتُ نفسي بما فعلت.

ابن المَغْرِبي علي بن الحسين هو القائل:

وَلَيْــسَ حَلِيماً مَــنْ تُقَبَّلُ كَفُّهُ   فيرْضى ولكنْ مَنْ تُعَضُّ فيَحلُمُ

قال المسترشد بالله الفضل بن أحمد: سُرْعَةُ العفوِ عن كبيرِ الجُرم استحقارٌ بالمعفو عنه.







في الحب والغزل

هَوِيَ عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، ابنة الجُوديِّ، وتغزَّل فيها بقوله:

تذكرت ليلى والسَّماوة دونها فما لابنة الجودي ليلى وماليا
وأنى تعاطى قلبه حارثيةٌ تدمَّن بصرى أو تحل الجوابيا
وأنى تلاقيها بلى ولعلها إن الناسُ حجوا قابلاً أن توافيا

فقال عمر لأمير عسكره: إن ظفرتَ بهذه عنوة، فادفعها إلىٰ ابن أبي بكر. فظفر بها، فدفعها إليه. فأُعجبَ بها، وآثرها علىٰ نسائه، حتىٰ شكونَه إلىٰ عائشة، فقالتْ له: لقد أفرطتَ. فقال: والله، إني لأرشفُ من ثناياها حَبَّ الرُّمَّان. فأصابها وجع، فسقطت أسنانُها؛ فجفاها، حتىٰ شكتْهُ إلىٰ عائشة. فكلَّمَتْه. قال: فجهَّزَها إلىٰ أهلها. وكانت من بنات الملوك.

إنَّ المجنون قيس بن الملوِّح عَلِقَ ليلىٰ عَلاقَةَ الصِّبَا وكانا يَرْعَيَانِ البَهْمَ. ألا تسمعُ قولَه، وما أفحل شعره:

صَغيرَيْنِ نَـرْعَى البَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنا إلى اليَوْمِ لمْ نَكْبَرَ ولَمْ تَكْبَرَ البَهْم

وهو القائل:

مَحَا حُبُّها حُـبَّ الأُلَى كُنَّ قَبْلَها وحَلَّتْ مكاناً لم يَكُنْ حُلَّ مِنْ قَبْلُ





ما أحلىٰ استهلال جميل بن عبدالله بن معمر حيثُ يقول:

ألا أيُّها النُّــوَّامُ وَيحَكُــمُ هُبُّوا   أُسَائِلُكُمْ: هَل يقتُلُ الرَّجُلَ الحُبُّ

دخل رجل إلىٰ عيسىٰ بن طلحة، فأنشد عيسىٰ:

يَقُولُونَ لَو عذَّبتَ قَلبكَ لارعَوَى   فَقُلْــتُ: وهَل للعاشِــقينَ قُلُوبُ

عَدِمتُ فُؤَادِي كَيفَ عَذَّبَهُ الهَوَى   ومَا لِفُــؤَادِي مِنْ هَــوَاهُ طَبيبُ

فقام الرجل، فأسبل إزاره، ومضىٰ إلىٰ باب الحُجرة يتبختر، ثمّ يرجع، حتىٰ عاد إلىٰ مجلسه طربـًا، وقال: أحسنت. فضحك عيسىٰ وجلساؤه لطرب الرجل.

قال يزيدُ بنُ عَبْدِالمَلِك: واللهِ ما عمر بنُ عبدالعزيز بأحوجَ إلىٰ الله منِّي، فأقام أربعين يومـًا يسيرُ بسيرته، فتلطفت حَبَابة وغنَّته أبياتـًا، فقال للخادم: ويحكَ! قُلْ لِصاحب الشُّرَط يُصلِّي بالناس. وهي التي أحبَّ يومـًا الخلوةَ معها، فحذفها بعِنَبة، وهي تضحك، فوقعت في فيها فشرِقَت، فماتت، وبقيت عنده حتىٰ أروحت، واغتمَّ لها، ثم زار قبرها وقال:

فإن تَسْلُ عَنْكِ النَّفْسُ أو تَدَعِ الصِّبى   فباليأسِ تَسْــلُو عَنْكِ لا بالتَّجلُّدِ

قيل: مشىٰ مع جارية في قصوره بعد موت حَبَابَة، فقالت جاريتُه:





كَفَى حَزَناً بالــوالهِ الصَّبِّ أنْ يَرَى　　مَنَــازِلَ مَنْ يَهْــوى مُعَطَّلةً قَفْرا

فصاح، وخرَّ مغشياً عليه، ومات بعد أيام.

قال أبو تمَّام: بشَّار بن بُرد أشعرُ النَّاس، وهو القائل:

أَنَا وَاللّه أَشْــتَهي سِــحْرَ عَيْنَيْـ　　ـــكِ وَأَخْشَى مَصَارِعَ العُشَّــاق

وله:

هَلْ تَعْلَمِــينَ وَرَاءَ الحُبِّ مَنْزِلَةً　　تُــدْني إلَيْكِ فَإنَّ الحُــبَّ أَقْصاني

قال يَحيىٰ بنُ أَكْثَم: يا كهل، أنشِدني شعراً غزِلاً، فأَنشده:

أَغَــرَّكِ أَنْ أَذْنَبْتِ ثُــمَّ تتابَعَتْ　　ذُنوبٌ، فَلَــمْ أَهْجُرْكِ ثُــمَّ أَتوبُ

وَأَكْثَرْتِ حَتَّى قُلْتِ: لَيْسَ بِصارِمي　　وَقَدْ يُصْدَمُ الإنْســانُ وَهْوُ حَبيبُ

فصاح: زاغ زاغ زاغ، فطار، ثم سقط في القِمَطرِ. فقلتُ: أعزَّ اللهُ القاضي، وعاشقٌ أيضـًا ؟ فضحك.





الخَلِيع الحسين بن الضحاك شُهِر بالخليع لمجونه وهَنَاته. وهو القائلُ:

مَــنْ بَكَــى شَــجْوَهُ اسْــتَرا   حَ وإن كان مُوجِعَــــــــا

قال محمدُ بن إبراهيم بن سُكَّرَة القاضي: كانَ مُحمد بن جَامع الصَّيْدلاني محبوبَ مُحمد بن دَاود، وكانَ يُنفِقُ علىٰ ابن دَاود، وما عُرِفَ معشوقٌ يُنفقُ علىٰ عاشِقه سِواه، ومِن شِعرِه:

وَمَا الحُبُّ مِنْ حُسْنٍ وَلا من سَمَاحَة   وَلكِنَّهُ شَيءٌ بِهِ الــرُّوْحُ تَكْلَفُ

قال إبراهيمُ بن عَرَفة نِفْطَوَيْه: دَخَلتُ علىٰ محمد بن داود في مَرَضه، فقلتُ: كيفَ تجِدُك ؟ قال: حُبُّ مَنْ تَعلَم أورثني ما ترىٰ. فقلتُ: ما منعكَ من الاستمتاع به، مع القُدرة عليه ؟ قال: الاستمتاعُ علىٰ وجهين، أحدهما: النَّظَر، وهو أَورَثَني ما تَرىٰ، والثاني: اللَّذَّة المحظورة، ومنعني منها ما حدثني به أبي (من عشق وعف وكتم وصبر غفر الله له وأدخله الجنة).





سمعَ يوسُفُ بنُ الحُسَيْن الرازي قَوّالاً يُنشد:

رَأَيْتُــكَ تَبْنِي دائِمــاً في قَطِيْعَتِي ... وَلَوْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ لَهَدَّمْتَ ما تَبْنِي

كَأَنِّي بِكُمْ واللَّيْتُ أفْضَلُ قَوْلِكُمْ ... أَلَا لَيْتَنا كُنَّــا إذا اللَّيْتُ لا تُغْنِي

فبكىٰ كثيراً وقال للمنشد: يا أخي ! لا تَلُم أهلَ الرَّي أن يُسَمُّوني زِنْدِيقاً، أنا من بكرةٍ أقرأُ في المصحفِ ما خَرَجَتْ من عَيْني دَمْعَة، ووقَعَ منِّي إذ غَنَّيْتَ ما رَأَيْت.

ومن شعر ابنُ الفُرَات ويقال ما عمِلَ غيرَهُما:

مُعَذِّبَتِي هَــلْ لي إلى الوَصْلِ حِيْلَةٌ ... وَهَلْ إلى اسْتِعْطَافِ قَلبِكِ مِنْ وَجْهِ

فَلا خَــيْرَ في الدُّنيا وَأنْــتِ بَخِيْلَةٌ ... وَلا خَيْرَ في وَصــلٍ يَجِيءُ عَلَى كُرْهِ

البِتَّاني محمد بن جابر وهو الملك ضَيْزن، ويلقَّب بالسّاطِرُون، لفظة سريانيَّة، معناه الملك، وكان هذا من ملوك الطَّوائف، قام أزدشير يحاصره أربع سنين ولا يقدر عليه. وكانت لِضَيْزن بنتٌ فائقة الجمال، فلمحت من الحِصن أزدشير، فأعجبها وهَوِيَتْه، فأرسلت إليه يتزوَّجُها، وتفتح له الحِصن، فقيل: كان عليه طِلَّسم، فلا يفتح حتّىٰ تُؤخذ حمامة، تخضب رجلاها بحيض بكر زرقاء، ثم تسيَّب الحمامة فتحطُّ علىٰ السُّور، فيقع الطِّلَّسْم، ففُعل ذلك،



وأُخذ الحصن، ثُمَّ لمّا رآها أزدشير قد أسلمت أباها مع فَرْط كرامتها عليه قال: أنتِ أَسرعُ إليَّ بالغَدر. فربط ضفائِرَها بذنَب فرسٍ، وركضَه، فَهَلَكتْ.

القِرمِطيّ الحسن بن أحمد له نظمٌ يروق، وهو القائل:

لَهَا مُقْلَةٌ صَحَّتْ وَلكِنْ جُفُونُها ... بِهَا مَرَضٌ يَسْـبي القُلُوبَ ويُتْلفُ

وخَدٌّ كَوَرْدِ الـرَّوضِ يُجْنَى بأَعْيُنٍ ... وَقَدْ عَزَّ حتَّى إِنَّـه لَيْسَ يُقْطَفُ

وعَطفةُ صُدْغٍ لـو تعلَّم عطفها ... لكانـت على عشّـاقها تتعطَّفُ

كان كَشاجم محمود بن حسين شاعراً، كاتبًا، منجِّما، فعُمل من حروف ذلك له اللَّقب. وله:

مُسـتملحٌ مِـنْ كُلِّ أَطْرَافِـهِ ... مُسْتَحْسَـنُ الإِقْبَـالِ وَالمُلْتَفَتْ

لَـوْ بِيْعَـتِ الدُّنيـا وَلَذَّاتُهـا ... بِسَـاعَةٍ مِـنْ وَصْلِهِ مَـا وَفَتْ

السُّلمي: سمعتُ ابنَ سمعون محمد بن أحمد، يقول في ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾[الأعراف:١٤٢] مواعيد الأَحبَّة وإن اختلفت فإنَّها تؤنس. كنّا صبيانًا ندورُ علىٰ الشطِّ ونقول:





مَاطِلِيـــني وَســــــــوِّفي وعِدِينـــــــــــي ولا تَفِي
واتْـــــركِينـــي مُوَلَّهــاً أو تجـــــــودي وَتَعْطِــفي

ابنُ بابَك عبدالصمد بن منصور، له بيت في غاية الرقة وهو:

ومــرَّ بي النســيمُ فــرقَّ حتى كأني قــد شــكوت إليــه ما بي

يقول عبدالله الوَنِّي: سمعتُ القائم بأمر الله يُنشد لنفسه:

القلب من خمــر التصابي منتشي هل لي غديرٌ مــن شرابٍ مُعطشِ
والنفس من بــرح الهوى مقتولةٌ ولكم قتيــلٍ في الهوى لم ينعشِ
جُمِعَت عليَّ من الغــرام عجائبٌ خلفــن قلبي في إســارٍ موحشِ
خِــلٌّ يَصُــدُّ وعَاذِل مُتَنَصِّــحٌ ومُنــازِعٌ يُغْــرِي ونَمَّــامٌ يَشِي

من نظم القُشيْري أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن:

سقى الله وقتاً كنت أخلو بوجهكم وثغر الهوى في روضة الأُنسِ ضاحكُ
أقمت زمانــاً والعيــون قريرةٌ وأصبحتُ يوماً والجفون سوافكُ





ابن زَيدون الأندلسي الشاعر هو صاحبُ هذه الكلمة البديعة:

بِنتُــم وَبِنّا فَما اِبتَلَّــت جَوانِحُنا　　شَــوقاً إِلَيكُم وَلا جَفَّت مَآقينا
كُنّا نَرى اليَأسَ تُســلينا عَوارِضُهُ　　وَقَد يَئِســنا فَما لِليَــأسِ يُغرينا
نَكادُ حــينَ تُناجيكُم ضَمائِرُنا　　يَقضي عَلَينا الأَسى لَولا تَأَسّــينا
حالَت لِفَقدِكُــمُ أَيّامُنا فَغَدَت　　ســوداً وَكانَت بِكُم بيضاً لَيالينا
لِيُسقَ عَهدُكُمُ عَهدُ السُرورِ فَما　　كُنتُــم لِأَرواحِنــا إِلّا رَياحينا

ومن شعر أبو إسحاقَ الشِّيرازي إبراهيم بن علي:

ومــا حُــبِّي لِفَاحِشَــةٍ ولكِنْ　　رأيــتُ الحُــبَّ أَخْــلاقَ الكِرَامِ

ومن شعر الأَبِيوَرْدِي محمد بن أحمد:

وَهَيفاءَ لا أُصــغي إِلى مَن يَلومُني　　عَلَيهــا وَيُغريني بِهــا أَن يَعيبَها
أَميــلُ بِإِحدى مُقلَــتَيَّ إِذا بَدَتْ　　إِلَيهــا وَبالأُخــرى أُراعي رَقيبَها
وَقَد غَفَلَ الــواشي وَلَم يَدرِ أَنَّني　　أَخَذتُ لِعَيني مِن سُلَيمى نَصيبَها





ظافر بن القاسم أبو منصور الجذامي، شاعر زمانه، وهو القائل:

يَذُمُّ المُحِبُّـــونَ الرَّقيبَ وَلَيْتَ لي   مِنَ الوَصْلِ مَا يُخْشَى عَلَيْهِ رَقِيبُ

لابن مُجبَر يحيىٰ بن عبدالجليل:

يقولُون دَاوِ القَلْبَ يَسْلُ عن الهوى   فقلتُ لَنِعْمَ الرأيُ لَــوْ أَنَّ لي قَلْبَا

عن ابنِ الدُّبَيْثِيِّ، أنشدنا أبوطالب بنُ زَبَادَةَ يحيىٰ بن سعيد، أنشدني القاضي الأَرَّجانيُّ لنفسِهِ:

ومقسومة العينين من دهش النوى   وقد راعها بالعيـــس رجع حداءِ
تجيــب بإحـــدى مقلتيها تحيتي   وأخرى تـــراعي أعـــين الرقباءِ
ولما بكت عيني غـــداة رحيلهم   وقـــد روعتـــني فرقـــة القرناءِ
بدت في محياهـــا خيالات أدمعي   فغاروا وظنـــوا أن بكت لبكائي





عن الشعر والشعراء وشوارد الأبيات

ورُويَ عن عائشة قالت: قدم رسولُ الله المدينة، فهجَتْه قريش، وهجَوا معه الأنصار. فقال لحسان بن ثابت: «اهجهم وإني أخاف أن تصيبني معهم بهجو بني عمي». قال: لأَسلَّنَّكَ منهم سلَّ الشعرة من العجين، ولي مِقْول يَفري ما لا تفريه الحَربة. ثم أخرجَ لسانَه، فضربَ به أنفه، كأنه لسانُ شُجاع بطَرَفه شامة سوداء، ثم ضَرب به ذقنه.

قال ابنُ سيرين: كان شعراءُ أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: حسانَ بن ثابت، وعبدَالله بن رواحة، وكعبَ بن مالك. وقال: أما كعبٌ، فكان يذكر الحربَ، يَقولُ: فَعلْنَا ونَفعلُ، ويتهدَّدُهم. وأما حسانُ، فكان يذكرُ عُيوبهم وأيامهم. وأما ابنُ رواحة، فكان يُعيِّرهم بالكفر.

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لكعب بن مالك: «ما نسي ربك لك -وما كان ربك نسيا- بيتـًا قلته». قال: ما هو ؟ قال: «أنشده يا أبا بكر»، فقال:

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّها ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ





شُكيَّ صفوانُ بنُ المُعَطَّل إلىٰ رسول الله، قال: وكان يقولُ هذا الشعر. فقال: «دعوا صفوان، فإنه خبيث اللسانِ طيب القلب».

اجتمع في جنازةِ أبي رجاء العُطَاردي، الحسَنُ البصري والفرزدق، فقال الفرزدق: يا أبا سعيد، يقولُ الناس: اجتمع في هذه الجنازة خَيْرُ الناسِ وشرُّهم. فقال الحسَن: لسُت بِخَير الناس ولستَ بشرِّهم لكن ما أعددتَ لهذا اليوم يا أبا فراس ؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وعبدُه ورسوله، ثم انصرف وقال:

إلى حُفْـــرَةٍ غَبراءَ يُكـــرَهُ وردُها   سِـــوى أنَّها مَثوى وَضِيعٍ وَسَـــيِّدِ

وقال الزُّبَير: حَدَّثني عليُّ بن صالح، حدّثني عامر بن صالح بن عبدالله بن عُروة بن الزبير، عن هشام بن عروة عن أبيه، أنَّه قدِمَ البصرة علىٰ ابن عباس وهو عاملٌ عليها، فيقال أنشدَهُ:

أمُـــتُّ بِأَرحـــامٍ إليـــكَ قريبةٍ   ولا قُربَ بالأرحَامِ مـــا لم تُقَرِّب

فقال لِعُروة: من قال هذا ؟ قال: أبو أحمد بن جحش قال ابن عباس: فهل تدري ما قال له رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قال: لا. قال: قال له: صدقت،





ثم قال لي ما أقدَمَكَ البصرة ؟ قلتُ: اشتدَّتِ الحال، وأبىٰ عبدالله أن يقسم سبعَ حِجَجٍ وتأَلَّىٰ حتىٰ يقضيَ دَينَ الزُّبَير، قال: فأجازني وأعطاني.

كان عبدالملك بن مروان يجزل عطاء الأخطل، ويُفضِّله في الشعر علىٰ غيره، وله:

وإذا افتقَـــرتَ إلى الذَّخائِرِ لم تجد ذُخراً يَكُونُ كصالـــحِ الأعمَالِ

عُمَرُ بنُ عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي نظمه فائق سائر فمنه:

وَلَهُـــنَّ بالبَيـــتِ العتيـــقِ لُبانَةٌ والبَيـــتُ يَعرفُهُـــنَّ لـــو يَتَكلَّمُ
لـــو كانَ حَـــيَّ مِثلَهُـــنَّ ظَعائناً حَيَّ الحَطِيمُ وُجُوهَهُـــنَّ وزَمزَمُ

مسلمة بن عبدالملك يقول فيه أبو نُخيلة:

وأَحْسَنْتَ لي ذِكري ومَا كُنْتُ خاملاً وَلكِنَّ بَعْض الذِّكر أَنْبَه مِنْ بعْضِ





وقيل: رأت جاريةٌ للمنصور قميصه مرقُوعـًا، فكلمته، فقال:

قد يُدْرِكُ الشَّرَفَ الفَــتَى وَرِدَاؤُهُ   خَلَق وجَيْــبُ قَمِيْصِـــهِ مرْقُوعُ

نادَم حَمَّاد عَجرَد، الوليد بن يَزيد، ثم قدِم بغدادَ زمن المهدي، وبينه وبين بَشَّار بن بُرد مزاح وهجاء فاحش، وكان قليل الدِّين ماجنـًا، اتُّهم بالزَّندقة، وهو القائل:

فَأَقسَمْتُ لَوْ أَصْبحتَ في قَبْضَةِ الهوى   لأَقْصَرْتَ عَنْ لَوْمِي وَأَطْنَبْتَ في عُذْرِي

ولكِنْ بلائِي مِنْــكَ أَنَّكَ نَاصِحٌ   وأَنَّكَ لاَ تدْرِي بأَنَّــكَ لا تَدْرِي

وسمع بشار بن برد البيتين فطرب، ثم قال: ويلكم، أحسن والله، من هذا ؟ قالوا: حماد عجرد. قال: أوه، وكلتموني والله بقية يومي بهمٍّ طويل، والله لا أطعم بقية يومي طعامـًا، ولا أصوم غمـًا بما يقول النبطي هذا.

قيل: إن بشاراً قال للسيد الحِمْيَري: لولا أن الله شغلك بمدحِ أهلِ البيت، لافتقرنا.





لام صاحب دعبل في هجاءه للخلفاء، فقال: دعْني من فضولك، أنا والله، أَستصلبُ مذ سبعين سنة، ما وجدت من يجود بخشبة.

محمد بن العباس السلطي: سمعتُ محمَّدُ بن أَسلَم يُنشِدُ:

إنّ الطّبيبَ بِطِبِّـــهِ وَدَوَائِـــهِ   لا يَسْـــتَطِيعُ دِفَاعَ مَقْـــدُورٍ أتَى

ما لِلطَّبِيبِ يَمُــوتُ بالدَّاءِ الذي   قَدْ كانَ يُبْري مثلــه فيما مَضَى

هَلَكَ المُـــدَاوِي والمُدَاوَى والذي   جَلَبَ الدَّوَاءَ وَبَاعَهُ وَمَنِ اشْـــتَرَى

قال سُلَيْمَانُ بنُ وَهب: اطَّلَعَ أبو تَمَّام وأنا أكتُب، فقال لي: يا أبا أيُّوب ! كلامك ذَوب شِعري.

هِلالُ بنُ العَلَاء شِعْر رَائقٌ، لائقٌ بكل ذائِق، فَمنه:

سَـــيبْلَى لِسَـــانٌ كَانَ يُعْرِبُ لَفظَهُ   فَيَا لَيْتَهُ مِنْ وقْفَةِ العَرْضِ يَسْـــلَمُ

وَمَا تَنفَعُ الآدابُ إن لم يَكُن تُقىً   وَمَا ضَرَّ ذَا تَقوَى لِسَـــانٌ مُعَجَّمُ



ولهِلالُ بنُ العَلَاء ممَّا رَواه عنه خَيثَمة بن سُلَيمان:

اِقْبِلْ مَعَاذِيرَ مَــن يَأتِيكَ مُعتَذِراً　　إن برَّ عِندَكَ فِيما قَــالَ أو فَجَرَا
فَقَد أَطَاعَكَ مَــن أَرضَاكَ ظَاهِرُهُ　　وَقَد أَجَلَّكَ مَن يَعصِيكَ مُســتَتِرا

يحيىٰ بن علي بن يحيىٰ المنجم كان من كبار تلامذةِ محمد بن جَرير، وله مع المعتضد وقائع ونوادر، وحَرِد عليه المكتفي مَرَّة فألزمه بصيد الأَسَد، فعمل أبياتـًا، منها:

كَلَّفُونــا صَيْــدَ السِّــبَاعِ، وَإِنَّا　　لَبِخَيْرٍ إنْ لَــمْ تَصِدْنا السِّــبَاعُ

قيل: سُئل أبو العَلاء المَعَرِّي: مَن أشعر الثَّلاثة: أبوتَمَّام، والبُحتري، والمُتَنَبِّي ؟ فقال: حَكيمان، والشَّاعر: البُحْتري.

قيل: إنَّ القَاسم بن عُبَيْدَ الله الوزير كان يخافُ من هَجْو ابنِ الرُّومي، فَدَسَّ عليه من أطعمه خُشْكُناكةً (خبزة تصنع من خالص دقيق الحنطة، وتملأ بالسكر واللوز، أو الفستق، وتغلىٰ) مَسْمُومَةً، فأحَسَّ بالسُّمِّ، فَوَثَبَ، فقالَ الوزيرُ: إلىٰ أين ؟ قال: إلىٰ موضعٍ بعثتني إليه. قال: سَلِّم علىٰ أبي. قال: ما طريقي علىٰ النَّار. فبقي أيامـًا، ومات.



ومما رُويَ للحلاّج الحسين بن منصور:

مُزِجَــتْ رُوحِيَ في رِوحِــكْ كمَا تُمْزَجُ الخَمْــرَةُ بالمَــاءِ الزُّلاَل
فَــإذا مَسَّــكَ شَيءٌ مَسَّــنِي فــإذا أنْــتَ أنــا في كلِّ حَــال

ومما رُويَ للحلاّج أيضاً:

يــا نَسِــيمَ الرِّيْحِ قُولي للرَّشَــا لم يَــزِدْنِي الــورْدُ إلَّا عَطَشَــا
رُوحُــهُ رُوحِي ورُوحِي فَلَــهُ إنْ يَشَــا شِئْتُ وإنْ شِــئْتُ يَشَا

قال السُّلمي: كان بُندارُ بنُ الحُسين عالمًا بالأُصول، وله ردٌّ علىٰ ابنِ خَفِيف في مسألة الإغاثة وغيرها وممّا قيل: إنَّ بُنداراً أنشده:

نَوَائِــبُ الدَّهْــرِ أَدَّبَتْــنِي وإنمــا يُوعَــظُ الأديــبُ
قَدْ ذُقْــتُ حُلْــواً وذُقْــتُ مُرّاً كَذَاكَ عيــشُ الفَــتَى ضُروبُ
مــا مــرَّ بُــؤْسٌ ولا نَعِيــمٌ إلاَّ وَلِي فيهِمَــا نَصِيــبُ

الزَّاهي علي بن إسحاق مدح الوزيرَ المُهلَّبيّ، وسيف الدَّولة، وهو القائل:

سَــفَرْنَ بُدوراً وانْتَقَــبْنَ أَهِلَّةً وَمِسْــنَ غُصوناً والتَفَتْنَ جآذِرَا
وأطلعن في الأَجياد بــالدُّرِّ أَنْجماً جُعِلْــنَ لحبّاتِ القلــوبِ ضَرائِرا



يقول سَيْفُ الدَّولَة علي بن عبدالله: عطاءُ الشُّعراءِ من فرائض الأُمراء.

من نظم المُهَلَّبي الحسن بن محمد:

أَرَاني اللهُ وَجْهَـــكَ كُلَّ يَـــوْمٍ صَبَاحــاً للتَّيَمُّـــنِ وَالـــسُّرورِ
وأَمتـــعَ ناظـــريَّ بِصَفْحَتَيْـــهِ لأَقرَا الحُسْـــنَ مِنْ تِلْكَ السُّطُورِ

النَّاشِيءُ الصَّغِير علي بن عبدالله من فحول الشعراء، وهو القائل:

إذا أَنَـــا عَاتبْـــتُ المُلُـــوكَ فَإنّما أَخُطُّ بأقلامي عَلَى المَـــاءِ أَحْرفَا
وَهَبْهُ ارْعَوَى بَعْدَ العِتَابِ ألم تَكُنْ مَوَدَّتُـــهُ طَبْعاً فصـــارَتْ تَكَلُّفاً

عَضُدُ الدَّوْلَة حسين بن بويه مدحه فحول الشعراء، وفيه يقول أبو الحسن السَّلامي، وأجاد:

إليكَ طوى عرضَ البسيطة جاعلٌ قُصارى المنايا أن يلوحَ بها القَصرُ
فكنتُ وعَزمي والظلام وصارِمي ثلاثة أشـــياء كما اجتمع النَّسرُ
وبشَّرتُ آمالي بمَلْـــكٍ هو الوَرى ودارٍ هي الدُّنيـــا ويـــومٍ هو الدَّهرُ



الصَّاحب إسماعيل بن عباد هو القائل:

رَقَّ الزُّجاجُ ورقَّتِ الخَمْرُ   وَتَشَابَها فَتَشَاكَلَ الأَمْرُ
فَكَأَنما خَمرٌ ولا قَدَحٌ   وَكَأَنَّما قَدَحٌ وَلا خَمْرُ

ابنُ النّعمان محمد بن القاضي له شعرٌ عذبٌ، ومن ذلك:

أيا مشبه البدر بدر السما   لسبعٍ وخمسٍ مضت واثنتينِ
ويا كامل الحسن في نعتهِ   شغلت فؤادي وأسهرت عيني
فهل لي من مطمعٍ أرتجيهِ   وإلا انصرفت بخفي حنين
ويشمت بي شامتٌ في هواك   ويفصح لي ظلت صفر اليدين
فإما مننت وإما قتلت   فأنت قديرٌ على الحالتين

قال الثعالبي في القاضي الجُرْجاني: هو فردُ الزمان، ونادرةُ الفلك، وإنسانُ حدقةِ العلم، وقُبَّةُ تاج الأدب، وفارسُ عسكر الشعر، يجمع خطَّ ابنِ مُقلة إلىٰ نثرِ الجاحظ إلىٰ نظم البحتري. وهو صاحبُ تلك الأبيات الفائقة:

يقولونَ لي فيكَ انقباضٌ وإنما   رأَوا رجُلاً عن موقفِ الذُّلِّ أحجما
ولَوْ أن أهل العِلم صانوه صانَهم   ولو عظَّموه في النفوس لعظَّمَا



الخطّابي حمد بن محمد بن إبراهيم الخطاب هو القائل:

وما غُرْبَةُ الإنسانِ في شُقَّةِ النَّوَى ... ولكنّهـا واللهِ في عَدَمِ الشَّكْلِ
وإنّي غريبٌ بين بُسْتٍ وأَهْلِها ... وإنْ كانَ فيها أُسرتي وبها أَهلي

البديع أحمد بن الحسين بن يحيىٰ العلاّمة البليغُ، صاحب كتاب «المقامات»، التي علىٰ منوالها نسج الحريري. له ترسُّل فائق، ونظمٌ رائق، وهو القائل:

وكَادَ يَحْكِيكَ صَوْتَ الغَيْثِ مُنْسَكِبَا ... لو كانَ طَلْقَ المُحَيَّا يُمْطِرُ الذَّهَبَا
والدَّهْرُ لو لم يَخُنْ والشَّمْسُ لو نَطَقَتْ ... واللَّيْثُ لو لم يَصُلْ والبَحْرُ لو عَذُبَا
ما اللَيَّثُ مُخْتَطِمًا ما السَّيْلُ مُرْتَطِمًا ... ما البَحْرُ مُلْتَطِمًا واللَّيْلُ مُقْتَرِبَا
أَمْضَى شَبًا مِنْكَ أَدْهَى مِنْكَ صَاعِقَةً ... أجْدَى يمينًا وأدْنَى منكَ مُطَّلَبَا

ابن الفَرَضِيّ عبدالله بن محمد بن يوسف له شعرٌ رائقٌ فمنه:

أسِيرُ الخَطَايا عندَ بابكَ واقفٌ ... على وَجَلٍ ممّا به أنت عارفُ
يَخَافُ ذُنُوباً لم يَغبْ عنك غَيْبُها ... ويَرْجُوكَ فيها فَهْوَ رَاجٍ وخائفُ
ومَنْ ذا الذي يَرجُو سِواكَ ويَتَّقي ... ومالكَ في فَصلِ القَضاءِ مُخالِفُ
فيا سَيِّدي ! لا تُخْزِني في صَحِفَتي ... إذا نُشِرَتْ يَوْمَ الحِسَابِ الصَّحَائِفُ



ابن دَرّاج أحمد بن محمد من كُتّاب المنصور الحاجِبِ، فقال فيه قصيدةً، منها يقولُ:

أَلَـمْ تَعْلَمي أنَّ الثَّـوَاءَ هُو النَّوى   وأنَّ بُيُـوتَ العاجِزيـنَ قُبُـورُ

تُخَوِّفُـني طـولَ السِّـفَار وإنَّه   لِتَقبيـلِ كَفِّ العامِرِيِّ سَـفيرُ

دَعِيـني أرِدْ ماءَ المَفَـاوِزِ آجِناً   إلى حَيْثُ مَـاءُ المَكْرُماتِ نَمِيرُ

من نظم ذو القَرنين وجيه الدولة:

إني لأحسد «لا» في أَسْطُرِ الصُّحُفِ   إذا رَأَيْتُ اعْتِنـاقَ اللّامَ للأَلِفِ

وما أَظُنُّهمـا طـال اعتِنَاقُهُما   إلّا لِمَا لَقِيَا مِن شِـدَّةِ الشَّـغَفِ

ومن شعره:

أَفْدي الذي زُرْتُهُ بالسَّيْفِ مُشْتَمِلاً   ولَحْظُ عَيْنَيْهِ أَمْضى مِن مَضَارِبِهِ

فَمَـا خَلَعْتُ نِجَـادي لِلعِنَاقِ لَهُ   إلا لَبِسْـتُ نِجادَاً مِـن ذَوَائِبِهِ

فباتَ أَسْـعَدَنا في نَيْـلِ بُغْيَتِهِ   مَن كان في الحُبِّ أَشْقانا بصاحبهِ

المَنَازي أحمد بن يوسف هو القائل لأبي العلاء: فما لهم يُؤذونك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة.



أبو العَلاء المعري أُضِّرَّ بالجُدَريِّ وله أربع سنين وشهر؛ سالتْ واحدةٌ، وابيضّتِ اليُمنىٰ، فكان لَا يذكُر من الألوان إلا الأحمرَ، لثوبٍ أحمرَ ألبسوه إياه وقد جُدِّر، وبقي خمساً وأربعين سنة لا يأكُلُ اللحم تزهُّداً فلسفيًّا.

خرج صالح بنُ مرداس ملك حلب، فنازل المعرّةَ يُحاصرها، ورماها بالمجانيق، فخرج إليه أبو العلاء المعري يتشفَّع، فأكرمه، وقال: ألكَ حاجة ؟ قال: الأميرُ -أطال اللهُ بقاءَه- كالسيف القاطع، لان مسُّه، وخَشُن حدُّه، وكالنهار الماتِع قاظ وسطُه، وطاب أبْراده ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩] فقال: قد وهبتُك المعرةَ، فأنشِدْنا من شعرِكَ. فأنشدهُ علىٰ البديهِ أبياتـًا، وترحّل صالحٌ.

كان لأبي العلاء المعري خَلوةٌ يدخُلها للأكلِ، ويقولُ: الأعمىٰ عورة، والواجبُ استتارُه. فأكل مرّةً دُبسًا، فنقط علىٰ صدرِه منه، فلما خرج للإفادة؛ قيل له: أكلتُم دُبسـًا ؟ فأسرع بيده إلىٰ صدره، فمسحه وقال: نعم، لعنَ اللهُ النَّهم. فعجبوا من ذكائه.





ومن شعر أبو العَلاء المعري:

إذا قُلتُ المُحــالَ رفعتُ صوتي   وإن قلتُ الصحيحَ أَطَلْتُ هَمسِي

قال الخَلّال: وأنشدني ابن بُندار أبو الفضل عبدالرحمن بن أحمد العجلي لنفسه:

يــا مَوْتُ مــا أَجْفَاكَ مِــنْ زَائِرٍ   تَــنْزِلُ بالمَــرْءِ على رَغْمِــهِ
وَتَأْخُذُ العَــذْراءَ مِــن خِدْرِها   وتأخُــذُ الواحِــدَ مِــنْ أُمِّــهِ

وللخطيب أبو بكر أحمد بن علي نَظمٌ جيد، فَروىٰ المُبارك بن الطُّيوري عنه لنفسه:

تَغَيَّبَ الخَلْقُ عَنْ عَيْنِي سِوَى قَمَرٍ   حَسْبِي مِنَ الخَلْقِ طُرّاً ذَلِكَ القَمَرُ
مَحَلُّــهُ فِي فُــؤَادِي قَــدْ تَمَلَّكَهُ   وَحَــازَ رُوحِي فَمَا لِي عَنْهُ مُصْطَبَرُ
وَالشَّــمْسُ أَقْرَبُ مِنْهُ فِي تَنَاوُلِهَا   وَغَايَــةُ الحظِّ مِنْهُ لِلــوَرَى نَظَرُ
وَدِدتُ تَقبيلَــه يَوْماً مُخَالَسَــةً   فَصَارَ مِنْ خَاطِــرِي فِي خَدِّهِ أَثَرُ
وَكَــمْ حَلِيْــمٍ رَآهُ ظَنَّــهُ مَلَكاً   وَرَدَّدَ الفِكْــرَ فِيْــهِ أَنَّــهُ بَشَرُ





ابن المُطَّلب أبو سعد محمد بن علي الكرماني البغدادي الشاعر، هو القائل:

يَا حَسْرَتَا مَاتَ حَظِّي مِنْ قُلُوبِكُمُ   ولِلحُظُـوظِ كَمَا لِلنَّـاسِ آجَالُ
تَصَرَّمَ العُمْرُ لَـمْ أَحْظَى بقُرْبِكُمُ   كَمْ تَحْتَ هذي القُبورِ الخُرْسِ آمَالُ

صاحب إفريقية يحيىٰ بن تميم، الملكُ أبو طاهرٍ قام في المُلك بعد أبيه، وخلع علىٰ قواده وعَدَلَ، وافتتح حصونـًا ما قَدَرَ أبوه عليها، وكان عالمـًا، كثيرَ المطالعة، جواداً مُمدَّحـًا، مقربـًا للعلماء، وفيه يقول أبو الصلت أميَّةُ الشاعر:

فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ إلَّا عَنْ نَدَى وَوَغَى   فَالمَجْدُ أَجْمَـعُ بَيْنَ البَأْسِ وَالجُودِ

وقال أبو عبدالله أحمدُ الطُّليطلي: كان ابنُ الخيَّاط أحمد بن محمد أول ما دخل طرابلس وهو شاب يغشاني في حلقتي، وينشدني ما أستكثِرُهُ له، فأتَّهِمُهُ، لأنني كنتُ إذا سألتُهُ عن شيء من الأدب، لا يقوم به، فوبخته يومـًا علىٰ قِطعة عملها، وقلت: أنت لا تقوم بنحو ولا لُغة، فمن أين لك هذا الشعر ؟ فقام إلىٰ زاوية، ففكَّر، ثم قال: اسمع:

وفاضلٍ قـال إذ أنشـدتهُ نُخباً   من بعضِ شعري وشعري كلهُ نخبُ
لا شيء عنـدك مما يسـتعين به   من شأنه معجزات النظم والخطبُ





فلا عَــــرُوضٌ ولا نحـــوٌ ولا لغةٌ ... قل لي فمن أين هذا الفضلُ والأدبُ

فقلتُ قول امرئٍ صحَّت قريحتهُ ... إنَّ القريحة علمٌ ليس يُكتســبُ

ذوقي عَرُوضي ولفظي جُله لغتي ... والنحو طبعي فهل يعتاقُني سببُ

فقلت: حسبُك، واللهِ لا أستعظمتُ لك بعدها عظيمـًا، ولزمني بعدَ ذلك، فأفاد مِن الأدب ما اسْتَقَلَّ بِهِ.

الغَزِّي إبراهيم بن يحيىٰ شاعِرُ خُراسان، يُنشد له قوله:

خلــتِ الدِّيار فلا كريــمٌ يُرتجى ... منه النــوالُ ولا مليح يُعشــقُ

لابن أبي الصَّلتِ أمية بن عبدالعزيز أبياتـًا، أوصىٰ أن تكتب علىٰ قبره، وهي آخر شيء قاله وهي:

ســكنتكِ يا دار الفناء مصدقاً ... بــأني إلى دار البقــاءِ أصــيرُ

وأعظم مــا في الأمــر أني صائرٌ ... إلى عادلٍ في الحكــم ليس يجورُ

فيا ليت شعري كيف ألقاه عندها ... وزادي قليــل والذنــوب كثير

فــإن أك مجزيــاً بذنــبي فإنني ... بــشر عقــاب المذنبــين جديرُ

وإن يــك عفوٌ منــه عني ورحمة ... فثــمَّ نعيــمٌ دائــم وسرورُ





قال ابنُ السَّمرقندي أبو القاسم إسماعيل بن أحمد: ما بقي أحدٌ يروي «مُعجم» ابنِ جُميع غيري ولا عن عبدِالدائم الهلالي، وأنشد:

وأَعجَبُ مَا فِي الأَمرِ أَن عِشتُ بَعدَهُمْ على أَنَّهُم مــا خلَّفُوا فيَّ مِن بَطش

ابن خَفَاجة الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح، له ديوانٌ مشهور، ولم يتعرَّض لمدح ملوكِ الأَندلس، وهو القائلُ:

والشــمسُ تجْنَحُ للغُرُوبِ عليلةً والرعــدُ يَرقي والغمامــةُ تَنْفُثُ

لبديع الزمان، نظمٌ جيد، منه قوله:

أُهْدِي لمجلِســكَ الشَّرِيفِ وإِنَّما أُهْــدِي لَهْ ما حُزْتُ مِــن نَعمائه

كالبحرِ يُمْطِرُه السَّــحَابُ ومَالَه فَضْــلٌ عَلَيْــهِ لأنَّه مِــنْ مَائِه

لعبدُالخالق بنُ أسد بن ثابت شعرٌ حسن، فمنه:

قَلَّ الحِفَاظُ فــذُو العَاهَات مُحتَرَمُ والشُهمُ ذُو الفَضلِ يُؤذى مع سَلَامَتِهِ

كالقوسِ يُحفَظُ عَمداً وهو ذُو عِوَجٍ ويُنبَذُ السَّــهمُ قَصداً لاستقامتِهِ



الأَبْلَه محمد بن بختيار شاعِرُ العراق، أبوعبدالله بن بختيار الجَوهَرِيُّ، عُرِفَ بالأَبلهِ لِغَفْلَةٍ فيه، وقيل: لأنه كان في غاية الذكاء، وهو من أسماء الأضداد، كما قيل للأسود: كافور.

ومن شعر سنان بن سليمان:

ما أكــثَرَ النــاسَ ومــا أَقلَّهم ... ومــا أَقَــلَّ في القليــلِ النُّجَبَا
ليتَهُــم إذ لــم يكونــوا خُلقوا ... مُهَذَّبــين صَحِبُــوا مُهَذَّبــا

كان ابنُ زَبادةَ يحيىٰ بن سعيد دَيِّنًا صَيِّنًا، حميدَ السيرةِ، وهو القائل:

لا تغبِطَــنَّ وزيــراً للملوكِ وإن ... أنالَهُ الدهــرُ منهم فَــوقَ هِمَّتِهِ
واعلــم بــأنَّ لَهُ يومــاً تمــورُ به الـ ... أرضُ الوقورُ كما مــارتْ بهيبتهِ
هارونُ وهو أخو موسى الشقيقُ لَهُ ... لولا الــوزارةُ لم يأخُــذْ بِلحيتِهِ

وقال أبو الفرج ابن الجَوْزِيَ -وقد تواجد رجلٌ في المجلس-: واعجبًا، كلنا في إنشاد الضَّالةِ سواءٌ، فَلِمَ وجدتَ أنتَ وَحْدَكَ:

قد كتمــت الحب حتى شــفني ... وإذا مــا كُتِــمَ الداءُ قَتَــلْ





بــين عينيك عــلالات الكرى فَـــدَع النَّـــومَ لِرَبَّـــاتِ الحَجَل

ومن نظم ابن جُبَير محمد بن أحمد الكناني البلنسي:

تـأنَّ فِـي الأمـرِ لَا تَكُـن عَجِـلاً فَمَـــن تَـــأَنَّى أَصَـــابَ أَو كَادَا
وَكُـــن بِحَبْــلِ الإِلهِ مُعتَصِمـــاً تَأمَنْ مِـــن بَغي كَيدِ مَـــن كَادَا
فَكَـــم رَجَـــاهُ فَنَـــالَ بُغيَتَـــه عَبـــدٌ مُـــسِيءٌ لِنَفسِـــهِ كَادَا
وَمَن تَطُـــل صُحبَـــةُ الزَّمَانِ لَه يَلـــقَ خُطُوبَاً بِـــهِ وأَنـــكَادَا

السِّنْجاريّ أسعد بن يحيىٰ السلمي، شاعرٌ مُحْسِنٌ له «ديوان»، مَدَحَ المُلُوك، والكبار، وطاف البلادَ، وهو القائل:

لِلَّهِ أيَّـــامي عَلَى رَامَـــةٍ وَطِيـــبُ أَوْقَـــاتي عَلَى حَاجِـــرِ
تَـــكَادُ للسُّرْعَـــةِ في مَرِّهـــا أَوَّلُهـــا يَعـــثُرُ بالآخِـــرِ

سهل بن محمد الغرناطي، هو القائل:

مُنَغَّصُ العيـــشِ لا يأوي إلى دَعَةٍ مَـــنْ كانَ في بَـــلَدٍ أَوْ كَانَ ذا وَلَدِ
والسَّاكنُ النَّفْسِ مَنْ لَمْ تَرْضَ هِمَّتُه سُكْنَى مكانٍ وَلَمْ يَسْكُنْ إلى أَحَدِ





ابنُ الحَلاوي أحمد بن محمد الموصلي شاعرُ زمانهِ، يقول:

وأشبهتُ مِنْه الخصْرَ سقماً فَقَد غدا   يُحَمِّلُـــني كالخَصْرِ مـــا لا أُطيقُه



الناصر داود بن عيسىٰ هو القائل:

وَمِن عَجَبٍ أَنّي لدَى البحرِ وَاقِفٌ   وأشكُو الظَّما والبحرُ جَمٌّ عَجَائِبُه





الصداقة والصديق

قيل للمغيرة بن شُعْبَة: إنَّك تُحابي، قال: إنَّ المعرفةَ تنفعُ عند الجمَلِ الصَّؤول، والكلبِ العَقُور، فكيف بالمسلم.

يُروىٰ عن رجاء بن حَيْوَة، قال: مَنْ لَمْ يؤاخِ إلا مَنْ لا عَيبَ فيه قلَّ صديقُه؛ ومَنْ لَمْ يَرضَ مِنْ صديقه إلا بالإخلاص له دام سخطُهُ، ومَنْ عاتب إخوانه علىٰ كُلِّ ذَنْبٍ كَثُرَ عدوُّه.

قال هشامُ بن عبدالملك: ما بقي علىٰ شيء مِن لذات الدنيا إلا وقد نِلتُه إلا شيئًا واحداً، أخ أرفع مؤنة التحفُّظِ منه.

قال عبدالرحمن بن عمرو الأَوزاعيُّ: كتب إليَّ قَتادة من البصرة: إن كانت الدَّار فَرَّقتْ بيننا وبينك، فإن أُلْفَة الإِسلام بين أهِلها جامعة.





قال بِشر بن منصور: أَقِلَّ من معرفِةِ النَّاسِ، فإنَّك لا تدري ما يكونُ، فإن كان –يَعنِي فَضيحةً– غداً، كان من يَعرِفُك قليلاً.

وعن بِشْر بن منصور قال: ما جلستُ إلىٰ أحد فتفرقنا إلا علمتُ أني لو لم أَقْعُدْ معه كان خيراً لي.

قال عبدالله بن خُبَيْق: قال الفُضَيل بن عِياض: تَباعد مِن القراء، فإنهم إن أحبُّوك مدحوك بما ليس فيك، وإن غضبوا شهدوا عليك، وقُبِلَ منهم.

وعن الشافعي قال: ليسَ بأخيكَ مَن احتجت إلىٰ مُدَاراته.

قال يَحيَىٰ بنُ مَعِين: ما رأيت علىٰ رجل خطأ إلا سترتهُ، وأحببت أن أزَيِّن أمره، وما استقبلت رجلاً في وجهه بأمر يكرهه، ولكن أبين خطأه فيما بيني وبينه، فإن قبل ذلك، وإلا تركته.



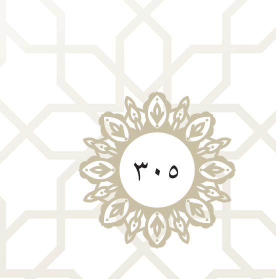
قال الجُنيد: قال لي الحارث المُحَاسِبِيُّ: كم تقول: عُزلتي أُنْسِي، لو أنَّ نصفَ الخلق تقرَّبوا مني، ما وجدْتُ لهم أُنْسًا، ولو أنَّ النصفَ الآخر نأَوا عني، ما استوحشْتُ.

قال أبو الحَسَن بن قُريش: حضرتُ إبراهيم بن إسحاق الحَربي -وجاءَهُ يوسُف القاضي، ومعه ابنه أبو عُمَر- فقالَ لهُ: يا أبا اسحاق ! لو جئناك علىٰ مِقدار واجب حقك، لكانت أوقاتُنا كلُّها عندك. فقاَلَ: ليس كلُّ غَيْبَةٍ جَفْوَةً، ولا كلُّ لقاءٍ مودةً، وإنَّما هو تَقَارُبُ القلوب.

قال ابنُ الحَدَّاد سعيد بن محمد بن صبيح: لا تعدِلَنَّ بالوَحدةِ شَيْئًا، فقد صارَ الناسُ ذئابًا.

وليوسُف بنُ الحُسَيْن الرازي رسالةٌ إلىٰ الجُنيد منها:

كَيْفَ السَّبِيل إلى مَرْضَاةِ مَنْ غَضِبَا ... مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَلَمْ أَعْرِفْ لهُ سَـــبَبَا





قال أبومَيْسَرة: يا أخي فائدة الاجتماع الدُّعاء، فادعُ لي إذا ذكرتني، وأدعو لكَ إذا ذكرتكُ، فنكون كَأَنَّا التقينا، وإنْ لَمْ نلتقِ.

قال أبو عمر الزَّاهِد: تَرْكُ قَضاء حُقُوق الإِخْوانِ مَذَلّة، وفي قَضاء حُقُوقهم رِفْعَة.

قال الحافظ أبو موسىٰ المَدِيني: حدثنا مَعمر بنُ الفاخر، حدثنا عَمّي، سمعتُ أبا نَصر بن أبي الحسن، يقول: سمعتُ ابنَ سلامة، يقول: قيل للصاحب إسماعيلَ بن عبّاد: أنتَ رجلٌ معتزليٌّ وابنُ المُقرئ محمد بن إبراهيم محدِّث، وأنتَ تحبُّه ! قال: لأنَّه كان صديقَ والدي، وقد قيل: مودَّةُ الآباء قرابَةُ الأبناء، ولأنِّي كنتُ نائمًا فرأَيتُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النّوم يقول لي: أنتَ نائم، ووَليٌّ من أولياءِ الله علىٰ بابك ؟! فانتبهتُ ودعوتُ وقلتُ: مَن بالبَاب ؟ فقال: أبو بكر بنُ المُقرئ.

قال الصُّعْلُوكي سهل بن الإمام: إنا نحتاج إلىٰ إخوان العُشرة لوقت العُسْرة.



وقد كان بين أبي عمرٍو الدّاني عثمان بن سعيد القرطبي، وبين أبي محمد بنِ حزم وَحْشَةٌ ومُنافرة شديدة، أَفْضَتْ بهما إلىٰ التَّهاجي، وهذا مَذمومٌ من الأقران، مَوفُورُ الوجود.

قال أبو الفرج ابن الجَوْزِيَ لصديقٍ: أنتَ في أوسعِ العذرِ من التأخُّر عنِّي لثقتي بكَ، وفي أضْيَقِهِ من شوقي إليكَ.







عن القضاء والقضاة

كان أبو الدرداء يقضي علىٰ دمشق، وإنه لما احتُضِرَ، أتاه مُعَاويةُ عائداً، فقال: من ترىٰ للأمر بعدك ؟ قال: فَضَالة بن عُبَيد. فلما تُوفِّي، قال مُعَاوية لفَضَالة: إني قد وليتُك القضاء، فاستعفىٰ منه، فقال: والله ما حابيتُكَ بها، ولكنِّي اسِتترتُ بك من النار، فاستترْ منها ما استطعت.

كان إذا قيل لشُرَيح القاضي: كيف أصبحت ؟ قال: أصبحتُ وشطرُ الناس عليَّ غضابٌ.

قال حمَّاد: سمعتُ أيُّوب ذكر أبا قلابة الجَرمي، فقال: كان واللهِ من الفقهاء ذوي الألباب. إني وجدتُ أعلمَ النَّاسِ بالقضاء أشدَّهم منه فِراراً، وأشدَّهم منه فرقـًا.





لما ذُهِبَ ببكر بن عَبدالله المُزَني للقضاء قال: إني سأُخبِرُك عنِّي: إني لا عِلمَ لي واللهِ بالقضاء، فإن كنتُ صادقًا، فما ينبغي لك أن تستعملَني، وإن كنتُ كاذبًا فلا تُوَلِّ كاذبًا.

استُعْمِلَ مُحارِب بن دِثار علىٰ القضاء فبكىٰ أهلُه، وعُزِلَ عن القضاء فبكىٰ أهله.

كان السَّفَّاح إذا علم بين اثنين تعاديًا لم يقبل شهادة ذا علىٰ ذا، ويقول: العداوةُ تُزِيلُ العدالة.

ابن عُلَاثَة محمد بن عبدالله يقال له: قاضي الجنِّ. قيل: حكم بينهم وبين الإنس في مَاء بِئْر، فحكم للجن أن يستقوا بالليل، فكان من استقىٰ بعد المغرب جاءه الرَّجم.





قيل: سبب ترك عَافِية بن يزيد القضاء، أنه تثبت في حكم، فأهدىٰ له الخصم رُطَبًا، فردَّه وَزَجَره، فلما حاكم خصمه من الغد، قال عافِية: لم يستويا في قلبي. ثم حكاها للخليفة، وقال: هذا حالي وما قبلتُ، فكيف لو قبلتُ ؟! قال: فأعفاه.

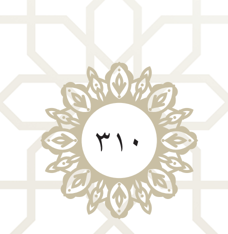
قال حَفص بن غِيَاث، وهو قاضٍ بالشَّرْقية لرجل يسألُ عن مسائل القَضاء: لعلك تُريدُ أن تكون قاضيًا ؟ لأَنْ يُدْخِلَ الرَّجُلُ أُصبُعَهُ في عينه، فيقتَلِعَها، فيرمي بها، خيرٌ له من أن يكونَ قاضيًا.



وعن حَفص بن غِيَاث قال: واللهِ ما وَلِيتُ القضاء حتىٰ حلَّت لي الميتة.

وعن ابنِ مَعين قال: كان يليقُ بالأَنصاريّ محمد بن عبدالله القضاءُ، قيل: يا أبا زكريا، فالحديث ؟ فقال:

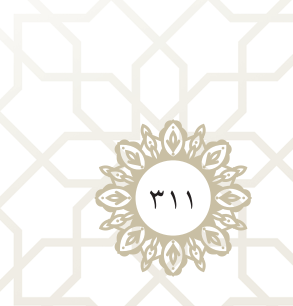
إنَّ لِلْحَـــرْبِ أَقْواماً لَهَـــا خُلِقُوا　　وللدَّوَاوِيـــنَ كُتَّابٌ وحُسَّـــابُ





قال مُكْرم بن بَكر: كنتُ في مَجلس أبي خَازم القاضي، فتقدَّم شيخٌ معه غُلامٌ، فادَّعىٰ عليه بألف دينار، فأقر الحَدَث، فقال القاضي للشَّيخ: ما تشاءُ ؟ قال: حَبْسُه. فقال للحَدَث: قد سمعت فهل توفيه البعضَ ؟ قال: لا؟ ففكَّر ساعةً، ثم قال: تَلازَما حتىٰ أنظر. فقلتُ: لِمَ أخَّر القاضي الحَبْسَ ؟ قال: ويحك ! إني أعرف في أكثر الأحوال وجه المُحِقِّ من المُبْطل، وقد وقع لي أن سماحَتَه بالإقرار شيءٌ بعيدٌ من الحق، أما رأيتَ قِلَّة تغاضُبهما في المحاوَرَة مع عِظَم المال ؟ فبينا نحنُ كذلك، إذ استبان الأمر، فاستأذن تاجرٌ موسرٌ، فأذِن له القاضي، فدخَلَ، وقال: قد بُليت بابنٍ لي حَدَثٍ، يُتلف مالي عند فُلان المُقبِّن، فإذا منعتُه مالي احتالَ بحيلٍ يُلجئني إلىٰ التزام غرم، وأقربُه أنَّه نَصَبَ المُقَبِّن اليوم لمطالبته بألف دينار، وأقَعُ مع أمه –إن حُبِس– في نكدٍ. فتبسَّم القاضي، وطلبَ الغُلامَ والشَّيخَ فأُدخلا، فوعظَ الغُلام، فأقرَّ الشَّيخُ، وأخذ التَّاجرُ بيد ابنه، وانصرف.

وجاء عن موسىٰ بن إسحاق أنَّه كان لا يُرىٰ مُتبَسِّمـًا، فقالت له امرأةٌ: لا يَحِلُّ لك أن تقضِيَ، فإنَّ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان). فَتَبَسَّم.





أحمدُ بن بَقِيٍّ كان وقوراً حليماً كثيرَ التلاوة ليلاً ونهاراً، قويَّ المعرفة باختلاف العُلماء، ولي القَضاء عشرة أعوام ما ضَرَبَ فيها فيما قيل سوىٰ واحدٍ مجمعٍ علىٰ فِسقِهِ، وكان يتوقَّفُ ويتثبَّتُ، ويقول: التأني أخلص.

كان القاضي أبو أحمد العَسّال لا يُغلق بابَه عن أَحد، وكان إذا توجَّه علىٰ الخصم يمينٌ لا يُحلِّفه ما أَمكنَه، بل يغرم عنه ما لم يبلغ مئة دينار، فإذا بلغ المئة أو جاوزها، كان يتثبَّت ويُدافع ويُمهل إلىٰ المجلس الثاني، ويُحذِّر المدَّعَىٰ عليه وَبَالَ اليمين، ويخوِّفُه يومَ الدين، ويذكِّرُهُ الوقوفَ بين يدي ربِّ العالَمين، ثم يُحلِّفه علىٰ كُرْه.

قالن ابنُ حزم: تحوَّل أبو نصر القاضي إلىٰ مذهب داود، وصنَّف فيه، وكان من الفُصَحاء البُلَغاء، وليَ القضاء وله عشرون سنة، وهو القائل:

يـــا مِحْنَــةَ اللهِ كُــفِّي   إنْ لَــمْ تَكُــفِّي فخِــفِّي
ذَهَبْــتُ أَطلُـــبُ بَخْــتي   وَجَدْتُــهُ قـــدْ تُــوُفِّي

قال عبدُالغني: وسمعتُ الوزيرَ أبا الفَرَج يعقوبَ بنَ يوسف يقول: قال لي الأُستاذ كافور: اجتمِعْ بالقاضي أبي الطَّاهر الذُّهلي، فسلِّم عليه، وقل له:





إنَّه بلَغَني أنَّكَ تنبسط مع جلسائِك، وهذا الانبساطُ يقلُّ هَيْبَةَ الحُكم، فأعلمتُهُ بذلك، فقال: قل للأُستاذ: لستُ ذا مالٍ أفيضُ به علىٰ جُلسائي، فلا أَقَلَّ من خُلقي، فأَخبرتُ الأُستاذ، فقال: لا تعاوِدْهُ فقد وضع القصعة.



امتنعَ القاضي أبوبكر الأَبهريُّ المالكيُّ من أن يلي القضاء، قالوا له: فَمْن يصلح ؟ قال: أبوبكر الرَّازي أحمد بن علي. قال: وكان الرَّازي يزيد حالُه علىٰ منزلِة الرُّهبان في العبادة، فأُريد علىٰ القضاء، فامتنعَ رحمه الله، وقيل كان يميلُ إلىٰ الاعتزال، وفي تواليفه ما يدلُّ علىٰ ذلك في رؤية الله وغيرها، نسأَلُ الله السلامة.



قال أبوشجاع محمدُ بنُ الدهان: قيل: إنَّ الزَّيني أبو القاسم علي بن نور مُنذ ولي القضاءَ ما رآهُ أحدٌ إلا بطَرْحةٍ وخُفٍّ حتىٰ زوجتُه، ولقد دخلتُ عليه في مرضِ موته وهو نائمٌ بالطَّرْحة.



وقال الفقيه محمدُ بنُ حَمّادُه السَّبْتي: جلس القاضي عياض أبو الفضل بن موسىٰ للمناظرة وله نحوٌ من ثمانٍ وعشرين سنة، وولي القضاء وله خمسٌ وثلاثون سنة، كان هَيِّناً من غير ضعفٍ، صليباً في الحق.





قيل: أن سببُ إسلام أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا الفيلسوف الطبيب، أنه دخلَ إلىٰ الخليفةِ، فقام له الكُلُّ سوىٰ القاضي، فقال: يا أميرَ المُؤمنين، إن كان القاضي لم يَقُمْ لأني علىٰ غير ملَّته، فأنا أُسلمُ. فأَسلمَ.

جاء للملك العادل نور الدين الشهيد أبو القاسم محمود بن زنكي، رجلٌ طلبهُ إلىٰ الشَّرع، فجاء معه إلىٰ مجلسِ كمالِ الدينِ الشَّهرزوري، وتقدمه الحاجبُ يقولُ للقاضي: قد قال لكَ: اسْلُكْ معه ما تَسْلُكُ مع آحادِ الناسِ. فلما حضَر سوَّىٰ بينَه وبين خَصْمِه، وتحاكما، فلم يثبت للرجُلِ عليه حقٌّ، وكان مِلْكـًا، ثم قال السلطانُ: فاشهدوا أني قد وهبتهُ لهُ.

صاحب المغرب يعقوب بن يوسف، كان يجلسُ للحكمِ، حتَّىٰ اختصمَ إليهِ اثنان في نصف درهم، فقَضَىٰ، ثم أدَّبهما، وقال: أما كان في البلد حكَّامٌ ؟.

جاء ابن عُنَيْن إلىٰ ابنُ الحَرَسْتانيّ عبدالصمد بن محمد الأنصاري، فقال: السلطانُ يُسلِّم عليك ويُوصِي بفلان، فإن له محاكمة. فغضب وقال: الشَّرع ما يكون فيه وصية.









عن الصمتِ والكلام

عن أنس بن مالك –وقيلَ له: أَلا تُحدِّثُنا؟- قال: يا بُني إِنَّه مَنْ يُكثِر يَهْجُرْ. (وقوله: يهجر، من هجر في كلامه: إذا خلط فيه وإذا هذىٰ).

قال عُبَيْدالله بن أبي جعفر: إذا كان المرءُ يحدِّثُ في مجلس، فأعجبه الحديث، فليمسك. وإذا كان ساكتًا، فأعجبه السكوتُ، فليتحدَّث.

قيل: إن والي البصرة سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب قال يومـًا: ما ندمت علىٰ سكوت قط. فقال ابن المقفع: فالخرس زين لك.

قال مالك: ما أكثَرَ أحدٌ قطُّ فأفلح.

وعن أبي بكر بن عيَّاش قال: أدنىٰ نفعِ السكوت السلامةُ، وكفىٰ به عافية، وأدنىٰ ضررِ المنطق الشهرةُ، وكفىٰ بها بليَّة.





وعن الربيعِ قالَ: قلتُ للشافعيِّ: مَنْ أقدرُ الفقهاءِ علىٰ المُنَاظرة ؟ قال: مَن عوَّد لسانَه الركضَ في ميدان الألفاظِ لم يَتلَعْثَم إذا رَمَقَتْهُ العُيون.

وعن سُحنُون قال: سُرْعَةُ الجواب بالصوابِ أَشَدُّ فتنةً من فتنةِ المال.

السمعاني: سمعتُ أبا بكر محمدَ بنَ القاسم الشَّهْرُزُوري بالمَوْصِلِ يقول: كان شيخُنا أبو إسحاق الشِّيرازي إبراهيم بن علي، إذا أخطأ أحدٌ بين يديه قال: أيُّ سكتةٍ فاتَتكَ.









مُلَح وطرائف

صلَّىٰ الوليدُ بن عُقبة بالناس الفجر أربعـًا وهو سكران، ثم التفتَ، وقال: أَزيدُكم ؟ فبلغ عثمان، فطلبه، وحَدَّه.

وقيل: إن الأعمش كان له ولد مُغفَّل فقال له: اذهب فاشتر لنا حبلاً للغسيل. فقال: يا أَبَتِ طول كَمْ ؟ قال: عشرة أذرع. قال: في عرض كم ؟ قال: في عرض مُصيبتي فيك.

حضر أبو دُلَامة جنازة حمادة زوجة المنصور، فقال له المنصور: ما أعددتَ لهذه الحُفْرة ؟ قال: حمادة يا أمير المؤمنين، فأضحكه.

دخل مروان بن أبي حفصة علىٰ موسىٰ الهادي، فأنشده قوله:

تشـــابَهَ يَوْمـــا بأسِـــهِ ونَـــوالِه   فما أَحَدٌ يَـــدْرِي لِأيِّهما الفَضْلُ

فقال له الهادي: أيما أحب إليك: أثلاثون ألفـًا معجلة، أم مئة تدون في الدواوين ؟ فقال له: يا أمير المؤمنين! أنت تحسن ما هو خير من هذا، ولكنك





نسيته، أفتأذن لي أن أذكرك ؟ قال: نعم. قال: تعجل لي الثلاثين ألفـًا، وتدون المئة الألف في الدواوين. فضحك، وقال: بل يعجلان جميعـًا، فحمل إليه المال أجمع.

علي بن مُسهِر أخو قاضي جَبُّل، عبدالرحمن بن مُسْهِر، ذاك المغفَّلُ الذي بلغه أن المأمونَ قادم علىٰ ناحية جَبُّل -بفتح الجيم وتشديد الباء وضمها بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي، وينسب إليها جماعة من أهل العلم- فكلَّم أهل جَبُّل لِيثنوا عليه عند المأمون، فوجد منهم فُتوراً، وأخلفوه المَوْعِد فلبس ثيابَه، وسرَّح لحيتَه، ووقف علىٰ جانب دِجْلة، فلما حاذاه المأمونُ، سلَّم بالخلافة، وقال: يا أميرَ المؤمنين، نحن في عافية وعَدْل بقاضينا ابنِ مُسْهر. فغلب الضحكُ علىٰ يحيىٰ بن أكثم، فعجب منه المأمون وقال: ما بك. قال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الذي يُبالغُ في الثَّناء علىٰ قاضي جَبُّل هو القاضي. فضحك المأمونُ كثيراً، ثم قال ليحيىٰ: اعزِلْ هذا، فإنه أحمق.

صَاعِقَة محمد بن عبدالرحيم إنما لقب بالصَاعِقَة لأنه كان كلما قدم بلدة للقاء شيخ إذا به قد مات بالقرب.





قال داودَ بنَ علي: دخلتُ على إسحاق وهو يَحْتَجِمُ، فجلستُ، فرأيتُ كُتُبَ الشَّافعي، فأخذتُ أنظرُ، فَصَاح بي إسحاق: أَيْش تَنْظُرُ ؟ فَقلتُ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف:٧٩]. قال: فَجَعَل يضْحكُ، أو يتبسم.

قال الوزِير أبو الصَّقْر، لأبي العَيْنَاء محمد بن القاسم: ما أَخَّرك عنَّا ؟ قالَ: سُرِقَ حِمَاري. قال: وكيفَ سُرِق ؟ قال: لَمْ أَكُ مَعَ اللِّصِّ فَأُخْبِرك.

وقيل: جاءَ ابنُ الأغلب إبراهيم بن أحمد رَجُل، فقال: قد عشِقْتُ جارية، وثمنُها خمسون دِيناراً، وما معي إلا ثلاثون. فوهَبَه مئة دينار، فَسَمِع به آخر، فجاءَ، وقال: إني عاشق. قال: فما تَجِد ؟ قال: لَهيبًا. قال: اغمِسُوه في الماء، فغمسوه مراتٍ، وهو يَصيح: ذَهَبَ العِشْق. فضحِكَ، وأمر له بثلاثين ديناراً.

قال أبوعبدالله الحاكم: حدَّثني أبو بكر بنُ جَعفر قال: حَدَّثنا جعفرُ بنُ أحمدَ الشَّاماتي، حدثنا عبدُاللهِ بنُ محمد، حدثنا الهيثمُ بنُ عديٍّ، قال: سمعتُ أبي يقول: سَعىٰ رجلٌ برجلٍ إلىٰ الحجَّاج وقال: أعَزَّ اللهُ الأميرَ، هذا رجلٌ

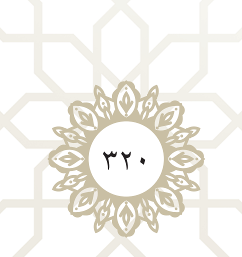




خارجيٌّ، يشتِمُ عليّ بنَ أبي سُفْيان، ويقعُ في مُعَاويةَ بنِ أبي طالب. فقال الحجَّاج: لا أَدري بأيِّهما أنتَ أعلم، بالأَنسابِ أو بالأَديان ؟!

يُحكىٰ عن ابن الجَصّاص الحسين بن عبدالله بَلَهٌ وتَغْفيل؛ نظر مرّةً في المرآة، فقال لصاحبه: ترىٰ لحيتي طالت ؟ فقال: المرآةُ في يدك. قال الشاهدُ يَرَىٰ ما لَايَرىٰ الغائب. ودخل يومـاً علىٰ الوزير ابن الفُرات فقال: عندنا كلابٌ يحرمونَنا ننام. فقال الوزير: لعلَّهم جِرَاء ؟ قال: بل كل واحد في قَدِّي وقَدِّك. وفرغ من الأكل فقال: الحمدُ لله الذي لا يُحلف بأعظَم منه. وأنَّه -أي ابن الجَصّاص- أراد أن يقبِّلَ رأسَ الوزير، فقال: إنَّ فيه دُهْنـاً. فقال: أُقَبِّلُهُ ولو كان فيه خرا.

وُجِّه إلىٰ ابن عُقْدَة أحمد بن محمد بمالٍ من خُرَاسان، وأُمر أن يُعطيه بعضَ الضُّعفاء، وكان علىٰ بابه صخرةٌ عظيمة، فقال لابنه: ارفَعْها، فلم يستطعْ، فقال: أراك ضعيفـاً، فخذْ هذا المال، ودفعه إليه.





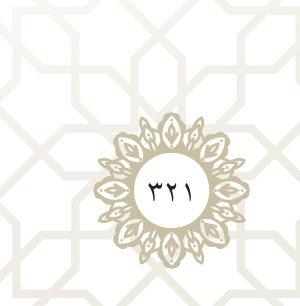
ونقل أبوبكر الخطيب حكايةً مقتضاها أنَّ رجلاً صلَّىٰ الجمعةَ، فرأىٰ رجلاً متنسِّكًا لم يُصلِّ، فكلَّمه، فقال: استُرْ عَلَيّ، لدعْلَج عَلَيَّ خمسةُ آلافٍ، فلمَّا رأيتُهُ أَحدثت. فبلغَ ذلك دَعْلَجًا، فطَلَبَهُ إلىٰ مَنْزِلِه، وحلَّلَه من المال، ووَصَلَه بمثلها لكونه روَّعَه.



قال عليُّ بن المحسّن: حضرتُ عندَ ابنِ لؤلؤ مع أبي الحسين البَيْضاوي لنقرأَ عليه، وكان قد ذكر له عدد من يحضر، ودفعنا إليه دراهم، فرأىٰ واحداً زائداً، فأخرجَهُ، فجلسَ الرجل في الدِّهليز، وجعل البيضاويّ يرفعُ صَوتَه ليسمعه، فقال ابنُ لؤلؤ: يا أبا الحسين: أَتعاطىٰ عليَّ وأنا بغداديّ، باب طاقي ورّاق، صاحبُ حديث، شيعي، أزرق كوسج ؟!، ثم أمر جاريتَه بأن تدقَّ في الهاون أُشنانًا حتىٰ لا يَصِلَ الصَّوت إلىٰ الرجل.



قال أبوبكر الوَرَّاق: دَقَقْتُ بابَ ابنِ صَاعِد، فقال: مَنْ ذَا ؟ فقلتُ: أبوبكر بن أبي عليٍّ، أها هنا يَحْيىٰ بنُ صاعِد ؟ فسمعتُه يقول للجَارِيَة: هاتي النَّعلَ حتىٰ أخرجَ إلىٰ هذا الجاهل الذي يَكْتَنِي ويُسَميني، فأصْفعُه.





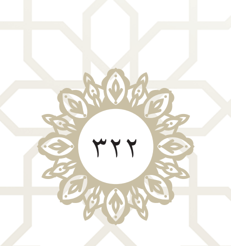
ابن الحجَّاج الحسين بن أحمد حضر في دعوة، وأُخِّر الطعام، ونظر إلىٰ صاحب الدار يذهب ويجيء في داره، فقال:

يــا ذاهبــاً في داره جائيــاً بغــير معــنىً وبــلا فائــده
قد جُــنّ أضيافُك مِــن جوعهم فاقــرأ عليهــم سُــورةَ المائده

كان مِهْيَار بن مرزويه مجوسيّاً، فأسلم، فقيل: أسلمَ علىٰ يد الشريفِ الرَّضِيِّ فهو شيخُه في النظم وفي التشيُّع، فقال ابنُ بَرْهَان: انتقلتَ بإسلامِكَ في النارِ من زاويةٍ إلىٰ زاويةٍ، كُنتَ مجوسيّاً، فصِرْتَ تَسُبُّ الصحابةَ في شعرك.

قيل: إنَّ أبا الطيِّب الطبري طاهر بن عبدالله دفع خُفّاً له إلىٰ من يُصْلِحُه، فمطَلَهَ، وبقي كلما جاء، نقعَهُ في الماء، وقال الآن أُصلِحُه. فلما طالَ ذلك عليه، قال: إنَّما دفعتُه إليك لتُصلِحه لا لتُعلِّمه السِّباحة.

قال السَّمعاني: قال أصحابُنا ببغداد: كان الشيخ أبو إسحاق الشِّيرازي إبراهيم بن علي، إذا بقي مدةً لا يأكل شيئاً، صَعد إلىٰ النَّصرية وله بها صديق، فكان يَثْرِد له رغيفاً، ويشربُه بماء الباقلاء، فرُبما صعد إليه وقد فَرَغ، فيقول أبوإسحاق: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[النازعات:١٢].





قال ابنُ عساكر: قيل: سأل ابنُ البَرَّاج شيخُ الرافضة بطرابُلس، أبو يوسُف القَزويني عبدالسلام بن محمد: ما تقولُ في الشَّيخين ؟ قال: سِفْلتان. قال: من تعني ؟ قال: أنا وأنت.

كان ابنُ نبهان محمد بن سعيد إذا طَوَّل عليه المُحَدِّثُونَ، قال: قُوموا، فإنَّ عندنا مريضـًا، بقي علىٰ هذا سنين، فكانوا يقولون: مريضُ ابنِ نبهان لا يَبْرَأ.

قال مُحمّد بن طَاهر أبو الفضل: أقمتُ بِتنِّيس مدةً علىٰ أبي محمد بن الحداد ونظرائه، فضاق بي، فلم يبقَ معي غيرُ درهمٍ، وكنت أحتاج إلىٰ حبر وَكَاغَد، فترددت في صرفه في الحبر أو الكاغد أو الخبز، ومضىٰ علىٰ هذا ثلاثةُ أيام لم أَطْعَمْ فيها، فلما كان بكرةَ اليومِ الرابع، قلتُ في نفسي: لو كان لي اليوم كاغَد، لم يُمكني أن أكتب من الجُوع، فجعلت الدِّرهم في فمي، وخرجتُ لِأشتري خبزاً، فبلعتُه، ووقع علي الضحكُ، فلقيني صديقٌ وأنا أضحك، فقال: ما أضحكك ؟ قلت: خير، فألحَّ عليَّ، وأبيتُ أن أُخْبِرَه، فحلف بالطلاق لَتَصْدُقَنِّي، فأخبرتُه، فأدخلني منزلَه، وتكلَّف أطعمةً، فلما خرجنا لِصلاة الظهر، اجتمع به بعضُ وكلاء عامل تِنِّيس ابن قادوس، فسأله عنِّي، فقال: هو





هذا، قال: إنَّ صاحبي منذ شهر أمر بي أن أُوصِلَ إليه كُلَّ يومٍ عشرةَ دراهم قيمتُها ربعُ دينار، وسهوتُ عنه، فأخذ منه ثلاث مئة، وجاء بها.

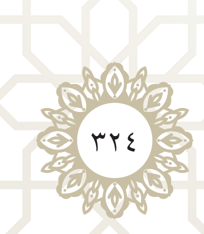
قيل: كان الحريري القاسم بن علي عفشًا زَرِيَّ اللباس فيه بخل، فنهاه الأميرُ عن نتف لحيته، وتوعَّده، فتكلم يومـًا بشيء أعجَبَ الأميرَ، فقال: سلني ما شئتَ، قال: أقطعني لحيتي، فضحِكَ، وقال: قد فَعَلْتُ.

قيل: عرض اثنانِ علىٰ ابن الخشَاب أبو محمد عبدالله بن أحمد شِعراً لهما، فسمع للأول، ثم قال: أنتَ أردأُ شِعراً منه. قال: كيف تقولُ هذا ولم تسمع قول الآخر ؟ قال: لأنَّ هذا لا يكونُ أردأُ منه.

كان نور الدين الشهيد أبو القاسم محمود بن زنكي دَيِّنًا تقيّا، لا يرىٰ بذلَ الأموالِ إلا في نفعٍ، وما للشُّعراءِ عنده نَفاقٌ، وفيه يقولُ أسامةُ:

سُـــلطانُنا زاهدٌ والناسُ قد زَهِدُوا ... لَهُ فَـــكُلٌّ على الخَـــيراتِ مُنْكَمِشُ

أيامُه مثلُ شـــهرِ الصَّـــومِ طاهِرةٌ ... من المعاصي وفيها الجوعُ والعَطَشُ





وقامَ إلىٰ أبو الفرج ابن الجَوْزِيَ رجلٌ بغيضٌ، فقال: يا سيِّدي: نريدُ كلمةً ننقُلُها عنك، أيُّما أفضلُ أبو بكرٍ أَوْ عليٌّ ؟ فقال: اجلسْ، فجلَسَ، ثُمَّ قَامَ، فأعاد مقالتَه، فأقعده، ثم قامَ، فقالَ: اقعدْ، فأنتَ أفْضَلُ من كلِّ أحدٍ.



قال ابن خَلِّكان: قد رأيت جماعة من أصحابِ الشَّلوْبين عمر بن محمد الأزدي، وكلٌّ منهم يقول: ما يتقاصر أبوعليٍّ شيخنا عن الشيخ أبي عليٍّ الفارسي، وقالوا: كان فيه مع فضيلته غَفلةٌ وصورة بَلَهٍ حتىٰ قالوا: كان إلىٰ جانب نهر، وبيده كَرّاس، فوقع في الماء فاغترفه بكراس آخر فتلفا.





عن الفراق

قيس بن ذَرِيح الليثي هو القائل:

وكُلُّ مُلِمَّاتِ الزَّمَانِ وَجَدْتُها   سِوَى فُرقَةِ الأَحْبَابِ هَيِّنَةَ الخَطْبِ

قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: سُئل أبي: لم لا تصحبُ النَّاس ؟ قال: لوحشة الفراق.

الباقي عبدالله بن محمد البخاري، شيخ الشافعية، كان أحد الفصحاء، وله:

قد حَضَرْنا وليس يُقْضى تلاقي   نسألُ اللهَ خَيْرَ هذا الفِرَاقِ

إنْ تَغِبْ لم أَغِبْ وإنْ لم تَغِبْ   غِبْتُ كأنَّ افِتراقَنَا باتِّفاقِ

ذو القَرنين وجيه الدولة له نظمٌ في الذِّروة، منه:

لو كُنْتَ سَاعَةَ بَيْنِنا ما بَيْنَنا   وشَهِدْتَ حِيْنَ نُكرِّرُ التَّوْدِيعا

أَيْقَنْتَ أَنْ مِن الدُّمُوعِ مُحَدِّثاً   وعَلِمْتَ أنَّ مِن الحَدِيثِ دُمُوعا



ومن نَظم المقتدي أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن القائم بأمر الله العباسي:

أَردتُ صَفاءَ العَيشِ مَع مَن أُحِبُهُ　　فَحَاوَلَـني عَمَّـا أَرُوم مَريـدُ

وَمَا اخترتُ بَتَّ الشَّملِ بَعدَ اجتماعِهِ　　وَلكِنَّـهُ مَهمـا يُريـدُ أُرِيـدُ

المعتصم ابن صُمَادِح محمد بن معن الأندلسي أبو يحيىٰ: نازلَته عساكرُ ابن تاشفين مدة، فتمرَّض، فسمع مرةً هيعةً، فقال: لا إله إلا الله، نُغِّصَ علينا كلُّ شيءٍ حتىٰ الموتُ. قالتْ جاريتُه: فدمعت عيناي، فقال بصوت ضعيف:

تَرَفَّـقْ بِدَمْعِـكَ لا تُفْنِـهِ　　فَبَـيْنَ يَدَيْـكَ بُـكَاءٌ طَوِيل

النَّفيس أحمد بن عبدالغني من فحول الشُّعراء، وله فقه، ويدٌ في علوم الفلاسفة، وهو القائل:

يا رَاحِـلاً وَجَمِيلُ الصَّـبرِ يَتبَعُهُ　　هَل مِن سَـبِيلٍ إلَى لُقيَاكَ يَتَّفِقُ

ما أَنصَفَتكَ جُفُـوني وَهيَ دَامِيَةٌ　　وَلا وَفَى لَـكَ قَلبِي وَهـوَ يَحتَرِقُ









الردود المسكتة

عُبيدالله بن زياد بن أبيه أمَّره معاوية، غلامـًا سفيهـًا، سفك الدماءَ سفكـًا شديداً، فدخل عليه عبدالله بنُ مغفَّل فقال: انتهِ عما أراكَ تصنعُ فإن شَرَّ الرِّعاءِ الحُطَمَةُ. قال: ما أنت وذاك ؟ إنما أنتَ مِن حُثالةِ أصحابِ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: وهل كان فيهم حُثالةٌ لا أمَّ لك.

قال المبرّد: وقف الكُمَيْتُ بن زيد الأسدي وهو صبي علىٰ الفرزدق وهو يُنشِدُ، فقال: يا غلام: أيسرُّك أني أبوك ؟ قال: أما أبي، فلا أبغي به بدلاً، ولكن يسرني أن تكون أمي، فحصر الفرزدق، وقال: ما مرَّ بي مثلُها.

لما حجَّ المهديُّ، دخل مسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يبقَ أحد إلا قام، إلا محمد بن عبدالرحمن بن أبي ذِئب، فقال له المُسَيِّب بن زُهير: قُم، هذا أميرُ المؤمنين. فقال: إنما يقومُ النَّاس لربِّ العالمين. فقال المهدي: دعْه، فلقد قامت كُلُّ شعرة في رأسي.





دعا الأَوْزاعي إبراهيم بن أدهم، فقصَّر فِي الأكل، فقال: لم قصرتَ ؟ قال: رأيتُك قصرت في الطَّعام.

كان المُعَافىٰ بن عمران الأزدي صاحبَ دنيا واسعةٍ وضياع كثيرة، قال مَرَّةً رجلٌ: ما أشدَّ البردَ اليوم، فالتفتَ إليه المُعَافىٰ، وقال: أستدفأتَ الآن ؟ لو سكتَّ، لكان خيراً لك.

كان لمحمود الوراق جارية أُعطي فيها سبعةَ آلاف دينار، فامتنع. فلما مات اشتُرِيت للمعتصم بسبع مئة دينار. ثم قال لها: كيف رأيتِ ؟ قالتْ: إذا كان أميرُ المُؤمنين ينتظر بشهواته المواريث، فسبعون ديناراً فيَّ كثيرة.

ضيَّف أبو عبدِالله البُخَارِيُّ بعضُ أصحابِه في بستانٍ له، فلما جلس أعجبَ صاحبَ البستان بستانُه، وذلك أنه كان عمل مجالسَ فيه، وأجرىٰ الماءَ في أنهاره. فقال له: يا أبا عبدالله، كيف ترىٰ ؟ فقال: هذه الحياةُ الدُّنيا.





قال أبومنصور الثَّعَالبي في «اليتيمة»: سَمِعْتُ الشَّيخَ أبا الطيِّب يَحْكي أنَّ الأُمَويَّ صاحبَ الأنْدَلُس كتَبَ إليهِ العَزيزُ باللهِ نزار بن المعز صاحِبُ مِصْرَ كتابـًا سبَّه فيه وهَجَاه، فكتَبَ إليه الأُمَويُّ: «أما بَعْدُ: فإِنَّكَ عَرَفْتَنَا فهجَوْتَنَا. وَلَو عَرَفْنَاكَ لأَجبناك». فاشْتَدَّ هذا علىٰ العزيز، وأفْحَمَه عن الجوابِ، يشيرُ أنَّكَ دَعيٌّ لا نعرِفُ قبيلَتَكَ.



كان أبو الفَرج الأصفهاني صاحبُ الأغاني وَسِخـًا زَريّـًا، وكانوا يَتَّقون هجاءَه. وله حكايةٌ مع الجهنيِّ المُحتسب: كان يُجازف، فقال مرَّة: بالبلد الفلانيِّ نعنعٌ يطول حتىٰ يُعمل منه سلالم. فبدرَ أبو الفَرَج، وقال: عجائبُ الدُّنيا ألوان، والقدرة صالحة، فعندنا ما هو أعجبُ مِنْ ذا، زوجُ حمامٍ يَبيضُ بَيْضَتَيْن، فنأخذُهُما، ونضع بدلَهُما سنجتين -ما يوزن به- نحاسـًا، فتفقس عن طست ومسينه، فتضاحَكُوا، وخجلَ الجهنيّ.

كتبَ هفْتكين إلىٰ عضد الدَّولة أَنَّ الشَّام قد صفا، وصار في يدي، وزال عنه حكم العزيز، فإِنْ قوَّيْتَني بالمال والرجال حاربتُ القومَ في دارِهِم، فأجابه عضدُ الدَّولةِ بهذه الأَلفاظ السَّائرة: غرَّك عِزُّك، فصار قصار ذلك ذلّك، فاخشَ فاحشَ فعِلك، فَعَلَّكَ بهذا تُهد، والسلام.





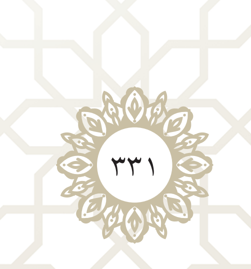
يُقال: أن الصَّاحب إسماعيل بن عباد قال: ثلاثة خجلوني: البندهي حضر المجلسَ، فقدمت فواكه، منها مشمش فائق، فأكل وأَمعن، فقلت: إنَّه ملطخ المعدَة، فقال: لا يعجبني الرئيس إذا تطبَّب. والفرنديُّ قال -وقد جئتُ من دار السلطنة وأنا ضجِرٌ- من أين أقبل مولانا ؟ قلتُ: من لعنة الله، قال: ردَّ الله غُربَتَ مولانا. والثالث المافرُّوخي أيام حُسنه داعبتُه، فقلتُ: رأيتك تحتي، قال: مع ثلاثة مثلي.



وقد سار القاضي ابن البَاقِلانيّ رسولاً عن أمير المؤمنين إلىٰ طاغية الروم، وجرتْ له أمورٌ، منها أنَّه قال لراهبهم: كيف الأهلُ والأولادُ ؟ فقال المَلِكُ: مَهْ ! أما علمتَ أنَّ الراهبَ يتنزّه عن هذا ؟ فقال: تُنزِّهُونه عن هذا، ولا تُنَزِّهون ربَّ العالمين عن الصاحبة والولد.



وقيل: إن الطاغيةَ سألَ القاضي ابن البَاقِلانيّ: كيف جرىٰ لزوجة نبيِّكم ؟ -يقصدُ توبيخاً- فقال: كما جرىٰ لمريَمَ بنتِ عِمران، وبرَّأَهما اللهُ، لكنَّ عائشةَ لم تأتِ بِولد. فأفحمه.

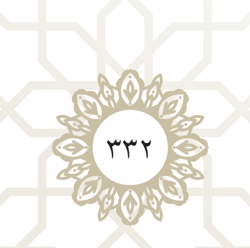




حكىٰ أبو طالب بنُ عبدالسَّميع عن أبيه أن المستظهرَ بالله أحمد بن عبدالله طلب من يُصلي به، ويُلقِّن أولادَه، وأن يكون ضريراً، فوقع اختيارُهُ علىٰ القاضي أبي الحسن المبارك بن محمد بن الدَّواس مقرئ واسط قبل القلانسي، فكان مكرِمًا له، حتىٰ إنه مِن كثرة إعجابه به كان أول رمضان قذ شَرَهَ في التراويح، فقرأ في الرَّكعتين الأوليين آيةً آيةً، فلما سلم، قال له المستظهر: زِدْنا من التلاوة، فتلا آيتين آيتين، فقال له: زِدْنا، فلم يزل حتَّىٰ كان يقومُ كُلَّ ليلةٍ بجزء، وإنه ليلةً عَطِشَ، فناوله الخليفةُ الكُوزَ، فقال خادم: ادْعُ لأميرِ المؤمنين، فإنه شرَّفَكَ بمناولته إيَّاكَ، فقال: جزىٰ العمىٰ عنِّي خيراً، ثم نهض إلىٰ الصلاة، ولم يَزِدْ علىٰ ذلك.



قيل: كان القاضي الفاضلُ عبدالرحيم بن علي أحدَبَ، وذهبَ في الرُّسليَّةِ إلىٰ صاحِبِ المَوْصِلِ، فأُحْضِرَتْ فواكهُ، فقال بعضُ الكبارِ مُنكِّتاً: خيارُكُم أحْدَبُ، يُوَرِّيْ بذلك، فقال الفاضلُ: خَسُّنا خيرٌ من خيارِكم.





من صور المجون والفسوق والجبروت

أنشأ قُرَّةُ بنُ شَريك القيسيّ جامعَ الفُسطاط؛ وكان إذا انصرف منه الصُّنَّاع، دخلَهُ ودعا بالخمور والمطربين، ويقول: لنا اللَّيْلُ ولهم النهارُ.

تكبَّر ابنُ أُخت وَليد عبدالله بن أحمد، واستهانَ بالناس، وكان يَهْزِلُ في مجلِسِه، وله أموالٌ ومتاجرة، وكان يقول لحاجبه: أين اليهود ؟ يعني: الشهود، وأينَ الكُمنا ؟ يعني: الأمناء. وقالت امرأة: خُذْ بيدي، قال: وبرجلِك.

ومن جَبَروتِ المُعْتَمِد بنُ عبَّاد محمد بن عباد وعُتُوِّه أنه أخذ مالاً لأعمىٰ، فهجَّ وجاور بمكة، فبلغ المعتضدَ أنه يَدعو عليه، فندبَ رَجلاً أعطاه جُملَةَ دنانير مطليَّةً بِسُمّ، فسارَ إلىٰ مكة، وأوصله الذهب، فقال: يَظلمني بإشبيلية، ويَصِلُني هنا ؟! ثم وَضَعَ منها ديناراً في فَمه كَعَادَةِ الأَضِرَّاءِ، فمات مِن الغد.





قال ابنُ خَلِّكَانَ: كان ابن السَّلَّار الملك العادل سيف الدين أبو الحسن علي الكردي الوزير جُنديـًا فدخل علىٰ المُوفق التِّنِّيسي، فشكا إليه غَرامةً، فقال: إنَّ كَلَامَكَ ما يدخُلُ في أذني، فلما وزر اختفىٰ المُوفَّق، فنُودي في البلد: من أخفاه فدمُهُ هدَرٌ. فخرج في زِيِّ امرأةٍ، فأُخذ، فأمر العادلُ بلوحٍ ومسمارٍ، وسُمِّر في أُذُنِهِ إلىٰ اللوح، ولما صرخ، قال: دخل كلامي في أُذُنِكَ أم لا ؟

ويقال: إنَّ الظَّاهر غازي بن يوسف عبثَ بالشاعِرِ الحلِّي، وألحَّ عليهِ، فقال الحلِّي: أنظِمُ ؟ يُعَرِّضُ بالهجاءِ. فقال الظاهرُ: انثُر ؟ وقبضَ علىٰ السَّيف.

لم يكن جِنْكِزخان يتقيد بدين الإِسلام ولا بغيره، وقَتْلُ المُسلم أهونُ عنده من قتل البُرْغُوث.

قال الحَريريّ علي بن أبي الحسن الحوراني لأصحابه: بايعوني علىٰ أن نموت يهودَ ونحشر إلىٰ النار حتّىٰ لا يصحبني أحدٌ لعلَّةٍ.



كان الحريريُّ علي بن أبي الحسن الحوراني يَلْبَسُ ما اتفق والمُطَرَّز والمُلَوَّن، وقال عن نفسه:

فقيرٌ ولكِنْ من صلاحٍ ومن تُقىً   وشـــيخٌ ولكن للفسُـــوقِ إمامُ





في الذم والهجاء

أهدىٰ حُسام بنُ مِصَكّ إلىٰ قتادة نعلاً، فجعل قتادة يحركها وهي تتثنىٰ من رِقتها وقال: إنك لتعرف سُخْف الرجل في هديته.

كان إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك ذا شجاعة، وأمة بربرية ولم يستقم له أمر، فكان جماعة يسلمون عليه بالخلافة وطائفة بالإمرة، وامتنع جماعة من بيعته. وقيل:

يُبَايَــعُ إبرَاهِيــمُ في كُلِّ جُمْعَــةٍ   ألَا إنَّ أمْــرَاً أنْتَ وَاليــهِ ضَائِعُ

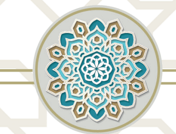
علي بنُ هلال ابنُ البواب، عبثَ به شاعرٌ، فقال:

هــذا وأَنْتَ ابنُ بَــوّابٍ وذُو عَدَمٍ   فَكَيْفَ لو كُنْتَ رَبَّ الدَّارِ والمَالِ

ابن المُطَّلب أبو سعد محمد بن علي الكرماني البغدادي الشاعر، له هَجْوٌ بليغ، عُزِلَ من كتابةٍ، فقال:

عُزِلْــتُ وَما خُنْــتُ فِيمَا وَليت   وغَــيْري يَخُونُ ولا يُعــزَلُ





فهـــذَا يـــدلُّ على أَنَّ مـــن يُـــولِّي وَيَعْـــزِلُ لا يَعْقِـــلُ



قال السَّمعاني: سمعتُ عليَّ بنَ طِرادٍ يقول: ضاع حمارٌ لِسَوَادِيٍّ بباب الأَزَجِ، فتطلَّبه، فقال له شيْذله عزيزي بن عبدالملك: خُذِ المِقْوَد، وشُدَّه في رقبةِ من أردت مِن أهل المَحَلَّةِ، فإنهم مِثْلُ ما تطلُبُه.



من صور عدم اجتماع العلم والرزق

عن سُفيان بن عُيَيْنة قال: مَن زِيد في عقله، نقصَ من رزقه.

وقال سُفيان بن عُيَيْنة مرةً لرجل: ما حِرْفَتُك ؟ قال: طلبُ الحديث. قال: بشِّر أهلك بالإِفلاس.

حُكي أنَّ الحَفَري أبطأَ يوماً في الخروج إلىٰ الجماعة، ثم خرج، فقال: أعتَذِرُ إليكم، فإنَّه لم يكن لي ثوب غيرُ هذا، صلَّيتُ فيه، ثم أعطيتُهُ بناتي حتىٰ صَلَّينَ فيه، ثم أخذتُه، وخرجتُ إليكم.

وحكىٰ أبو حيّان التَّوحيدي، قال: رأيت المعافىٰ بن زكريّا قد نام مُستدبر الشَّمسِ في جامع الرُّصافة في يوم شاتٍ، وبه من أثر الضُّر والفقر والبؤس أمرٌ عظيمٌ مع غزارة علمه.



قال أبو العباس الجُرْجاني القاضي: كان أبو إسحاقَ الشِّيرازي إبراهيم بن علي لا يملك شيئًا، بلغَ به الفقر، حتىٰ لا يجدُ قوتًا ولا مَلْبسًا، كنا نأتيه وهو ساكنٌ في القَطيعة، فيقومُ لنا نِصف قومةٍ، كي لا يظهر منه شيءٌ من العُري.

قال السَّمعاني: كانت لسُليمان بن إبراهيم أبو مسعود الأصبهاني، معرفةٌ بالحديث، جمعَ الأبوابَ، وصنَّف التصانيفَ، وخرَّج علىٰ «الصحيحين»، سألتُ أبا سعدٍ البغداديَّ عنه، فقال: لا بأسَ به، ووصفَه بالرِّحلة والجَمعِ، والكَثرَةِ، كان يُمل علينا، فقام سائلٌ يطلب، فقال سليمان: مِن شُؤمِ السائلِ أن يسألَ أصحابَ المحابِر.







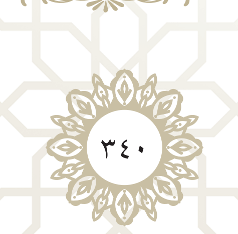
عن الصبر والتجلد

قال ميمون بن مهران: ما نالَ رجلٌ من جسيم الخير -نبيٌ ولا غيُره- إلاَّ بالصبر.

قال أبو مسلم الخراساني: ارتديت الصبرَ، وآثرت الكتمان، وحالفتُ الأحزان والأشجان، وسامحتُ المقادير والأحكام حتىٰ أدركتُ بُغْيَتي، ثم أنشد:

قَد نِلتُ بالحَزمِ والكِتمان مَا عَجَزت	عَنهُ مُلُوكُ بني مروان إذ حَشَدوا
مَا زلتُ أضربُهم بالسِّيفِ فَانتَبهُوا	مِن رقدةٍ لَم ينمها قبلهُم أحَدُ
طَفِقتُ أسعى عليهم في دِيارهمُ	وَالقَومُ في مُلكِهم بالشَّامِ قَد رَقدُوا
وَمَن رَعَى غَنماً في أرض مسبعةٍ	ونَامَ عنها تَوَلَّى رعيها الأسَدُ

كان المُعَافىٰ بن عمران الأزدي في الفَرَحِ والحُزنِ واحداً، قتلت الخوارجُ له وَلَدَينِ، فما تبيَّنَ عليه شيءٌ، وجَمَعَ أصحابَه، وأطعمهم، ثمَّ قال لهم: آجَرَكُمُ الله في فلان وفلان.





قال رُوَيْم بن أحمد أبو الحسن: الصَّبْرُ تركُ الشَّكوىٰ، والرِّضىٰ اسْتِلْذاذُ البَلْوىٰ.

وللوَزِير علي بن عيسىٰ في نَكْبَتِهِ:

وَمَنْ يَكُ عَنِّي سائلاً لِشَماتَةٍ لِمَا نَابَنِي أوْ شَامِتاً غَيْرَ سَائِلِ

فَقَدْ أبْرَزَتْ منِّي الخُطُوبُ ابنَ حُرَّةٍ صَبُوراً على أهوال تلك الزَّلازِلِ

إذا سُرَّ لم يَبْطَرْ ولَيْسَ لِنَكْبَةٍ إذا نَزَلَتْ بالخَاشِعِ المُتَضَائِلِ

وللأَبِيوَرْدِي محمد بن أحمد:

تَنَكَّرَ لي دَهْري وَلَمْ يَدْرِ أَنَّني أَعِزُّ وَأَحْداثُ الزَّمانِ تَهُونُ

فَظَلَّ يُريني الخَطْبَ كَيْفَ اعْتداؤهُ وَبِتُّ أُرِيهِ الصَّبْرَ كَيْفَ يَكونُ

ابن ظَفَر أبو عبدالله محمد بن أبي محمد الصقلي، له نَظْمٌ وفضائل، أورد منه ابنُ خلكان قوله:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبُه ويُعرف عند الصبر فيما يُصيبُهُ

ومن قلَّ فيما يتقيه اصطبارُهُ فقد قلَّ فيما يرتجيه نصيبُهُ



لابن شِيْث عبدالرحيم بن علي القوصي:

كُنْ مَعَ الدَّهْرِ كَيْف قَلَّبك الدَّهـ ـــر بِقَلْبٍ رَاضٍ وَصَدْرٍ رَحِيبِ

وَتيَقَّـــن أنَّ اللَّيـــالي سَـــتَأْتِي كُلَّ يَـــوْمٍ وَلَيْلَـــةٍ بِعَجِيـــبِ







عن التأليف والتصنيف

قال أبو عبدالله البخاري: كنتُ عند إسحاق بن راهَوَيْه، فقال بعضُ أصحابنا: لو جمعتُم كتاباً مختصِراً لسُنَنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوقع ذلك في قلبي، فأخذتُ في جمعِ هذا الكتاب.

قال محمدُ بن إسماعيل البُخَارِيُّ: ما وضعتُ في كتابي «الصحيح» حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك، وصلّيتُ ركعتين.

قال ابنُ خُزَيْمَة محمد بن إسحاق: كنت إذا أردتُ أن أُصنِّف الشَّيء أدخُلُ في الصَّلاةِ مُسْتخيراً حتَّىٰ يُفتح لي، ثمَّ أَبتدئُ التَّصنيف. ثم قال أبو عثمان: إنَّ اللهَ ليدفعُ البلاءَ عن أهل هذه المدينة لمكان أبي بكرٍ محمدِ بن إسحاق.

قال الحاكم: رحَلْتُ إلىٰ أبو النَّضر الطُّوسيّ في طُوس مَرَّتين، وسألْتُه متىٰ تتفرَّغ للتَّصْنيف مع هذه الفتاوي الكثيرة ؟ فقال: جَزَّأتُ اللَّيل أثلاثـاً: فثُلُثٌ أصنِّف، وثُلُث أنام، وثُلُث أقرأُ القُرْآن.





قال الأزهري: كان المَرْزُباني يضعُ المحبرةَ وقنينةَ النبيذ يكتبُ ويشرب، وكان معتزليـًا، صنَّف كتابـًا في أخبار المعتزلة، وما كان ثقة.

يقال أن عضدُ الدولة قتل الصَّابئ إبراهيم بن هلال لأنَّه أمره بعمل التاريخ التاجي، فدخل عليه رجلٌ، فسأله ما تؤلف ؟ فقال: أباطيل أُلَفِّقُها، وأكاذَيب أُنَمِّقها، فتحَرَّك عليه عضد الدولة وطرده، ومات، فرثاه الشريف الرضيّ، فَليمَ في ذلك، فقال: إنما رثيتُ فضلَه، وهذا عذر بارد.

قال الحاكم أبا عبداللّه إمامَ أهلِ الحديثِ في عصره يقول: شربتُ ماءَ زمزم، وسألتُ اللّهَ أن يرزُقَني حُسْنَ التصنيف.

قال الحُميديُّ: كان التَّيّاني تمام بن غالب بن عمر إمامـًا في اللغة، ثقةً وَرِعـًا خَيِّراً، له كتابٌ في اللغة لم يُؤلَّفْ مثلُه اختصاراً وإكثاراً، حدثني ابنُ حزم قال: حدثني محمدُ بنَّ الفَرَضي أَنّ الأمير مَجاهداً العامريَّ وجَّه إلىٰ أبي غالب التَّيّاني إذْ غَلَب علىٰ مُرْسِيَة ألفَ دينار علىٰ أن يَزيد في ترجمةِ هذا الكتاب: «مما أَلَّفْتُه لأبي الجيش مُجاهدٍ العامريِّ»، فردَّ الدنانيرَ، ولم يفعَلْ، وقال: لو بُذِلت لي الدنيا علىٰ ذلك، ما فعلتُ، ولا استجزتُ الكَذِبَ، فإني لم أَجْمَعْهُ له خاصة.





وقال المؤتَمَن: كان الخطيبُ أبو بكر أحمد بن علي يقولُ: من صَنّف فقد جعل عقله علىٰ طبق يَعرضه علىٰ الناس.

قيل: إن الغزالي محمد بن محمد ألف «المنخول»، فرآه أبو المعالي، فقال: دفنتني وأنا حيٌّ، فهلاَّ صبرتَ حتىٰ أموت، كتابُك غطَّىٰ علىٰ كتابي.

المَيداني أحمد بن محمد، له كتاب في «الأمثال» لم يُعمل مثلُهُ. قال الصفدي: وفيه ستة آلاف مثل، يقال: إنه لما وقف عليه أبو القاسم الزمخشري، حسده علىٰ جودة تصنيفه، وأخذ القلم، وزاد في لفظة «الميداني» نونـًا، فصار «النميداني» ومعناه بالفارسية الذي لا يعرف شيئـًا، فلما وقف الميداني علىٰ ذلك، عمد إلىٰ تصنيف الزمخشري، فصير الميم نونـًا، فصار «الزنخشري» وهو بالفارسية بائع زوجته.

قال القِفْطيُّ عن ابن الخشَاب أبو محمد عبدالله بن أحمد: عبارتُه أجودُ مِن قلمه، وكان ضَيِّق العَطَن، ما كمَّل تَصْنِيفـًا.





قيل: كان العُكْبَرِيُّ عبدالله بن الحسين النحوي الحنبلي إذا أراد أن يصنِّف كتابًا جمع عدة مُصَنَّفات في ذلك الفنِّ، فقُرِئت عليه، ثم يملي بعد ذلك، فكان يقال: أبو البقاء تلميذ تلامذته؛ يعني هو تبع لهم فيما يقرؤون له ويكتبونه.







عن الشيب والهرم وطول العمر

وفي «تاريخ الخطيب» أنَّ بكرٍ بنَ أبي الدنيا دخل علىٰ يُوسُفَ القَاضِي، فسألَهُ عن قُوَّتِه، فقال القاضي: أجدني كما قال سيبَوَيه:

لا يَنْفَعُ الهِلْيَوْنُ والأطريفلُ

انخَرَقَ الأَعلَىٰ وخارَ الأَسْفَلُ

ونَحْنُ في جِدٍّ وأَنْتَ تَهْزِلُ

فقال ابنُ أبي الدُّنيا:

أراني في انتِقاصٍ كُلَّ يَومٍ ... ولا يَبْقَى مَعَ النُّقْصَانِ شَيُّ

طَوَى العَصْرانِ ما نَشَراهُ مِنِّي ... فأَخْلَقَ جِدَّتي نَشْرٌ وطَيُّ

من شعر ابن فاذشاه:

سِهام الشَّيب نافذةٌ مُصيبة ... وسابِقةُ المُلمَّةِ والمصيبة

ومَنْ نَزَلَ المَشِيْبُ بعَارِضَيْهِ ... قَدِ اسْتَوفى من الدنْيا نَصِيْبَه





قال القاضي ابنُ بكران الشامي: قلتُ للقاضي أبي الطيِّب الطبري طاهر بن عبدالله شيخِنا وقد عُمِّر: لقد متِّعتَ بجوارِحِكَ أيُّها الشيخ ! قال: ولم ؟ وما عصيتُ اللهَ بواحدةٍ منها قَطُّ. أو كما قال.

وللمستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله:

عيَّرتني بالشَّيبِ وهو وَقَارُ ليتَها عَيَّرت بما هُو عارُ

لابن مُنقذ أسامة بن مرشد:

مَعَ الثَّمانينَ عاثَ الضَّعفُ في جَسَدِي وساءني ضَعفُ رِجلي واضطرابُ يَدِي
إذا كَتبتُ فخطّي خطُّ مُضطَرِبٍ كخطِّ مُرتَعِشِ الكَفَّينِ مُرتَعِدِ
فَاعجَبْ لضَعفِ يَدِي عن حَملِها قَلَمَاً مِن بَعدِ حَطْمِ القَنَا في لبَّةِ الأسَدِ
فَقُل لمَن يَتَمَنَّى طول مُدَّتِه: هَذِي عَوَاقِبُ طولِ العمرِ والمُدَدِ

من شعر الأفضَل علي بن يوسف:

يا مَنْ يُسَوِّدُ شَيْبَه بخِضابِهِ لعَسَاهُ في أهلِ الشَّبيبةِ يَحْصُلُ
ها فاخْتَضِبْ بسوادِ حظّي مرَّةً وَلَكَ الأمانُ بأنَّهُ لا يَنْصُلُ





ومن شعر التَّاج الكِندِي:

أَرَى المَرءَ يَهوَى أَن تَطُولَ حَيَاتُهُ ... وفي طُولِهَــا إرهَــاقُ ذُلٍّ وَإزهَاقُ
تَمنَّيــتُ في عَصرِ الشَّــبيبَةِ أَنَّني ... أُعَمَّــرُ والأعمارُ لا شَــكَّ أرزاقُ
فَلمَّــا أتَى مَا قد تَمَنَّيتُ سَــاءَنِي ... مِن العُمرِ ما قد كُنتُ أَهوى وأَشتاقُ
يَقولُــونَ تِريَــاقٌ لِمثلِــكَ نَافِعٌ ... ومَــالِيَ إلاّ رَحمَــةَ اللّٰهِ تِريــاقُ

المَنجَنِيقيّ يعقوب بن صابر الحراني، هو القائل:

وَجَارِيَــةٍ مِــن بَنَــاتِ الحبوش ... بِــذَاتِ جُفُونٍ صِحَــاحٍ مِرَاضِ
تَعَشَّــقتُها لِلتَّصَــابِي فشِــبتُ ... غَرَاماً وَمَا كُنتُ بِالشَّــيبِ رَاضِي
وَكُنــتُ أُعَيِّرُهــا بالسَّــوَادِ ... فَصَــارَت تُعَــيِّرُني بِالبَيَــاضِ

لم يرزق ابن شداد يوسف بن رافع الأسدي ابنًا، ولا كان له أقارب، واتفق أن الملك الظاهر أقطعه إقطاعًا يحصُل له منه جملة كثيرة، فَتَصَمَّدَ له مال كثير فَعَمَّر منه مدرسةً سنة إحدىٰ وست مئة ودارَ حديث وتُربة. قصده الطلبة واشتغلوا عليه للعلم وللدنيا، وصار المُشار إليه في تدبير الدَّولة بحلب، إلىٰ أن استولت عليه البرودات والضعف فكان يَتَمَثَّل:



مَــن يَتَمَـــنَّ العُمـــرَ فَليدَّرِع صَــبَرًا عَلَى فَقِــد أَحبابِــهِ
وَمَـــن يُعَمَّـــر يَلقَ في نَفسِــهِ مَــا قَــد تَمَنَّــاهُ لِأَعدَائِــهِ







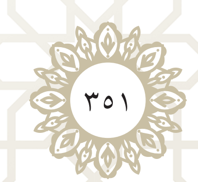
فوات طلب العلم

أبو عُبَيد القاسم بن سلام قال: سَمعني ابنُ إدريس أتلهَّف علىٰ بعضِ الشُّيوخ، فقال لي: يا أبا عبيد، مَهما فاتَك مِن العِلم، فلا يَفوتنَّكَ من العَمل.

وقال جَعفر الخُلدي: كان الأَبَّار أحمد بن علي من أَزهد النَّاس، استأذَنَ أُمَّه في الرحلة إلىٰ قُتيبَة، فلم تَأذَن له، ثم ماتَت، فَخَرج إلىٰ خُراسان، ثم وَصَلَ إلىٰ بَلخ وقد مات قُتيبَة، فكانُوا يُعَزُّونه علىٰ هذا، فقال: هذا ثَمرةُ العِلم، إنِّي اخترتُ رِضىٰ الوالدة.

لما أَن وَصَلَ ابنُ بُجَيْر عمر بن محمد بن بجير إلىٰ مصر صادفَتْه جنازةُ الحافظ أحمدَ بنِ صالح، فشيَّعَها، وتألَّم لفواته.

قال أبو بكر الإسْمَاعيليّ: لما ورَدَ نعي محمدِ بن أيُّوب الرَّازي، بكيتُ وصرختُ، ومزَّقتُ القميص، ووضعتُ التُّراب علىٰ رأسي، فاجتمع عليَّ أهلي، وقالوا: ما أصابَك ؟ قلتُ: نُعِيَ إليَّ محمدُ بنُ أيُّوب، مَنَعْتُموني





الارتحالَ إليه، فَسَلَّوْني وأَذِنُوا لي في الخُروجِ إلىٰ نَسَا إلىٰ الحسنِ بنِ سُفيان، ولم يكن ها هنا شعرة، وأشار إلىٰ وَجْهِه.



قال أبو الطيِّب الطبري طاهر بن عبدالله: سرتُ إلىٰ جُرْجان للقاءِ أبي بكر الإِسماعيليِّ، فقدمْتُها يومَ الخميس، فدخلتُ الحمَّامَ، ومن الغد لقيتُ ولدَه أبا سعد، فقال لي: الشيخُ قد شربَ دواءً لمرضٍ، وقال لي: تجيءُ غداً لتسمعَ منه. فلما كان بكرةُ السبت، غدوتُ، فإذا الناسُ يقولون: مات الإِسماعيليُّ.







عن الأدب والمروءة والمعالي وصيانة النفس

عن عمَّار بن ياسر أَنه قال: ثلاثة مَن كُنَّ فيه، فقد استكملَ الإِيمان، أَو قال: مِن كمال الإِيمان: الإِنفاقُ من الإِقتار، والإِنصافُ من نفسك، وبذلُ السلام للعالم.

قال عبدالله بن مسعود: إني لأكره أن أَرىٰ الرجل فارغًا ليس في عمل آخرة ولا دنيا.

كان أبوسفيان يُحب الرِّياسة والذِّكر، وكان له سُوْرَةٌ كبيرةٌ في خلافة ابنِ عمِّه عُثمان.

السُّوْرَة: المنزلة، قال النابغة:

ألم تَـرَ أن الله أعطاكَ سُـوْرَةً   تـرى كلَّ مَلْك دونهـا يَتَذَبْذَبُ





أتىٰ عُمرُ مشربة بني حارثة، فوجد مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَة، فقال: يا محمد، كيف تراني ؟ قال: أراك كما أُحِبُّ، وكما يُحِبُّ من يُحِبُّ لك الخير، قويّـًا علىٰ جمع المال، عفيفـًا عنه، عدلاً في قَسمه، لو مِلْتَ عدَّلناك كما يُعَدَّلُ السَّهمُ في الثقاف. قال: الحمدُ لله، الذي جعلني في قومٍ إذا مِلْتُ عَدَّلوني.

لما دخل جرير بن عبدالله علىٰ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ألقىٰ له وسادةً، فجلسَ علىٰ الأرض. فقال النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً» فأسلم. ثم قال النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا أتاكم كريم قوم، فأكرموه».

وسُئل الأَحْنَفُ بنُ قَيْس: ما المروءة ؟ قال: كِتمانُ السِّرِّ والبُعد مِنَ الشرِّ.

هرب يزيدُ بن المهلب من الحَبْس، وقصدَ عبدالملك، فمرَّ بعُريب في البرِّيَّة، فقال لغُلامه: استَسقِنا منهم لَبنـًا، فَسَقوْهُ فقال: أعطِهم ألفـًا؛ قال: إنَّ هؤلاء لا يعرفونك؛ قال: لكنِّي أعرِفُ نفسي.





قال عَطَاءُ بنُ أبي رَبَاح: إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأُنْصِتُ له كأني لم أسمعه، وقد سمعتُه قبل أن يُولَد.

وتــراهُ يصغي للحديثِ بســمعه   وبِقلبــه ولعلَّــه أدرى بــه

وعن عبدالعزيز بن عمر: قال لي رجاء بن حَيْوَة: ما أكملَ مروءةَ أبيك - يعني عُمَرُ بنُ عَبدِالعَزيز-! سَمَرتُ عِنده، فَغَشِيَ السِّراجُ، وإلىٰ جانبه وصِيفٌ نامَ، قلت: ألا أُنبِّهُهُ ؟ قال: لا، دَعهُ، قلتُ: أنا أقومُ: قال: لا، ليس من مروءة الرجل استخدامُه ضيفَه، فقام إلىٰ بَطَّةِ (دبة) الزيت، وأصلحَ السِّراجَ، ثم رجع، وقال: قُمتُ وأنا عمر بن عبدالعزيز، ورجعتُ وأنا عُمر بنُ عبدالعزيز.

وروىٰ محمد بن كثير، عن الأوزاعي، قال: كان القاسم بن مُخَيمِرة، يَقدَمُ علينا ها هنا متطوِّعـًا، فإذا أراد أن يرجِعَ، استأذن الوالي، فقيل له: أرأيتَ إن لم يأذن لك، قال: إذاً أُقيم، ثم قرأ: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٍ جَامِعٍ لَّمۡ يَذۡهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾[النور:٦٢].





وقال مِسعر: بعث بعضُ الأمراء إلىٰ أبي حصين عثمان بن عاصم بألفي درهم، وهو عائل، فردها، فقلتُ له: لم رددتَها ؟ قال: الحياء والتكرم.

وروي أن هشاماً بن عروة أهوىٰ إلىٰ يد أبي جعفر ليقبلها، فمنعه وقال: يا ابنَ عروة، إنا نُكرِمُك عنها، ونُكرِمُها عن غيرِك.

أبو مسلم الخراساني ذكره القاضي شمس الدين بن خلكان فقال: لم يُرَ ضاحكاً، ولا مازحاً إلا في وقته، تأتيه الفتوحات العظام، فلا يظهر عليه أثرُ السرور، وتنزل به الفادحة الشديدة، فلا يُرىٰ مكتئباً. وكان إذا غضب لم يستفزه الغضب، وكان لا يأتي النساء في العام إلا مرة، يشير إلىٰ شرف نفسه، وتشاغلها بأعباء الملك.

وعن جعفر بن محمد قال: لا يَتِمُّ المعروفُ إلا بثلاثة: بِتعجِيلِهِ، وتَصْغِيرِه، وسَتْرِهِ.



قال عُتبَة الغُلام: لا يُعجبني رجلٌ لا يكون في يده حرفة.

ذَكَرَ مَخلَدُ بن الحُسَيْن عُتبَة الغُلام وصاحبه يحيىٰ الواسطي فقال: كأنما رَبَّتْهم الأنبياء.

أبو مُسْهِر: حدَّثني محمد بن الأَوزاعي قال: قالَ لي أبي: يا بني! لو كُنَّا نَقبلُ من النَّاس كلَّ ما يعرِضون عَلينا، لأوشَك أن نَهُون عليهم.

عن شُعبة بن الحجاج قال: خذوا عن أهل الشَّرف فإنهم لا يكْذبون.

كان الخَلِيْل بن أحمد الفراهيدي إذا أفاد إنسانًا شيئًا، لم يُره بأنه أفاده، وإن استفاد من أحد شيئًا، أراه بأنه استفاد منه.

الطحاويُّ: حدثنا يونس: سمعت سُفيانَ -وذكر حديثًا- فقالوا: يُخالفك فيه الإمام مالك، فقال: أتقرنني بمالك ؟ ما أنا وهو إلا كما قال جرير:





وابــنُ اللَّبُونِ إذَا ما لُـــزَّ في قَرَنٍ   لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَناعِيسِ

وشرح البيت: ابن اللبون: ما أوفىٰ علىٰ ثلاث سنين، لز: ربط. القرن: الحبل الذي يشد به البعيران ونحوهما فيقرنان معـًا، والبزل: جمع بازل: البعير الذي دخل في السنة التاسعة، والقناعيس: جمع قِنْعاس: الجمل العظيم الجسم، الشديد القوة، قال البغدادي: ضربه مثلاً لمن يعارضه ويهاجيه، يقول: من رام إداركي كان بمنزلة ابن اللبون إذا قرن في قرن مع البازل القنعاس، إن صال عليه لم يقدر علىٰ دفع صولته ومقاومته، وإن رام النهوض معه قصر عن عدوته.

قال الكِسائيُّ علي بن حمزة: صلَّيْتُ بالرَّشيدِ، فأخطأتُ في آيةٍ ما أخطأ فيها صَبِيٌّ، قلتُ: «لَعَلَّهم يَرجِعين»، فواللهِ ما اجترأَ الرّشيدُ أن يقولَ: أخطأتَ، لكن قال: أيُّ لغةٍ هذه ؟ قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، قد يعثُرُ الجواد. قال: أمَّا هذا، فنعم.

وسُئِلَ يوسفُ بن أَسبَاط: ما غايةُ التَّواضع ؟ قال: أنْ لا تلقىٰ أَحَداً إلا رأيت له الفَضْل عليك.





وعن الخُرَيْبي قال: مَنْ أمكنَ الناسَ من كل ما يريدون، أضَرُّوا بدِينِهِ ودُنياه.

قال يونس الصَّدَفيُّ: ما رأيتُ أعقلَ من الإمامُ الشّافِعي، ناظرتهُ يوماً في مسألةٍ، ثم افترقنا، ولقيَني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسىٰ، ألا يستقيم أن نكونَ إخواناً وإن لم نتَّفِقْ في مسألة.

كان يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي عند مالكِ بن أنس رحمه الله، فمرَّ علىٰ باب مالكٍ الفيلُ، فخرج كُلُّ مَنْ كان في مجلسِه لرؤية الفيلِ، سوىٰ يحيىٰ بن يحيىٰ، فلم يَقُمْ، فأُعْجِبَ به مالك، وسأله: من أنت ؟ وأينَ بلدُك ؟ ثم لم يزل بعد مُكْرِماً له.

قال إبراهيمُ الحَرْبِيُّ: لو كان الكذبُ حلالاً تركه هارونُ الحمّال تَنَزُّهاً.

وقال الجُنَيْدُ: سمعتُ سَرِياً بنُ المُغَلِّس السَّقطِيُّ يقول: أُحِبُّ أَن آكل أكلةً ليس للهِ عليَّ فيها تَبِعَةٌ، ولا لمخلوقٍ فيها منَّةٌ، فما أجدُ إلىٰ ذلك سبيلاً.





وقيل: كان محمَّد بن داود خَصْمـاً لابنِ سُرَيْج في المنَاظَرة، كانَا يترادان في الكتب، فلما بلغ ابنَ سُرَيْج موت محمد بن دَاود، حَزِنَ لَهُ، ونَحَّىٰ مَخادَّه، وجلس للتَّعْزِيَة، وقال: ما آسىٰ إلا علىٰ تُرابٍ يأكُلُ لسَانَ محمد بن داود.

وعن ابْنُ الجَلاَّء أحمد بن يحيىٰ قال: آلةُ الفقير صِيانةُ فَقْره، وحِفْظُ سِرِّه، وأداءُ فَرضِه.

وكان محمَّدُ بنُ جَرير بن يزيد بن كثير ربَّما أهدىٰ إليه بعضُ أصدقائه الشَّيءَ فيَقْبله، ويكافِئهُ أضعافاً لعظم مروءَته.

قيل: كان ابن الفُرات يلتذُّ بقضاء حوائج الرَّعيّة، وما ردَّ أحداً قطُّ عن حاجةٍ ردَّ آيِس، بل يقول: تُعاودُني. أو يقول: أُعوِّضُك من هذا.

الصُّوليُّ: حدَّثني أحمد بن العبّاس النَّوْفَلي: أنَّهم كانوا يجالسون ابن الفرات قبل الوزارة، وجلس معهم ليلةً لمّا وَزَرَ، فلم يَجِئ الفَرّاشون بالتُّكأ، فغضبَ عليهم وقال: إنَّما رَفَعَني اللهُ لأَضَعَ مِن جُلَسائي ؟! والله ! لا جالَسوني



إلاَّ بتُكاءَين. فكنّا كذلك ليالِيَ حتَّىٰ استعْفَيْنا، فقال: واللهِ ما أُريد الدنيا إلّا لخيرٍ أُقدِّمه أو صديقٍ أَنفعهُ، ولولا أنَّ النُّزول عن الصَّدر سخفٌ لا يَصلحُ لمثل حالي لساوَيْتُكم في المجلس.

قال الصُّوليُّ: لم أسمع ابنُ الفُرات قطُّ دعا أحداً من كتّابه بغير كُنْيَته ومرض مرَّةً فقال: ما غمّي بعلَّتي بأشَدَّ من غَمِّي بتأخُّر حوائج النّاس وفيهم المضطّر.

كان ابنُ الفُرَات يمنع النّاس من المشي بين يَدَيْه.

قال أبو القاسم بنُ علانَ الوَاسِطِيُّ: لَمَّا أصَابَ أبا الحسن الكَرْخِيَّ الفَالج في آخر عُمُره، حَضَرْتُهُ، وَحَضَرَ أصحابُه، فقالوا: هذا مَرَضٌ يحتاجُ إلىٰ نَفَقَة وعِلاج، والشَّيخ مُقلٌّ ولا ينبغي أن نَبذُلَه للنَّاس، فكَتَبُوا إلىٰ سيفِ الدَّوْلة بنِ حَمْدان، فأحسّ الشيخُ بما هم فيه، فبكىٰ، وقال: اللَّهم لاتجعلْ رِزْقي إلاَّ مِنْ حيث عَوَّدتني، فمات قَبْل أن يُحمَل إليه شيءٌ. ثُمَّ جاء مِنْ سيف الدَّولة عشرة آلاف دِرْهم، فتُصدِّق بها عنه.





قال عبدُ اللهِ بنُ يوسف: كنتُ عند ابنِ المهلَّبي بمصر، فقال: كنتُ حاضراً في دار الوزير ابن كلِّس، فدخل عليه أبو العبّاس ولد الوزير أبي الفضل بن حِنزابة، وكان قد زوَّجه بابنَتِه، فقال له: يا سيِّدي ما أنا بأجلَّ من أبيك، ولا بأفضلَ، أتدري ما أقعده خلف الناس ؟ شَيْل أنفه بأبيه (كناية عن تكبره وتعاظمه)، فلا تَشِبْ -يا أبا العبّاس- أنفَك بأبيك. تدري ما الإِقبال ؟ نشاطٌ وتواضع، والإِدبار كسلٌ وترفُّع.

الخَرْكُوْشيّ عبدالملك بن أبي عثمان، كان ممّن وُضِعَ له القبولُ في الأرض، وكان الفُقراء في مجلسِه كالأُمراء، وكان يعملُ القَلانس، ويأكُل مِن كَسبه، بنىٰ مدرسةً وداراً للمرضىٰ، ووقف الأوقافَ، وله خِزَانَةُ كُتُب موقوفةٌ.

ومن شعرِ النُّعَيمي علي بن أحمد المشهورِ له:

إِذَا أَظْمَأَتْكَ أَكُفُّ اللِّئام ... كَفَتْكَ القَنَاعَةُ شِبْعاً ورِيَّا

فإِنَّ إِراقَةَ ماءِ الحَيَاة ... دُوْنَ إِراقَةِ مَاءِ المُحَيّا





قال السمعاني: قرأتُ بخط هِبَةِ الله السَّقَطي أن ابن الدَّجاجي أبو الغنائم محمد بن علي كان ذا وَجاهة وتَقَدُّمٍ وحالٍ واسعة، وعهدي به وقد أخنىٰ عليه الزمانُ، وقَصدتُه في جماعةٍ مُثْرِينَ لنسمع منه وهو مريضٌ، فدخلنا وهو علىٰ بارِيَّةٍ (الحصيرة)، وعليه جُبَّةٌ قد حَرّقتِ النارُ فيها، وليس عنده ما يُساوي درهمـًا، فحملَ علىٰ نفسِه حتىٰ قرأنا عليه بحسب شَرَهِ أهل الحديث، فلما خرجنا قلتُ: هل معكُم ما نصرفهُ إلىٰ الشيخ ؟ فاجتمع له نحوُ خمسةِ مثاقيل، فدعوتُ بنتَه، وأعطيتُها، ووقفتُ لأرىٰ تسليمها له، فلما أعطته؛ لطم حُرَّ وجهه، ونادىٰ: وافضيحتاه: آخذُ علىٰ حديثِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عوضـًا ؟ لا والله. ونهض حافيـًا إليَّ، وبكىٰ، فأعدتُ الذهب إليهم، فتَصدّقوا به.

السمعاني: سمعتُ الخطيب مسعودَ بنَ محمد بمرو، سمعتُ الفضلَ بن عمر النَّسَوي يقولُ: كنتُ بجامع صور عند أبي بكر الخطيب، فدخَلَ عَلوي وفي كُمِّه دنانير، فقال: هذا الذهبُ تَصرِفُه في مُهِمَّاتك. فقَطَّب في وجهه، وقال: لا حاجة لي فيه، فقال: كأنك تَسْتَقِلُّهُ، وأرسله من كُمِّهِ علىٰ سجادة الخطيب. وقال: هذه ثَلَاث مئةِ دينار. فقام الخطيبُ خجلاً مُحمّراً وجهُهُ، وأخذ سجادَتَه، ورمىٰ الدنانير، وراح. فما أنىٰ عِزَّه وذُلَّ العلوي وهو يلتَقِطُ الدنانير من شُقُوق الحصير.



وقال أبوجعفر بنُ أبي علي الهَمَذَاني: كان شيخُنا أبوعامر الأَزدي محمود بن القاسم مِن أركانِ مذهبِ الشافعي بِهَرَاة، كان نِظامُ المُلك يقول: لولا هذا الإمام في هذه البلدة، لكان لنا ولهم شأنٌ -يُهَدِّدُهُم-. وكان يعتقدُ فيه اعتقاداً عظيمـاً، لكونه لم يَقْبَلْ منه شيئًا قطُّ.

كان ابن المُوصلايا العلاء بن حسن نصرانيـًا، فأسلم علىٰ يد المقتدي. وكان أفصحَ أهلِ زمانه، وفيه مكارمُ وآدبٌ وعقل. حكىٰ بعض أصحابه فقال: شتمت يومـًا غلامـًا لي، فوبخني، وقال: أنت قادر علىٰ تأديب الغلام أو صرفه، فأما الخنا والقذف فإياك والمعاودة له، فإن الطبع يسرق من الطبع، والصاحب يستدل به علىٰ المصحوب.

أثنىٰ علىٰ العَجَلي عثمان بن علي، أبوسعد السَّمعاني ووصفه بالزهد والورع والإمامة، وأنه كان لا يُمَكِّنُ أحداً مِن الغِيبة عنده.



قال أبو موسىٰ: لا أعلمُ أحداً عابَ علىٰ التَّيمي أبو القاسم إسماعيل بن محمد قولاً ولا فعلاً، ولا عانده أحدٌ إلا ونصره اللهُ، وكان نَزِهَ النَّفْسِ عن المطامع، لا يدخُل علىٰ السلاطينِ، ولا علىٰ من اتصلَ بهم، قد أخلىٰ داراً من مُلكِهِ لأهلِ العلمِ مع خِفَّة ذاتِ يدهِ، ولو أعطاهُ الرجلُ الدنيا بأسرِها لم يرتفع عندهُ، أملىٰ ثلاثةَ آلاف وخمس مئة مجلس، وكان يُملي علىٰ البديهة.



ابن الشَّجري أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد الحسني البغدادي النحوي،



قال السمعاني: الكَرُوخي أبو الفتح عبدالملك بن عبدالله شيخٌ صالح ديِّن خيِّر، حسنُ السيرة، صدوقٌ ثقة، قرأتُ عليه «جامع» الترمذي، وقُرئ عليه عدّة نُوب ببغداد، وكتب به نسخةً بخطِّه، ووقَفَها، ووجدوا سماعَه في أُصول المُؤتمن الساجي، وأبي محمد بن السمرقندي، وكنتُ أقرأ عليه، فمرض، فنفَّذ له بعضُ السامعين شيئًا من الذهب، فما قبلَه، وقال: بعد السبعين واقترابِ الأجلِ آخُذُ علىٰ حديث رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا ! وردَّه مع الاحتياجِ إليه.





كان أبو حَكِيم إبراهيم بن دينار النهرواني يُؤثر الخُمول والقُنوع، ويقتاتُ من الخِياطة، فيأخُذ علىٰ القميص حَبَّتَين فقط، ولقد جهد جماعةٌ في إغضابه، فعجزوا، وكان يخدُم الزَّمْنىٰ والعجائزَ بوجهٍ طَلْق.

كان أبو طاهرٍ السِّلَفِيّ أحمد بن محمد لا تبدو منهُ جفوةٌ لأحدٍ، ويجلسُ للحديث فلا يشربُ ماءً، ولا يبزقُ، ولا يتورّكُ، ولا تبدو له قدمٌ، وقد جازَ المئةَ. وكان مدة مُقامِه بالإسكندريةِ ما خرجَ منها إلىٰ بُستانٍ ولا فُرجةٍ سوىٰ مرةٍ واحدةٍ، بل كان لازمـًا مدرستَهُ، وما كاد أحدٌ يدخلُ عليه إلا ورئآه مطالعـًا في شيءٍ، وكانَ حليمـًا متحمِّلاً لجفاءِ الغرباءِ.

قال الضياء: كان ابن قُدامَة عبدالله بن أحمد المقدسي الجماعيلي حَسَن الأخلاق لا يكاد يراه أحد إلا مُتَبسِّمـًا، يحكي الحكايات ويمزح. وسمعتُ البهاء يقول: كان الشيخ في القراءة يُمازحنا ويَنْبَسط. وكلموه مرة في صبيان يشتغلون عليه، فقال: هُم صبيان ولا بُد لهم من اللّعب، وأنتم كنتم مثلهم. وكان لا ينافس أهل الدنيا، ولا يكاد يشكو، وربما كان أكثر حاجة من غيره، وكان يؤثر.





قال الحاجب عليّ بن محمد بن جعفر: برزَ من الناصر لدين الله أحمد بن الحسن العباسي البغدادي توقيع إلىٰ صَدْر المخزن جلال الدين ابن يُونُس: «لا ينبغي لأرباب هذا المقام أن يُقْدِمُوا علىٰ أمر لم ينظروا في عاقبته، فإنَّ النَّظر قبل الإقدام خيرٌ من الندم بعد الفوات، ولا يؤخذ البرآء بقول الأعداء، فلكل ناصح كاشح، ولا يُطالب بالأموال من لم يخن في الأعمال، فإنّ المُصادرة مكافأة للظالمين، وليكن العفاف والتقىٰ رقيبين عليك». وبرز منه توقيع: «قد تَكَرَّر تقدُّمنا إليك مما افترضه الله علينا ويلزمنا القيام به كيف يُهْمَل حالُ الناس حتىٰ تم عليهم ما قد بُيّن في باطنها، فتنصف الرجل وتقابل العامل إن لم يفلج بحجة شرعية».



كان السَّخاوي علي بن محمد الهمذاني مع سعةِ علومِهِ وفضائلهِ ديّناً، حسنَ الأخلاق، محبّباً إلىٰ الناس، وافر الحُرمةِ، مُطَّرِحاً للتكلُّفِ، ليس له شغلٌ إلا العلمُ ونشره.





قال شمس الدين ابن الفخر: أمّا رياسة ابن الجوزي يوسف بن أبي الفرج البكري وعَقْله فتُنْقَل بالتَّواتر حتىٰ قال السُّلطان الملك الكامل: كل أحد يُعوزه عَقْل سوىٰ ابن الجوزي فإنَّه يعوزه نقص عقل! وذلك لشدَّة مُسكته وتصميمه وقوة نَفْسِهِ؛ تُحكَىٰ عنه عجائب في ذلك: مرّ ببابِ البريد فوقع حانوت في السُّويقة، وضجَّ الناسُ وسقطت خَشَبة علىٰ كفل البَغْلَة فما التفت ولا تَغَيَّر. وكان يُناظر ولا يحرك له جارحة.







عن المرض

مرض عبدالله بن مسعود، فعاده عثمان، وقال: ما تشتكي ؟ قال: ذُنوبِي، قال: فما تشتهي ؟ قال: رحمةَ ربي، قال: أَلا آمر لك بطبيب ؟ قال: الطبيبُ أَمرضني، قال: أَلا آمر لك بعطاء ؟ قال: لا حاجةَ لي فيه.



الأوزاعي، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبيه: أنَّ أبا الدرداء أوْجَعَتْ عينُه حتىٰ ذهبت، فقيل له: لو دعوتَ الله ؟ فقال: ما فرغتُ بعدُ من دعائه لذنوبي؛ فكيف أدعو لعيني ؟



سردَ المدائنيُّ علي بن محمد الصومَ قبل موته بثلاثينَ سنة، وقارب المئةَ، وقيلَ له في مرضه: ما تشتهي ؟ قال: أشتهي أن أعيش.



قال الحُسين بن فَهم: قَدِم عَلينا مُحمدُ بن سلاَّم الجمحي بغداد سَنةَ اثنتيَن وعِشرين، فاعتلَّ عِلة شَديدةً، فأَهدىٰ إليه الرُّؤساء أطباءَهم، وكان منهم ابن ماسُويه الطَّبيب، فلما رآه، قال: ما أرىٰ مِن العِلّة كما أرىٰ من الجَزَعِ. قال: واللهِ ما ذاكَ لِحرصٍ علىٰ الدُّنيا مع اثنَتين وثَمانين سَنة، ولكنَّ الإِنسانَ في غَفلةٍ حتىٰ يُوقَظ بعلمه.

قيل: إنَّ أبا حَفصٍ عمرو النَّيْسابوريُّ دخلَ علىٰ مريض، فقال المريضُ: آه، فقال أبوحفص: مِمَّن ؟ فسكتَ. فقال أبوحفص: مع مَن ؟ قال: فكيف أقول ؟ قال: لا يكن أَنِينُك شكوىٰ، ولا سكوتُك تجلُّداً، ولكن بين ذلك.

وقال الشيخ أبوإسحاق في «الطبقات»: كان أبو الفرج الدَّارِمي محمد بن عبدالواحد، فَقيهًا حاسبًا، شاعراً مُتصرِّفًا، ما رأيتُ أفصحَ منه لهجةً، قال لي: مرضتُ، فعادني الشيخُ أبوحامد الإسفراييني، فقلتُ:

مَرِضْتُ فَارْتَحْتُ إلى عائدٍ فعادَني العالَمُ في وَاحِدِ

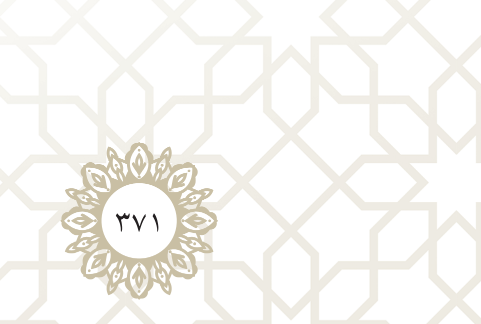


قيل: إن المازَري أبو عبدالله محمد بن علي مرض مرضةً، فلم يَجد من يُعالجه إلا يهوديٌّ، فلما عُوفي علىٰ يده، قال: لولا التزامي بحفظِ صناعتي لأعدمتُكَ المُسلمين. فأثَّر هذا عند المازَري، فأقبل علىٰ تعلُّم الطِّبِّ حتىٰ فاقَ فيه، وكان ممَّن يُفتي فيه كما يُفتي في الفقه.



قال ابن واصل: حكىٰ له طبيب الكامِل محمد بن أبي بكر بن أيوب قال: أخذه زَكام فدخَلَ الحَمَّام، وَصَبَّ علىٰ رأسه ماء شديد الحرارة اتباعـًا لما قال ابن زكريا الرازي: إن ذلك يحلّ الزُّكمة في الحال، وهذا ليس علىٰ إطلاقه، قال: فانصَبَ من دِمَاغه إلىٰ فَمِ المَعِدَةِ مادةٌ فتورمت وعرضت الحُمَّىٰ، وأراد القيءَ، فنهاه الأَطباء، وقالوا: إن تقيأ هَلَكَ، فَخَالَفَ وتَقَيَّأ.







الخاتمة

ستجد بين جلدتي هذا الكتاب .. ما تبتلُّ له روحك .. و تأنس به نفسك .. و تطرب له عينك !

هو كالجدول المنساب عذوبةً .. ففي مشاهدته بهجةً و في ارتشافه سروراً و في الظفر به جذوةً من سناءٍ سيكون لمكتبتك زينةً و لرفوفها لقمةً سائغةً تنتظر جَوعةَ ذائقتك لتُسكِتَ نهمها !

فهو أشبهُ ما يكون بغيمةٍ رطبة .. ما إن تستمطرها عيناك استسقاءً فستهطل من معين النبلاء صوراً تتراقص وكأن الأمس بُعِث من مرقده حرفاً غير آسنٍ لم يبدّله الإيجاز طعماً .. و لم يحوّره الإقصار لوناً ..

فهنا كأنه كفُّ ناسك و يد عابد و ابتهالةُ زاهد .. أثرها أمضىٰ مدىً من جُرمِها .. و أقوم قيلاً من حيّزها .. و أشجىٰ جرْساً مما يبدو عليه ظاهرها !

فهنا لثغرك موعدٌ غير مؤجّل مع ما انسكب فيه من حسْن انتقاء طرفته ؛ و لدهاليز روحك ما ارتصّ بين جدرانه من تفرّدِ اصطفاء قصته و عذب نادِره و متفرّدِه !



